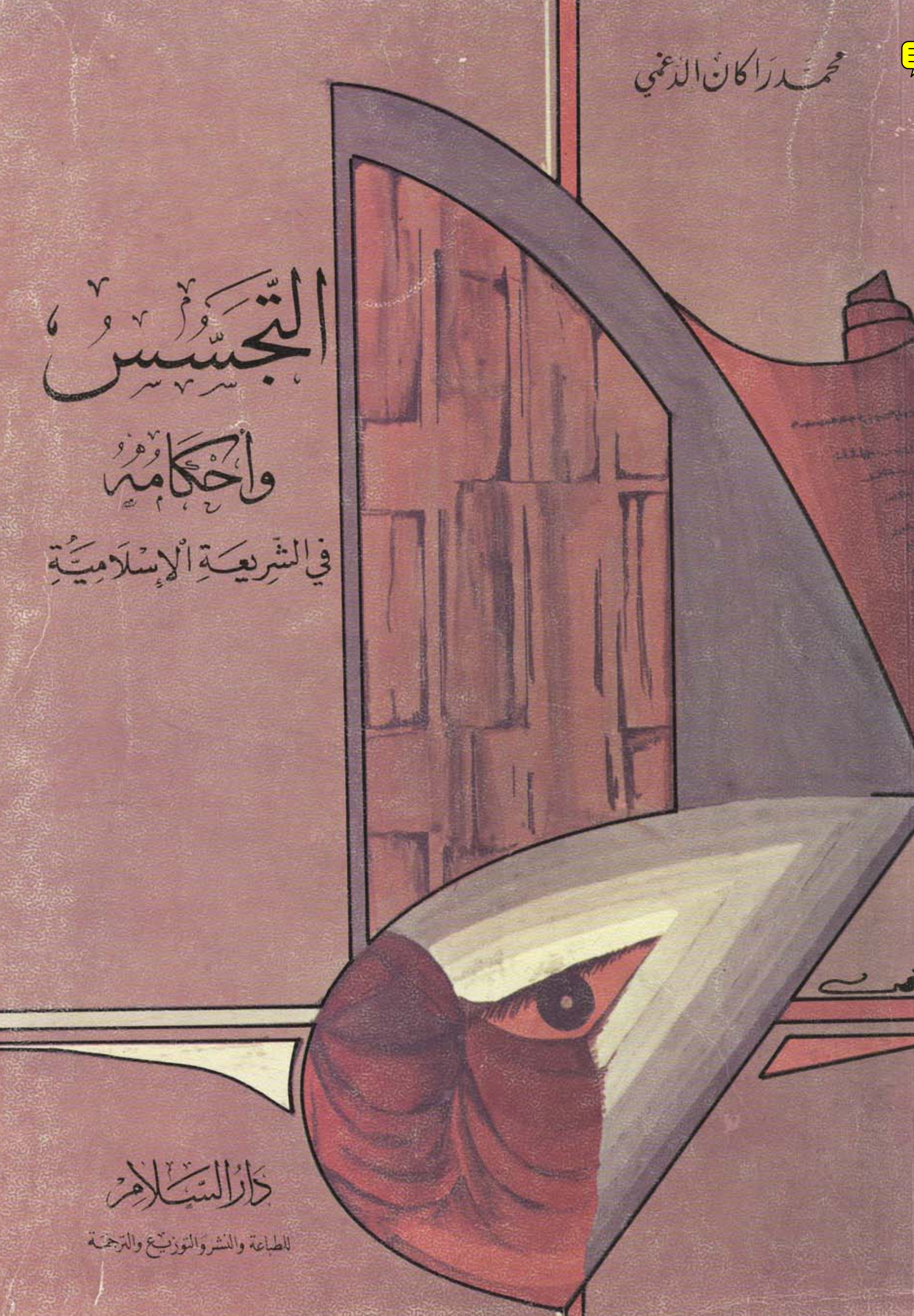

محمد راكان الدغمي
التجسس
وأحكامه
في الشريعة الإسلامية
دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



بقلم
محمد راكان الدغمي

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وإذا جاءهُمْ أَمرٌ مِنَ الأمْنِ أو الخوفِ أذاعُوا بهِ ولَوْ ردُّوهُ إلى الرَّسُولِ وإلى أُولي الأمْرِ مِنْهمْ لعَلِمَهُ الَّذينَ يَستَنْبِطُونهُ مِنْهُمْ ولَوْلا فَضْلُ اللهِ عَليكُمْ ورحْمَتُهُ لاتَّبعتمُ الشَّيْطانَ إلاَّ قلِيلاً ﴾ .

صدق الله العظيم

الإهـداء

إلى ولاة أمور المسلمين في كل مكان ...

إلى المجاهدين في سبيل الله ...

إلى العاملين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ...

أهدي هذا الجهد العلمي المتواضع

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

أحمد الله الموفق لكل خير ، وأشكره بما هو أهله ، شكراً أرجو به أن يزيدني من فضله ، وفيض كرمه وَمَنِّه . وأستغفره عن كل ذنب هو أدرى به مني وأعلم ، وأرجوه المغفرة والعفو .

فإنه يسرني أن أقدم الطبعة الثانية من كتابي ، بعد أن رأيت الإقبال الكبير عليه . في الطبعة الأولى في المملكة الأردنية الهاشمية عام ١٩٨٤ وكانت على نفقة صاحب السمو الملكي الأمير حسن ولي العهد ـ حفظه الله ـ.

وتعميماً للفائدة فقد رأيت أن أعيد طبعه مرّة ثانية ، ليكون أوسع انتشاراً ، وأكثر نفعاً ، وقد تصدت دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة لصاحبها الأخ الكريم عبد القادر البكار المحترم لنشره ثانية ، خدمة منه للإسلام والمسلمين ، بارك الله به ووفقه لعمل الخير .

وفي هذه الطبعة تمكنت من وضع بعض الإضافات كما صححت ـ حسب طاقتي ـ ما فاتني تداركه في الطبعة الأولى .

كما وضعت ملحقاً هاماً وهو عبارة عن : نص الفتوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية حول :

١ ـ خيانة الوطن .

٢ ـ التجسس في الإسلام .

وأردت من ذلك إطلاع القارىء الكريم على هذه الفتوى ، فيزداد معرفة ،

ويزداد البحث وضوحاً ، بعد أن يتضح أمـام القـارىء الرأي ، وكيف أن مصير مثل هؤلاء معروف مهما طال الزمن .

والله الموفق

القاهرة ١٧ من المحرم ١٤٠٦ هـ
٢ / ١٠ / ١٩٨٥ م

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الطبعة الأولى

بقلم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الخياط

أحمد الله وأستعين به وأصلي على نبيه وبعد :

فالعالم اليوم مسعور الهمة ، لاهث الأنفاس ، متسارع الخطوات ، فجردت دوله الكبرى طاقاتها ، وبذلت أموالها ، وشحذت أفكارها في اختراع آلات التدمير والحرب والتفوق العسكري ، وارتادت آفاق الأرض والفضاء ، وأعماق البحار والمحيطات ، وجاوزت في اختراعاتها وتسابقها مقدور التصور في العقل البشري ، وجرت وراءها الدول الصغرى والمتخلفة في محاولات إثبات الوجود والدفاع عن النفس ..

واقتضى هذا التنافس بين الدول أن تحاول كل دولة الاطلاع على أسرار الدولة الأخرى وأن تتعرف أحوالها وأخبارها وثرواتها العلمية وقدراتها العسكرية .. إلى جانب أنها تحاول أن تحمي ذاتها في داخلها من الانتفاض أو التمرد أو المؤامرات ، مستخدمة في ذلك كل وسائل الاتصال والأجهزة والأساليب .. فكان أن اتخذ التجسس صوراً تتفق مع التقدم العلمي المتسارع .

وقديماً كان التجسس ... ، استخدمته الدول لمعرفة أخبار أعدائها وتحركات عساكرها وتقدير قواتها ، واستعمله المسلمون في حروبهم لاستقاء المعلومات واتقاء الأخطار ..

ولما كان الموضوع من الأهمية بمكان يحتاج إلى بيان ماهيته ، واستقراء أنواعه ، واستعراض تاريخه ، وتوضيح أساليبه ، وبيان حكم الشريعة الإسلامية فيه ، ما يحل منه وما يحرم ، وجمع الأحكام الشرعية المتعلقة به ،

فقد قام أخونا النجيب السيد محمد راكان ضيف الله الدغمي باختيار موضوع « التجسس » مدار البحث في رسالته لنيل درجة الماجستير ، وقد وفقه الله إلى تحقيق المقصود في توفية الموضوع حقه : استقصاءَ تاريخ ، وتوضيحَ معالم ، وبيانَ أحكام ، في مادة غزيرة التقطها من متفرق الكتب وبطون الرسائل ، في جهد جهيد ، وعمل دءوب ، فاستحق أن تكون رسالته مرجعاً علمياً في هذا الموضوع ، قبل أن يستحق بها نيل رسالة الماجستير .

وكان له إلى جانب جمع المادة والإتيان بالمعلومات الفريدة والنادرة ، حسنُ العرض والاعتماد على الأدلة ومناقشة الموضوعات ، وبيان الرأي الخاص شأن الباحث المتمكن البصير ، في أسلوب رصين ، وعرض متفنن .

ونحن إذ نبارك جهده ، ونأمل أن يكون هذا الإنتاج بداية الطريق العلمي لا من أجل الحصول على الدرجات العلمية فحسب ، ولكن من أجل خدمة الدين والعلم والأمة ، ليصبح بإذن الله في مصاف كبار العلماء العاملين في هذا البلد الآمن الأمين .

٦ رجب ١٤٠٤ هـ

٨ / ٤ / ١٩٨٤ م

الدكتور عبد العزيز الخياط

عميد كلية الشريعة ـ بالجامعة الأردنية

بسم الله الرحمن الرحيم

تقرير من اللجنة العلمية المكونة من الأساتذة

الأستاذ الدكتور الحسيني يوسف الشيخ الأستاذ المتفرغ بالكلية والمشرف على الرسالة .

الأستاذ الدكتور محمد أحمد الدهمي وكيل الكلية سابقاً .

الأستاذ الدكتور يوسف محمود عبد المقصود رئيس قسم الفقه المقارن .

والتي قامت بمناقشة الطالب : « محمد راكان ضيف الله الدغمي » في رسالة التخصص ـ الماجستير ـ في السياسة الشرعية وموضوعها : « التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية » .

تقع الرسالة في ٣٤١ صفحة وهي مكونة من مقدمة وبابين وخاتمة ......

هذا وقد بذل الباحث جهداً واضحاً في إعداد رسالته العلمية ، وما انطوت عليه من العديد من المباحث الفقهية والترجيحات القوية المدعمة بالدليل الذي اطمأنت إليه نفس الباحث ، كما حوت الرسالة العديد من المراجع الأصيلة القديم منها والحديث ، هذا بالإضافة إلى المراجع العسكرية المعاصرة والعديد من الفهارس العلمية . فالرسالة غزيرة في مادتها العلمية ، غنية بمراجعها الأصيلة .

وقد ناقشته اللجنة مناقشة علنية في أحد مدرجات الكلية مساء يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ربيع الأول سنة ١٤٠١ هـ الموافق ٤ فبراير ١٩٨١ وأبدت إليه ملاحظاتها وتوجيهاتها وتقبلها الباحث بصدر رحب ، وفي بعضها أبدى وجهة نظره .

لهذا قدرت اللجنة العلمية المجهود الطيب الذي قام به الباحث ، ومنحته درجة التخصص ـ الماجستير ـ في السياسة الشرعية بتقدير جيد جداً .

واللجنة ترجو له المزيد من التوفيق والسداد في مستقبل حياته العلمية .

أعضاء لجنة المناقشة والحكم

الأستاذ الدكتور الحسيني يوسف الشيخ

الأستاذ الدكتور محمد أحمد الدهمي

الأستاذ الدكتور يوسف محمود عبد المقصود

تحريراً في ٤ / ٢ / ١٩٨١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، شرع لنا من الدين ما فيه سعادتنا وعزتنا في الدنيا والآخرة . والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين محمد ، أرسله رحمة للعالمين فبلّغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وهو قدوتنا في الدنيا وشفيعنا في الآخرة .

وبعد :

فإن على الدولة الإسلامية أن تقوم بإخضاع رعاياها لسلطان الله تعالى ونشر الرسالة في ربوع العالم كله ، ليخضع جميع الخلق لحكم الله رب العالمين .

ولما كان محرماً على الدولة الإسلامية أن تتقاعس عن أداء هذين الواجبين فإنه يتحتم عليها أن تعد العدة الكاملة بحيث تضمن حماية نظامها من الغزوات الخارجية أو الاضطرابات الداخلية ، وبهذا تضمن القوة الدائمة والفتح المستمر ، كما تضمن حماية رعاياها من كل خطر ، وتصون أموالهم وأعراضهم من كل سوء ، وتحافظ على أمنهم واطمئنانهم ، وتزيل كل ما يعكر صفوهم ، ويقلق راحتهم ، وذلك بتتبع أهل الريب والضلالة ، ومعرفتهم ، وإيقاع العقوبة بهم .

ولا يتسنى للدولة الإسلامية تحقيق هذه المهات الكبيرة إلا بالتخطيط السليم ، المبني على المعرفة المتقدمة بحقيقة العدو في الخارج ، وعملائه في الداخل ، وجمع المعلومات عنه بالطرق والأساليب المشروعة ، ومعرفة ما يبيته للمسلمين ، وما يخططه ضدهم ، وفي ذلك إعداد للعدة التي أمر الله بها ، وإرهاب العدو في دار الحرب باختلاف فئاته ونظمه ، ولأعوانه في داخل

البلاد ، باختلاف أغراضهم وميولهم .

ولقد رأيت أن يكون موضوع رسالة التخصص - الماجستير - التي تقدمت بها إلى كلية الشريعة والقانون بجامعة الأزهر الشريف ، في أمر يمس حياة المجتمع الذي أعيش فيه فيما يتعلق بمقتضيات العصر ، وواقع حياة الأمة الإسلامية ، بحيث يتفاعل مع احتياجاتها وأحداثها ، فاخترت أن يكون إحدى وسائل النصر الهامة في الحرب ، وأحد أسباب ثبات الدولة ، وبقاء سلطانها ، فاخترت أن يكون في موضوع : « التجسس وأحكامه في الشريعة الإسلامية » - وذلك لأهمية التجسس في الشريعة الإسلامية ، كوسيلة عسكرية ذات فاعلية كبيرة في إحراز النصر ، حيث إن عمل الجاسوس يعتبر قمة في الجهاد في سبيل الله تعالى ، من جهة أنه يتجشم أصعب الأخطار للحصول على المعلومات عن العدو .

وحيث إن خطر تجسس العدو كبير على البلاد الإسلامية ، ومصير المجتمع المسلم ؛ فإن الدولة الإسلامية معنية بمحاربة جواسيس العدو ، ووضع الإجراءات الوقائية لدفع أذاهم ، واستعمال الأجهزة المختلفة لإلقاء القبض عليهم ، ووضع الخطط الكفيلة بحماية المجتمع وتوعيته والاهتمام بمعنوياته ومقاومة ما يشيعه العدو بين صفوف المسلمين من حرب نفسية سيما أثناء الحرب .

وبما أنه لم يكتب في هذا الموضوع بصورة متكاملة ومستقلة ، ولحاجة مكتبة الدراسات الإسلامية لهذا البحث فقد اخترت أن أكتب فيه لسد النقص في ذلك ، على الرغم من قلة المراجع التي تعرضت له ، ولكني أستعين بالله رب العالمين وهو حسبي ونعم الوكيل .

ولما كان هذا الموضوع جديداً وما كتب حوله متناثراً في ثنايا الكتب

القديمة والحديثة . فقد تطلب ذلك مني جهداً مضنياً ووقتاً واسعاً حيث رجعت إلى ما توافر لدي من الكتب المختلفة الفقهية والسياسية والاجتماعية والأدبية والتاريخية القديمة والحديثة .

وقد اعتمدت أول ما اعتمدت على القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، وكتب السيرة والتاريخ ، كما وجدت في رسالة عبد الحميد الكاتب إلى أحد قواد الخليفة مروان بن محمد ، وما كتبه القلقشندي في صبح الأعشى ، والهرثمي صاحب الخليفة المأمون في مختصر سياسة الحروب ، العون لي فيما يتعلق بموضوع : « شخصية الجاسوس وإعداده » ، والذي يعتبر بحق خير ما كتب في إدارة وسياسة وتدريب الجواسيس وتعهدهم ، في القديم والحديث .

وقد جعلت الرسالة في بابين وخاتمة .

الباب الأول : في التجسس والجاسوس وفيه فصلان :

الفصل الأول : في معنى التجسس وأهميته ويشتمل على خمسة مباحث :

المبحث الأول : تحدثت فيه عن معنى التجسس لغة واصطلاحاً واستخرجت ما وسعه جهدي مما كُتب في معنى التجسس وتعريفه عند بعض الفقهاء وعرضت تعريفه في القانون الدولي الحديث وخرجت بتعريف للتجسس وتعريف للجاسوس العدو سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم .

المبحث الثاني : خصصته للحديث عن أهمية التجسس في القديم والحديث باعتباره وسيلة من وسائل النصر .

المبحث الثالث : استعرضت فيه ـ بإيجاز ـ بعض استعمالات التجسس قبل الإسلام عند الأمم المختلفة كالمصريين القدماء والصينيين والفرس ، والروم ، وعند العرب قبل الإسلام .

المبحث الرابع : جعلتـه في التجسس في عهـد الرسـول ﷺ وقسمتـه إلى مطالب خمسـة : تكلمت فيهـا عن استعمال الرسول ﷺ للأدلاء والجواسيس في بعض غزواته وحرصه على عدم تسرب الأخبار إلى العدو عن طريق جواسيسه في الداخل خاصة أثناء الاستعـداد والتجهز للغزو ، وذكرت بعض الأسـاليب الوقائية التي استعملها الرسول ﷺ في ذلك ، واهتمامه بالحذر وإخفاء الأخبـار عن العـدو ، واستعمال الشعـار ، واستنتـاج المعلومـات عن العـدو عن طريـق التحقيق مع الجـواسيس الـذين يقبض عليهم ، وتحليـل الأخبـار التي يـأتي بها الجواسيس ، والحث على جمع المعلومـات عن العـدو واختيـار من فيـه الكفـاءة والرغبـة لهـذه المهمـة ، ثم عرضت بعض استعمالات التجسس عنـد قـادة الفتـح الإسلامي الأول ، وأبرزت وصايا الخلفاء الراشدين إلى القـادة بضرورة استعمال الجواسيس وبث الطلائع وسرايا الاستكشاف والحذر من العدو وجواسيسه .

الفصل الثاني : في شخصية الجاسوس وإعداده .

وقسمته إلى مبحثين :

المبحث الأول : جعلته في شخصيـة الجـاسوس وفيـه مطلبـان : تكلمت في المطلب الأول عن شخصية الجاسوس ، واختلافها باختلاف دوافعه التي تـدفعـه لاختيار مثل هذا العمل الخطير .

وفي المطلب الثاني : ذكرت الشروط التي يجب توافرهـا في الجـاسوس حتى يكون ناجحاً في أداء مهمته .

المبحث الثاني : في إعداد الجاسوس وتدريبـه وجعلتـه في ثلاثـة مطـالب : تكلمت فيها عن تدريبه كجنـدي مجـاهـد على مختلف أنواع الأسلحـة والآلات التي يحتاجها ، وعن كيفية معاملـة الجـاسوس ، وتعهـده وإظهـار اللين والرفق والإحسان إليـه ، وإخفـاء أمره ، وتعهـد أهلـه من بعـده بـالصلات ، وتربيـة

أبنـائـه ورعـايتهم مما يعطى للمجـاهـدين من عظيم التكريم وحسن الـوفـاء . وتعرضت كذلك إلى كسب الجواسيس من الأعداء للحصول على المعلومات من مصادرها ، وبث الرعب في نفوس الأعداء بواسطتهم .

أما البـاب الثـاني : فقـد جعلتـه في أحكام التجسس والوقـايـة منـه وفيـه فصلان :

الفصـل الأول : في أحكام التجسس في الفقـه الإسـلامي وفيـه ثـلاثـة مباحث :

المبحث الأول : في التجسس المشروع وجعلته في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في تجسس الدولة على الأفراد والجماعات ومعرفة طـاقـاتهم للاستفادة منهم .

المطلب الثـاني : في تجسس الـدولـة على أهـل الريب والمجرمين وتعقبهم والوقوف على حال الرعية .

المطلب الثالث : في التجسس على العدو .

والمبحث الثاني : في التجسس غير المشروع .. وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في التجسس المؤدي إلى الوقوف على العورات .

المطلب الثاني : في التجسس لمصلحة العدو .

المطلب الثالث : وتكلمت فيه عن التجسس المزدوج والذي يكون لمصلحة شخصية دون النظر إلى الدولة التي يأتي إليها بالأخبار أو يأخذ عنها .

المبحث الثالث : وخصصته في عقوبة الجاسوس . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : تكلمت فيه عن عقوبة الجاسوس المسلم وبينت آراء الفقهاء

وعرضت أدلتهم ورجحت ما رأيته راجحاً منها .

وتكلمت في المطلب الثاني عن عقوبة الجاسوس غير المسلم ، وتناولت عقوبة الجاسوس الذمي ، والجاسوس المستأمن والجاسوس الحربي وذكرت آراء الفقهاء وأدلتهم ورجحت ما رأيته راجحاً منها .

الفصل الثاني : في مكافحة التجسس والوقاية منه : وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في توعية المجتمع من خطر التجسس وجعلته في مطلبين تكلمت فيهما عن النهي عن مكاشفة الأعداء ونقل الأخبار لهم ، وتماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات .

المبحث الثاني : في حماية الثغور من التجسس وهو في مطلبين : تكلمت فيهما عن فضل الرباط في سبيل الله وشحن الثغور بالجيش وإذكاء الروح القتالية فيهم .

المبحث الثالث : في سرية التحركات العسكرية وهو في مطلبين : تكلمت فيهما عن ضرورة تطهير الجيش من المخذلين ، والتكتم في خططه العسكرية وحركته .

وقد ختمت رسالتي بخلاصة بينت فيها ما توصلت إليه من نتائج .

وقبل أن أنهي القول في هذه الافتتاحية أرى لزاماً علي أن أوفي صاحب الحق حقه ، وذا الفضل فضله وأن من أحق الناس بهذا الشكر والثناء أستاذي الكبير الدكتور الحسيني يوسف الشيخ الأستاذ المتفرغ بكلية الشريعة والقانون العالم الفاضل الذي لا تأخذه في الحق لومة لائم ، والذي يسرني أنني تتلمذت على يديه في الدراسات العليا والذي تفضل بقبول الإشراف على هذه الرسالة ، وقاد خطاي في هذا البحث ، ولم يدخر شيئاً من جهده ووقته رغم انشغاله

بالتدريس في سبيل توجيهي وإرشادي حين أعددت رسالتي تحت إشرافه ، فله مني كل تقدير واعتراف بالجميل ، وأسأل الله ربي أن يمد في عمره ، وأن يبارك له في وقته وأن يعطيه الصحة والعافية وأن يجزيه عني خير الجزاء .

وبعد هذا فإني لا أدعي العصمة من الخطأ فالعصمة لله وحده ، ولمن خصهم بها من عباده ، وكل ما أدعيه : هو أنني بذلت قصارى جهدي وغاية ما أملك من قدرة في سبيل تقديم عمل أرجو أن يكون نافعاً للمسلمين ، فإن كنت قد وفقت فهذا ما أبتغيه والفضل لله رب العالمين . وإن كان غير ذلك ـ فحسبي أني أردت الخير وبذلت في سبيله ما وسعني من جهد . أسأل الله مخلصاً أن يسدد خطانا جميعاً ويأخذ بأيدينا ، ويوفقنا لما فيه خير الإسلام والمسلمين والحمد لله أولاً وآخراً .

محمد راكان الدغمي

عمان ـ ١ / ١ / ١٩٨٤

الباب الأول

في التجسس والجاسوس

وفيه فصلان

الفصل الأول

في معنى التجسس وأهميته وفيه خمسة مباحث :

المبحث الأول : في معنى التجسس لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : في أهمية التجسس .

المبحث الثالث : في لمحة تاريخية عن التجسس .

المبحث الرابع : في التجسس في عهد الرسول ﷺ .

المبحث الخامس : في أمثلة من التجسس في الفتوحات الإسلامية الأولى .

الفصل الثاني

في شخصية الجاسوس وإعداده - وفيه مبحثان :

المبحث الأول : في شخصية الجاسوس .

المبحث الثاني : في إعداد الجاسوس .

الفصل الأول

في معنى التجسس وأهميته

وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول : في معنى التجسس لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : في أهمية التجسس .

المبحث الثالث : في لمحة تاريخية عن التجسس .

المبحث الرابع : في التجسس في عهد الرسول ﷺ .

المبحث الخامس : في أمثلة من التجسس في الفتوحات الإسلامية الأولى .

الفصل الأول

في معنى التجسس وأهميته

المبحث الأول : في معنى التجسس لغة واصطلاحاً وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في معنى التجسس لغة :

التجسس : من الجس ، والجس : اللمس باليد وموضعه المجسة ، يجسه جساً ، واجتسه أي :مسه ولمسه .

وجس الشخص بعينيه إذا أحدّ النظر إليه ليستبينه ويتثبته وهو مجاز حيث إن الجس هو اللمس باليد باعتبار ما فيه من معنى الطلب باللمس ، فإن من يطلب شيئاً يجسه ويلمسه ، فأريد ما يلزمه ، واستعمل التفعل للمبالغة ، ومنه جس الأرض جساً : وطئها[1] . ولذلك استعماله في غير اليد مجاز كالقول : جسه بعينه إذا أحد النظر إليه ، والخبر : بحث عنه وفحص ومنه قول الشاعر :

وفتية كالذئاب الطلس قلت لهم   إني أرى شبحاً قد زال أو حالا
فاعصوصبوا ثم جسوه بأعينهم   ثم اختفوه[2] وقرن الشمس قد زالا[3]

ومنه الجساس وهو وصف للمبالغة ، والجسَّاس : الأسد لأنه يؤثر في الفريسة ببراثنه[4] .

ومنه المجس : وهو موضع الجس يقال : فلان ضيق المجس أي ليس برحب الصدر الجمع مجاس .

---

(١) تاج العروس : ٤ / ١١٩ تهذيب اللغة ٩ /٤٤٨ لسان العرب ٧ / ٣٣٧ تفسير الألوسي ٢٦ / ١٥٧ المعجم الوسيط ١ / ١٢٣ عمدة القاري ١٤ / ٢٥٣ .

(٢) اختفوه : أظهروه (انظر المراجع السابقة) .

(٣) لسان العرب ٧ / ٣٣٧ تاج العروس ٤ /١١٩ .

(٤) لسان العرب ٧ / ٣٣٧ تاج العروس ٤ /١١٩ تهذيب اللغة ٩ / ٤٤٨ المعجم الوسيط ١ / ١٢٣ .

وفي المثل أفواهها مَجَاسُّها[٥] .

ومنه الجساسة وهي دابة في جزائر البحر تجس الأخبار وتأتي بها الدَّجال ، وفي حديث تميم الداري[٦] أن الجساسة يعني الدابة التي رآها في جزيرة البحر إنما سميت بذلك لأنها تجس الأخبار وتأتي بها الدجال .

ومنه جس : وهو اسم صوت لزجر البعير[٧] .

ومنه الجاسة : وهي الحاسة من الحواس الخمس ، وجمعها جواس ، وجواس الإنسان معروفة وهي خمس : اليدان والعينان والفم والشم والسمع . الواحد : جاسة ، (ويقال بالحاء المهملة أيضاً) ، والجواس عند الأوائل هي : الحواس ، ولتقاربها قيل لمشاعر الإنسان الحواس ، بالحاء المهملة والجيم المعجمة[٨] .

جس الخبر : بحث عنه ، وتفحص ، وتجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه ، ومنه : التجسس . يقال تجسست فلاناً ، ومن فلان ، أي بحثت عنه كتحسست ، والتحسس (بالحاء المهملة) : التعرف من الحس (بالحاء المهملة) . يقال : تحسست الخبر ، وتجسسته بمعنى واحد : لتقاربها فليس يتعدى إحداهما من الأخرى ، لأن التجسس : البحث عما يكتم والتحسس (بالحاء المهملة) طلب الأخبار والبحث عنها ، يقال :

---

(٥) مثل يضرب في شواهد الأشياء الظاهرة لمعرفة بواطنها والأصل في ذلك أن الإبل إذا أحسنت الأكل اكتفى الناظر بذلك لمعرفة سمنها من أن يجسها (انظر المعجم الوسيط ١ / ١٢٣ ، تاج العروس ٤ / ١٢٠ تهذيب اللغة ٩ / ٤٤٨ ، لسان العرب ٧ / ٣٣٧) .

(٦) في مسلم بشرح النووي المطبعة العربية ومكتبتها ١٦ / ٧٨ ـ ٨٤ وأبي داوود باب الملاحم والفتن ٢ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣ . (عن فاطمة بنت قيس أن رسول الله ﷺ أخر العشاء الآخرة ذات ليلة ثم خرج فقال إنه حبسني حديث كان يحدثنيه تميم الداري عن رجل كان في جزائر البحر ، فإذا أنا بامرأة تجر شعرها قال : من أنت ؟ قالت أنا الجساسة أذهب إلى ذلك العقد فأتيته ، فإذا رجل يجر شعره مسلسل في الأغلال ينزوا « يثب وثباً » فيما بين السماء والأرض ، فقلت من أنت ؟ قال : أنا الدجال . خرج نبي الآيين بعد ؟ قلت نعم . قال : أطاعوه أم عصوه ؟ قلت : بل أطاعوه قال : أطاعوه أم عصوه ؟ قلت : بل أطاعوه قال : ذلك خير لهم » واللفظ لأبي داوود .

(٧) تاج العروس ٤ / ١٢٠ لسان العرب ٧ / ٣٣٧ .

(٨) لسان العرب ٧ / ٣٣٧ المعجم الوسيط ١ / ١٢٣ تهذيب اللغة ٩ / ٤٤٨ تفسير الألوسي ١٦ / ١٥٧ .

تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه على وزن : « تفعل » كما أن التطلب من اللمس ، لما في اللمس من الطلب ، وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ** ﴾[٩] فالمعنيان متحدان إذ مآلها واحد ، وهو معرفة الأخبار[١٠] .

وقيل التجسس بالجيم : التفتيش عن بواطن الأمور وأكثر ما يقال في الشر والجاسوس صاحب سر الشر . وبالحاء المهملة : ما أدركه الإنسان ببعض حواسه ، ويستعمل في الخير ، والناموس صاحب سر الخير[١١] .

وقيل التجسس بالجيم المعجمة : أن يطلب لغيره وبالحاء أن يطلب لنفسه[١٢] .

وقيل : التجسس بالجيم : تتبع الظواهر ، وبالحاء المهملة تتبع البواطن[١٣] .

وقيل التجسس بالجيم : البحث عن العورات ، وبالحاء الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون[١٤] .

وبالنظر إلى هذه الأقوال نلاحظ : أن التجسس بالجيم المعجمة والتحسس بالحاء المهملة مآلها إلى معنى واحد . وأن كلا منهما يعني : البحث عن الأخبار وتفحصها بصورة خفية ، ومعرفة الأمور ، والبحث عنها وطلبها .

وقد ورد قوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَجَسَّسُوا** ﴾[١٥] أي : ولا تبحثوا عن عورات المسلمين وتستكشفوا عما ستره الله تعالى . كما ورد قوله تعالى : ﴿ **يَابَنِي اذهَبُوا**

---

(٩) سورة الجن آية ٨ .

(١٠) تهذيب اللغة ٩ / ٤٤٨ ، لسان العرب ٧ / ٣٣٧ ، دائرة المعارف المصرية ٣ / ٢٣٠ ، تاج العروس ٤ / ١١٩ تفسير الكشاف ٣ / ٥٦٨ الطبعة الأخيرة ، تفسير القرطبي ١٦ / ٣٣٣ تفسير النسفي ٤ / ١٧٢ .

(١١) تاج العروس ٤ / ١٩ ، تهذيب اللغة ٩ / ٤٤٨ لسان العرب ٧ / ٣٣٧ . دائرة المعارف المصرية ٣ / ٢٣٠ تفسير القرطبي ١٦ / ٣٣٣ المعجم الوسيط ١ / ١٢٣ تفسير الألوسي ٢٦ / ١٥٧ .

(١٢) السيرة الحلبية ٢ / ٣٨١ ، تفسير الألوسي ٢٦ / ١٥٧ المعجم الوسيط ١ / ١٢٣ ، لسان العرب ٧ / ٤٥٩ .

(١٣) تفسير الألوسي ٢٦ / ١٥٧ ، لسان العرب ٧ / ٣٣٧ .

(١٤) تاج العروس ٤ / ١١٩ ، لسان العرب ٧ / ٣٧٣ .

(١٥) سورة الحجرات آية ١٢ .

فَتحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وأَخِيه ﴾[١٦] وفيه معنى طلب الإخبار عنه .

المطلب الثاني : في معنى التجسس في الاصطلاح :

لم أجد فيما قرأت من كتب الفقه تعريفاً اصطلاحياً محدداً للتجسس متفق عليه ، وربما كان ظهور معناه كافياً للدلالة عليه دون تحديده بألفاظ خاصة لمعرفته وتمييزه .

ولم يفرد الفقهاء التجسس ببحث مستقل بحيث يتناول أبعاده وأخطاره ، إلا أنه ذكر عرضاً أثناء معالجة مواضيع أخرى كالتعزير مثلاً .

وقد ورد التجسس صراحة في القرآن الكريم في معرض النهي عنه في قوله تعالى : **﴿ ياأيّها الّذينَ آمنوا اجتنبوا كثيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثمٌ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بعضُكم بعضاً . أَيُحبُّ أحدُكم أن يأكلَ لَحمَ أَخيه ميْتاً فكرهتموه واتقوا الله إنَّ الله تَوابٌ رَحيمٌ ﴾**[١٧] .

والنهي في هذه الآية متّجه إلى آحاد المسلمين وجماعاتهم بمعنى : ولا تبحثوا عن عورات المسلمين ومعايبهم ، وتستكشفوا عما ستر الله تعالى . كما قرىء أيضاً بالحاء المهملة **﴿ ولا تَحَسَّسُوا ﴾** من الحس الذي هو أثر الجس وغايته ، والمراد كما يقول الألوسي على القراءتين : النهي عن تتبع العورات مطلقاً ، وعدوه من الكبائر[١٨] .

فالتجسس المنهي عنه في الآية الكريمة هو : تتبع عورات المسلمين وغيرهم ، ومحاولة الوصول إلى معرفتها لإشباع دافع نفسي أو غرض معين ، وهو وإن كان خاصاً بآحاد الناس وأفرادهم فإنه يتناول التجسس الذي تقوم به الجماعات والهيئات أو الدولة بأي صورة من الصور ولأي سبب من الأسباب غير المشروعة التي تستهدف كشف أسرار الأفراد أو الجماعات .

---

(١٦) سورة يوسف آية ٨٧ .

(١٧) سورة الحجرات آية ١٢ .

(١٨) تفسير الألوسي ٢٦ / ١٥٧ .

وقـد ذكر الغـزالي في إحيـاء علـوم الـدين أن التجسس : هـو « طلب الأمـارات المعرفة »[١٩] .

وقـد ذكر في تفسير الكشـاف وتفسير النسفي أن التجسس بـالجيم والتحسس بـالحـاء متقاربان في المعنى . يقال تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنـه على وزن : « تفعل » من الجس ، كما أن التطلب من اللمس ، لما في اللمس من الطلب[٢٠] .

وفي تفسير القرطبي : أن التجسس بالجيم « هو : البحث عما يكتم عنك »[٢١] .

وقـد ورد فـي الحـديث الشـريف الـذي ذكـره صـراحـة في معـرض النهـي عنـه . قال ﷺ : « إياكم والظن فـإن الظن أكـذب الحـديث ، ولا تحسسوا ، ولا تجسسوا ، ولا تناجشوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً »[٢٢] .

وقد أفرد البخاري بابـاً للجاسوس سماه « بـاب الجـاسوس »[٢٣] وأورد الآيـة الكريمـة ﴿ **يا أيُّها الّذينَ آمنوا لاَ تَتخِذُوا عَدُوي وعدوكُم أَوْلِيَاءَ** »[٢٤] .

وفي فتح الباري : « التجسس هو :« البحث » هكذا فسره أبو عبيـدة[٢٥] . والتبحث من باب التفعل من البحث وهو : التفتيش ، ومنـه بحث الفقيـه ، لأنـه يفتش عن أصل المسائل »[٢٦] .

والجـاسـوس على وزن فـاعـول من التجسس[٢٧] ، وفي شرح مسلم أن العين هـو

---

(١٩) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٢١ .

(٢٠) تفسير الكشاف ٣ / ٥٦٨ الطبعة الأخيرة ١٩٦٦ تفسير النسفي ٤ / ١٧٢ .

(٢١) تفسير القرطبي ١٦ / ٣٣٣ .

(٢٢) صحيح مسلم تحقيق عبد البـاقي / بـاب البر والصلة ٤ / ١٩٨٥ (٢٥٦٣) صحيح البخـاري بفتح البـاري رقم (٦٠٦٦) ، ١٠ / ٤٤٨ سنن البيهقي ٨ / ٣٣٣ .

(٢٣) صحيح البخاري ٤ / ٧٢ طبعة الشعب .

(٢٤) سورة الممتحنة آية ١ .

(٢٥) فتح الباري ٦ / ١٤٣ .

(٢٦) عمدة القاري ١٤ / ٢٥٣ .

(٢٧) عمدة القاري ١٤ / ٢٥٣ .

الجاسوس[٢٨] . وفي نيل الأوطار وفتح الباري : أن الجاسوس يسمى عيناً لأن عمله بعينه أو لشدة اهتمامه بالرؤية واستغراقه فيها فكأن جميع بدنه صار عيناً[٢٩] .

وقد أفرد البغوي في شرح السنة باباً في حكم الجاسوس ، وأورد حديث سلمة بن الأكوع ، وحديث حاطب ، وعلق عليهما ، ولم يتعرض لمعنى الجاسوس أو التجسس ، وقد يكون ذلك لظهور المعنى عنده[٣٠] .

والتجسس كما يكون في معرفة الأخبار المتصلة بالعدو في الحرب أو إحصائها ومعرفتها في وقت السلم للأخذ بها عندما تبدأ الحرب ، يكون أيضاً على المؤلفات العلمية وأسرارها وتقصي العيوب والأخطاء فيها[٣١] ، وقد يكون على الصناعات التكنولوجية المتعلقة بالكشف الصناعي أو أسرار القنبلة الذرية[٣٢] .

وقد ذكرت معظم كتب الفقه الجاسوس بمعنى العين وأن العين هو الجاسوس[٣٣] .

وورد تعريف الجاسوس في كتاب الخرشي على خليل بأنه : « هو الشخص الذي يطلع على عورات المسلمين ، وينقل أخبارهم للعدو »[٣٤] .

كما ذكر تعريف العين في حاشية شهاب الدين على شرح الكنز بما يلي : « العين هو :

---

(٢٨) شرح مسلم للشيخ محمد الذهني ٢ / ١٤٠ .

(٢٩) نيل الأوطار ٨ / ١٠ فتح الباري ٦ / ١٦٨ .

(٣٠) شرح السنة للبغوي ١١ / ٧١ ـ ٧٥ الطبعة الأولى .

(٣١) لما ظهر للسيد أحمد فارس الشدياق ما في قاموس الإمام الفيروز ابادي من قصور وإيهام وإيجاز وضع كتاباً سماه : « الجاسوس على القاموس » وقد تجسس فيه على هذه العيوب وأظهرها وقال فيه :

تحريت في الجاسوس نصحاً لكل من ... يؤلف أرجو الأجر من عالم الغيب
فإن كان فيه بعض شيء يعيبه ... فكل كتاب خط لم يخل من عيب

(انظر الجاسوس على القاموس : أحمد فارس الشدياق / مطبعة الجوائب) .

ولد الشدياق في لبنان سنة ١٢١٩ هـ ومات سنة ١٣٠٤ (انظر معجم المؤلفين ـ الجزء الثاني) .

(٣٢) انظر الملحق العسكري / الأميرالاي أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن ص ١٨ .

(٣٣) حاشية ابن عابدين ٣ / ٢٤٩ دار الطباعة المصرية ـ حاشية شهاب الدين على شرح الكنز ٣ / ٢٦٨ .

(٣٤) الخرشي على خليل ٣ / ١١٩ دار صادر .

جاسوس القوم فيطلع على عورات المسلمين وينهي الخبر إلى دارهم »[٣٥] .

وقد ورد التعريف بالجاسوس في دائرة المعارف الإسلامية بما يلي : الجاسوس : « كلمة تدل على المعنى المعروف ، وهي ترد ملازمة مع كلمة عين بمعنى الرقيب ، ومن ثم فإنه لا يمكن في جميع الأحوال أن نميز بين الكلمتين ، ولا يكاد المرء يستطيع أن يناقش إحداهما دون الرجوع إلى الأخرى ، على أن الظاهر أن كلمة جاسوس تستعمل بصفة أخص للدلالة على العين يرسل بين صفوف العدو »[٣٦] .

وقد عرفت الجاسوسية بأنها : « مهنة الجاسوس وهي منظمة تؤلفها الدول في بلادها لتتجسس لها الأخبار وتستطلع الأسرار ، وتأتيها بها والجاسوسية : منظمة تجعل لمحاربة أعمال الجاسوسية »[٣٧] .

كما ورد تعريف الجاسوس في القانون الدولي العام بما يلي : « هو الشخص الذي يعمل في خفية ، أو تحت ستار مظهر كاذب ، في جمع أو محاولة جمع معلومات عن منطقة الأعمال الحربية لإحدى الدول المتحاربة بقصد إيصال هذه المعلومات لدولة العدو »[٣٨] .

ويستنتج من التعريفات السابقة للجاسوس أن التجسس هو : البحث والتفتيش عما يخفى من الأخبار ، والمعلومات السرية الخاصة بالعدو ، بواسطة أجهزة التجسس بقصد الاطلاع عليها . والاستفادة منها ، في إعداد خطة المواجهة .

والملاحظ أن الجاسوس الذي يجمع المعلومات لوطنه يفيد دولته ، بجهوده ، وبذله كل طاقاته لانتصارها ، وهو جندي مخلص ، يختلف بالنسبة لدولته عن الجاسوس الذي يجمع المعلومات عنها ويعطيها لعدوها ، فهذا عدو خطير والأول جندي مخلص يتجسس

---

(٣٥) حاشية شهاب الدين أحمد الشلبي على شرح الكنز ٣ / ٢٦٨ .

(٣٦) دائرة المعارف الإسلامية مجلد ١٠ / ٤٠١ .

(٣٧) المنجد ط ١٩ .

(٣٨) القانون الدولي العام د . أبو هيف ص ٨٤٦ .

الأخبار ، ويجمعها لدولته لإفادتها .

وقد استعملت هذه الكلمة : « الجاسوس » للدلالة على العين الذي يجمع المعلومات عن المسلمين ، ويعطيها لعدوهم ، كما يظهر من التعريف الذي ورد بكتاب الخرشي على خليل والذي مر سابقاً »[٣٩] .

وفي دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة التجسس تستعمل بصفة أخص للدلالة على العين يرسل في صفوف العدو كما سبق ذكره .

وقد عرفه القانون الدولي الحديث بأنه الشخص الذي يجمع المعلومات « في منطقة الأعمال الحربية » كما مر سابقاً .

وفي واقع الأمر أن المعلومات قد تكون في منطقة الأعمال الحربية ، وقد تكون في غير منطقة الأعمال الحربية كأن تكون في الوسط الاجتماعي كمعرفة المعنويات في المجتمع بعيداً عن منطقة الأعمال الحربية . حيث إنه في هذا العصر ونتيجة للتقدم العلمي الهائل وارتباط المجتمع بالجيش والحرب والاقتصاد والسياسة ، فإن أية معلومات عن أي قطاع في الدولة يفيد كمثل إفادة المعلومات الخاصة بالأعمال الحربية ، كما قد يكون جمع هذه المعلومات بطريقة سرية وقد تكون بطريقة علنية ، كجمع المعلومات بالطرق العلنية والمكشوفة ، كأن يخصص من يتتبع النشرات العلمية والفنية والصحافية ، ويخصص من يقوم بالاستماع إلى محطات الإذاعة ، والتلفزيون ، والتي بها يمكن معرفة أكثر من تسعين في المائة من المعلومات ـ وأما العشرة في المائة الباقية فإنها تشكل سراً من أسرار الدولة ، ولا يمكن الحصول عليها إلا بالطرق السرية بواسطة الجواسيس ، وقد يكون ذلك بمساعدة الطرق التكنولوجية المتقدمة[٤٠] .

---

(٣٩) الخرشي على خليل ٣ / ١١٩ (الجاسوس : هو الشخص الذي يطّلع على عورات المسلمين وينقل أخبارهم للعدو) .

(٤٠) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ـ أحمد هاني ص ٩٦ .

والجاسوس بالنسبة للمسلمين إما أن يكون مسلماً مجاهداً في سبيل الله يجمع المعلومات عن العدو لصالح المسلمين ويخلص لله ولرسوله وللمؤمنين ، فيستحق التقدير والمكافأة من القادة والمسئولين ، وإما أن يكون عدواً لهم سواء أكان أجنبياً أم من المسلمين ، حيث إن الجاسوس المسلم الذي ينقل أخبار المسلمين للعدو أشد خطورة من جاسوس الأعداء .

ولهذا أرى أن أخصص تعريفاً للجاسوس العدو الذي يستحق العقاب سواء أكان من المسلمين أم من غيرهم وذلك استنتاجاً مما مر من أقوال الفقهاء والمفسرين فأقول :

الجاسوس هو : الشخص الذي يطلع على عورات المسلمين بطريقة سرية ، وينقل أخبارهم للعدو سواء أكان هذا الشخص مسلماً أم غير مسلم ، وسواء أكانت هذه الأخبار عسكرية أم غير عسكرية ،في وقت السلم أو في وقت الحرب .



☆ ☆ ☆

المبحث الثاني

في أهمية التجسس

منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها والإنسان في صراع من أجل حياته وبقائها، وقد سخر لخدمته الطبيعة، وسيطر على المخلوقات الأخرى.

ويتطور الإنسان، وتنمو آماله لتحقيق مستوى أفضل من التقدم والرقي ونتيجة للتنافس بين الناس ظهرت الحروب، وظهرت معها وسائلها المختلفة التي يتحقق بها الظفر.

وإن من أهم وسائل الظفر: السلاح وطريقة استخدامه، وتوجيهه الوجهة المناسبة في الوقت المناسب. ولا يتم ذلك إلا بالخطة المدروسة، والمنظمة سابقاً، ولا يمكن وضع خطة ناجحة إلا بالحصول على المعلومات السابقة عن العدو، مع الحرص الشديد على عدم تسربها إليه، لئلا تفشل الخطة - ويوجه السلاح إلى غير مكانه، والقوة إلى غير اختصاصها، ولذا تؤكد الكتب العسكرية على ضرورة جمع المعلومات عن العدو وأنها من شروط النصر[١].

والوسيلة للحصول على معلومات عن العدو تكون بواسطة الجواسيس والعيون والأرصاد واستخدام الأجهزة المتقدمة سرية كانت أم علنية.

وقد قيل قديماً: «إذكاء العيون أنفى للظنون»[٢].

فالحصول على معلومات عن نوايا العدو مبكراً وعن تحركاته، يوفر للقيادة الإنذار المبكر، فيتمكن من إنذار المقاتلين، ويعطي فرصة للاستعداد، واتخاذ الإجراءات الخاصة

---

(١) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية / اللواء محمد جمال ص ١٤٩، الوجيز في العسكرية الإسرائيلية ص ١٢، العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ ص ٥٦١، ٥٦٦، الجاسوسية بين الوقاية ص ٥٦١، ٥٦٦، الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٣١، مقدمة ابن خلدون ١ / ٢٢٦.

(٢) التمثيل والمحاضرة - الثعالبي ص ١٥٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي.

بمواجهة الأمر لتفويت الفرصة على العدو من أن يحقق هدفه .

ونظراً لأهمية الأخبار والحرص على معرفتها وعدم تسربها إلى الأعداء نجد أن معظم الدول القديمة ، والحديثة ، تحرص على جمع هذه المعلومات عن الدولة المعادية وتحيط معسكراتها ومواقعها الحربية وقوتها وخططها الحربية وكل ما يتعلق بالأمن بالسرية التامة ، وتتخذ لذلك الحراسات المشددة مبالغة في كتمان الأخبار[٣] .

والجاسوسية بصرف النظر عن أنها جديرة بالاحترام أم غير جديرة به فإنها قديمة قدم الإنسان نفسه ، وأصبحت في العصر الحديث ضرورة لابد منها ، بل وسيلة من وسائل القتال وقد تعد أجهزة التجسس أهم وحدات الجيوش المقاتلة[٤] .

والإسلام بتوجيهاته يأمر المسلمين أن يعدوا العدة وكل ما يستطيعونه من قوة ، بهدف أن يكون للمسلمين شوكة قوية ، وأن يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم في كل وقت ، ويحمون حدود بلادهم من كل اعتداء ، ويعيشون أعزة ، ويطمئنون على النفس والمال والعرض .

وفي توجيه الإسلام إلى إعداد العدَّة يقول الله تعالى : ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعْتُم من قوةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِه عدوَّ الله وعدوَّكم وآخرينَ من دونِهم لا تعلمونَهم الله يَعْلَمُهُم** ﴾[٥] .

ومن إعداد العدة إخفاء الخطط العسكرية ، من أن يعلمها العدو ، كما أن من الإعداد معرفة حال العدو ومدى استعداده وقوته ، ومخططاته ، بواسطة العيون تبث في أرض العدولرصد تحركاته ومعرفة أسراره .

ويشمل الإعداد والاستعداد كل قوة ، مادية أو معنوية أو سياسية أو اقتصادية أو

---

(٣) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج . أحمد هاني ص ٣٢ ـ ٣٣ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١٦٠ .

(٤) الجاسوسية الأميركية ـ أندروتولي ص ١١ .

(٥) سورة الأنفال آية رقم ٦٠ .

نفسية أو اجتماعية بحيث يكون المسلمون في حالة تأهب كامل لأي اعتداء محتمل في كل وقت من الأوقات .

ويقتضي الإعداد وجود يقظة تامة وحذر على درجة عالية ، وإعداد لكافة الأجهزة المستخدمة للقتال ومنها أجهزة جمع المعلومات .

ومعرفة حال العدو ونواياه تؤدي إلى استعداد المسلمين في كل وقت ومن ثم تكون هذه المعلومات وقاية من الهزيمة والهلاك ، كما تحقق استعداد المسلمين لمقاومة جواسيس العدو وحجز المعلومات عنه وهذا ما هو مقرر في القانون الحديث فقد نصت المادة الثالثة والعشرون من لائحة الحرب البرية على جواز استعمال الوسائل اللازمة للحصول على معلومات عن العدو وعن ميدان القتال .. فالتجسس بمقتضى هذه المادة يعتبر عملاً مشروعاً في القانون الدولي الحديث(٦) .

ومن مهام القائد لكي يضع خطة حربية سليمة للظفر بالعدو ، ومن أجل أن يأمن خداعه : أن يعرف الكثير من تحصيناته ومواقعه وتنظيماته العسكرية ، ومبلغ قوته وحركاته المقبلة . وما إلى ذلك .

وأن بين الدول في معرفة أسرار الدول المعادية سباقاً لاهثاً بعيد المدى ، في إعداد المخابرات والجواسيس بأعداد كبيرة وتنظيم محكم(٧) .

فالتخطيط السليم للمعركة يتوقف على معرفة أسرار العدو ورصد تحركاته وكشف مخططاته ، ولا سبيل إلى التخطيط السليم المدروس إلا بالمعرفة المبكرة للحصول على المعلومات بواسطة الجواسيس والطلائع وبث العيون واستخدام الوسائل المتقدمة للتجسس كاستعمال الأقمار الصناعية والآلات الألكترونية وكل الوسائل المتقدمة للحصول على

---

(٦) قانون الحرب / عبد العزيز علي جميع ورفيقاه ص ١٧٤ ، القانون الدولي العام ٨٤٦ .

(٧) انظر العلاقات الدولية والنظم القضائية في الشريعة الإسلامية ص ١٢٩ ـ ١٣٠ ، الحرب النفسية ١ / ١٩١ .

المعلومات من مصادرها الأولية[٨] .

وقد توصل العلم إلى الحصول على المعلومات بواسطة استخدام أجهزة التجسس التي تستطيع التقاط المحادثات وتسجيلها كذبذبات بواسطة أجهزة خاصة في بلد آخر ، ثم ترسل إلى المركز لتحليلها بواسطة العقول الألكترونية .

وهناك أجهزة الاستنصات المتقدمة ، فقد توصل العلم إلى اختراع ما يسمى بالصندوق الفضي وهي : آلة تلصق بأي جهاز هاتف وتكفي إدارة رقم من يراد الاستماع إلى مكالماته مرة واحدة ، حتى ولو لم يقرع الجرس في الطرف الآخر وعندها يمكن الاستماع إلى جميع المكالمات ويصبح الجهاز الملصق به هذه الآلة مفتوحاً بصورة دائمة ، رفعت السماعة أم بقيت على الجهاز[٩] .

وهناك أجهزة رصد واستماع ضخمة تعبر المحيطات كما هي الحال في سفينة التجسس الأميركية المعروفة باسم « ليبرتي » والتي ظهر أثرها في عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين أثناء الحرب بين العرب وإسرائيل .

وقد توصلت وسائل الجاسوسية وأجهزة الاستنصات إلى استخدام الحيوانات لإكمال مهمة الأقمار الصناعية بحيث ترسل المعلومات بواسطة أجهزة خاصة تثبت في جوف بعض الحيوانات وترسل المعلومات إلى المركز ثم تحلل ألكترونياً[١٠].

كما تستعمل الحيل المتقدمة للحصول على المعلومات بصور شتى ، وأن كثيراً من الدول تجعلها رأس تدبير أمرها في الحرب وغير الحرب خصوصاً في العصر الحديث ، ولذا تستعمل بعض الدول صورة الثعلب رمزاً لأجهزة مخابراتها التجسسية وتستعمل بعضها صورة الهدهد شعاراً لها كرمز للخبر الصادق الدقيق والملاحظة اليقظة باعتبار ما جاء به

---

(٨) تطلق أمريكا وروسيا كل عام عدداً من الأقمار الصناعية من بعض أغراضها استطلاع الأراضي وكشف المعسكرات ، وإن كانت تطلق عليها أسماء مهذبة مثل : الإنذار المبكر واستطلاع الفضاء ... وقد تغطي صورة لهذه الأقمار قارة بكاملها بكل دقة لكشف مواقع الصواريخ والأسرار والتحركات العسكرية الأمر الذي يدعو كثيراً من الدول لتغيير استراتيجيتها بين الحين والآخر . (انظر الحرس الوطني السنة ١٥ العدد ١٧ إبريل ١٩٨٤) .

(٩) جريدة الأهرام ٢٥ يوليو ١٩٧٥ .

(١٠) جريدة الدستور عدد رقم (٤١٦٧) بتاريخ ١٤ / ٣ / ١٩٧٩ م .

الهدهد من معلومات عن بلقيس ملكة اليمن إلى النبي سليمان بن داود عليه السلام .

وفي هذا العصر يعد التجسس أمراً واقعاً في حياة البشرية وهو أحد الضمانات الأساسية لبقاء الدولة واستقلالها . ونتيجة لتضارب المصالح وتعدد الأفكار واختلاف الأغراض ، فإن الدولة تكون متأهبة في كل لحظة لمواجهة احتمال أي عدوان قد يشن عليها .. ولذلك فإن مستقبل الدولة في هذا العصر بشكل خاص يتوقف على دقة المعلومات التي تحصل عليها ، وشمولها وسرعة وصولها ليتسنى وضع الخطة المناسبة بعد معرفة خطة العدو وحالته حيث إن مصيرها إما مغلوبة أو منتصرة(١١) .

ومن هنا عرف العرب خطورة المعلومات المبكرة : يقول المهلب بن أبي صفرة لبنيه : « عليكم بالمكيدة في الحرب فإنها أبلغ من النجدة »(١٢) .

وقد سئل بعض من جرب الحرب وخاض غمارها وتمرس بها عن أحزم المكائد فيها فقال : « إذكاء العيون ، وإفشاء الغلبة ، واستطلاع الأخبار وإظهار السرور »(١٣) ، وهذا الأمر عرفه المسلمون خلال معاركهم مع العدو فكانوا يهتمون بجمع المعلومات عن العدو خاصة عن قواته الحربية عددها وعُدَدِها في وقت الحرب .

كما استفاد العباسيون من نظام البريد(١٤) في نقل الأخبار إلى الخليفة من الأقاليم المختلفة ، فكان صاحب البريد يراقب العمال ويتجسس عليهم ويرسل من يتجسس على الأعداء ويقوم بالأعمال التي يقوم بها قلم المخابرات والأجهزة المختصة في العصر الحديث(١٥) .

---

(١١) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج أحمد هاني ص ٥٨ ـ الحرب النفسية صلاح نصر ١ / ١٩١ .

(١٢) العقد الفريد ١ ١٢٢ الطبعة الثالثة .

(١٣) العقد الفريد ١ / ١٢٢ الطبعة الثالثة .

(١٤) البريد معناه لغة : هو اثنا عشر ميلاً (مختار الصحاح ص ٤٧ والمصباح المنير ص ٤٣) وهو أن يجعل خيلاً مضمرات في عدة أماكن فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى المكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل في المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة . وإن الغاية التي كانوا قدروها بين بريد وبريد وذلك لحفظ الأموال وسرعة وصول الأخبار ومنجدات الأحوال (انظر كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية ص ٩٧) .

(١٥) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن ٢ / ٢٧٠ .

وعن أهمية معرفة الأخبار ونقلها يقول أبو جعفر المنصور : « ما كان أحوجني أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم » ، قيل له ياأمير المؤمنين : من هم ؟ قال : « هم أركان الملك لا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ولا يصلح إن نقصت واحدة وهي :

أما أحدهم : فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم ، والآخر : صاحب شرط ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ، ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني ، والرابع : ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة : آه ... آه ... قيل له :

من هو ياأمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة »[١٦] .

وبلغ من اهتمام عبد الملك بن مروان بصاحب البريد أن أوصى أن يدخل عليه ليلاً ونهاراً لأن عدم دخوله ساعة كما يقول يفسد أعمال الولاية سنة كاملة[١٧] .

وقد استعمل التجسس في كافة المعارك في كل عصر من العصور كوسيلة عسكرية ذات فعالية في إحراز النصر حتى إن صلاح الدين الأيوبي ، اعتمد على ما جاءت به عيونه من معلومات بنى على أساسها خطته في مهاجمته بيت المقدس ولقد وزع صلاح الدين قواته على المناطق بناء على هذه المعلومات التي جاء بها جواسيسه عن العدو[١٨] .

وتأخذ الجاسوسية أسلوب التستر والتغطية في جمع المعلومات خاصة في أوقات الحرب ، وقد يستخدم لهذا الغرض كلا الجنسين وقد يكون هؤلاء متنكرين في أزياء التجار والأطباء يرحلون من مكان إلى آخر .

وفي أهمية التجسس يقول أبو جعفر المنصور :

« لا يصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعية إلا بالطاعة ولا تعمر البلاد بمثل

---

(١٦) تاريخ الطبري ٩ / ٢٩٩ .

(١٧) تاريخ الإسلام / حسن إبراهيم حسن ١ / ٤٥٩ .

(١٨) تاريخ الإسلام السياسي / حسن إبراهيم حسن ٤ / ٣٦٢ فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية محمد فرج ص ٤٦ ، المدرسة العسكرية الإسلامية ص ٣٠١ .

العدل ، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال ، ولا تقدم في الحياطة بمثل نقل الأخبار[١٩] .

ويقول زياد بن أبيه لحاجبه : إني وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع : هذا المنادي إلى الله في الصلاة ، والفلاح لا تحجبه عني فلا سلطان عليه وطارق الليل لا تحجبه فشر ما جاء به في تلك الساعة ، ورسول الثغر فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة . فأدخله علي وإن كنت في لحافي »[٢٠] .

ولما رأى عمر بن الخطاب ما عليه معاوية من أبهة آخذه في ذلك فاعتذر معاوية قائلاً : « لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا » ، فقال عمر :

« إن كنت صادقاً فهو رأي لبيب ، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب لا آمرك ولا أنهاك »[٢١] .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بأخذ الحيطة والحذر والاستعداد للعدو قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُم فانفروا ثُباتٍ أو انفِروا جَميعاً** ﴾[٢٢] .

ولهذا يجب على المسلمين تعبئة كامل قواهم من سلاح أو علاج أو خدمات تخص المعركة ، أو الحصول على معلومات تسبق خوضها ، ثم يستنفر كل من تدعو الضرورة إلى خروجه .. بحيث توزع الوحدات العسكرية حسب اختصاصاتها وأعمالها بشكل متماسك بحيث لا تترك فرجة لنفاذ العدو أو تسربه إلى ما وراء الخطوط الأمامية .

وقد حرص الرسول ﷺ على تحقيق هذه المعاني برص الصفوف ، وتوزيع الواجبات

---

(١٩) تاريخ الطبري ٩ / ٢٩٩ .

(٢٠) العقد الفريد ١ / ٧١ .

(٢١) عبقرية عمر ص ٨٩ ـ ٩٠ .

(٢٢) سورة النساء آية (٧١) .

قال تعالى : ﴿ وإذْ غدوْتَ مِن أَهلِكَ تُبَوِّىء المُؤمنينَ مَقَاعدَ لِلْقِتَال ﴾[٢٣] . وقال تعالى ﴿ إنَّ الله يُحِبُّ الَّذينَ يقاتلونَ في سَبيلِه صَفاً كأنَّهم بُنيانٌ مَرصُوصٌ ﴾[٢٤] .

ويقاتل الأقرب فالأقرب من الأعداء لإخلاء طريق الجيش الإسلامي مما يعترضه من عقبات أو كائن وبهذا يتأكد من عدم دخول الجواسيس إلى أرض الإسلام .

يقول الله تعالى : ﴿ يَاأَيها الذين آمنوا قاتلوا الَّذينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أَنَّ الله مع المُتَّقِين ﴾[٢٥] ..

وعلى المسلمين أن يعرفوا كل شيء عن عدوهم ، وأن لا تقتصر معرفة العدو على العسكريين وحدهم بل تشمل المدنيين أيضاً لأن الحرب الحديثة أصبحت حرباً شاملة تقتضي حشد كل الطاقات المادية والمعنوية ولا يمكن إحراز النصر إلا إذا كان كل فرد في المجتمع على مستوى المسئولية المصيرية مع الأخذ بالحيطة والحذر وأن الحصول على المعلومات الوافية عن العدو ومعرفته تدعو إلى إعداد القوة على هدى وبصيرة لمباغتته والانتصار عليه[٢٦] .

ويذكر اللواء محمود شيت خطاب أن أولى مسئوليات الشعب هي : ضرورة معرفة العدو معرفة كاملة دقيقة «حتى يكون على بينة من أمره ، حتى يعد العدة لمجابهته ، وحتى يعرف كل فرد من أفراد الشعب واجبه في الدفاع عن شرف أمته، وحتى يقدر هذا الفرد مغبة التفريط على مصيره فرداً وعلى مصير أمته شعباً ووطناً وعلى مصير حضارته عقيدة ولغة وتراثاً »[٢٧] .

---

(٢٣) سورة آل عمران آية (١٢١) .

(٢٤) سورة الصف آية (٤) .

(٢٥) سورة التوبة آية (١٢٣) .

(٢٦) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية ص ١٥١ ـ ١٥٣ ، الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ١٧٦ ، الوجيز في العسكرية الإسرائيلية محمود شيت خطاب ص ٥ ، ١٣ ، المدرسة العسكرية الإسلامية ص ١٤٨ ، قادة الفتح الإسلامي محمود شيت خطاب ١ / ١٦٧ .

(٢٧) الوجيز في العسكرية الإسرائيلية ـ محمود شيت خطاب ص ١٨٩,١٩٠ .

وإن جمع المعلومات عن العدو بوساطة الجواسيس وبكل الطرق المتقدمة علمياً تفيد في معرفة العدو على حقيقته والتأكد مما يبيته للمسلمين من مكائد وخطط عسكرية أو غير عسكرية ، كما تفيد في تقوية الروح المعنوية لأفراد المجتمع ، فتصون المعنويات من الانهيار ، ومن هنا لا يجوز الإعراض عن معرفة العدو بكل الوسائل الممكنة وذلك لكي يتسنى تهيئة الجو الملائم والمناخ الصالح لحشد كل الطاقات المادية والمعنوية لمواجهته وإحراز النصر عليه ، وإن التهوين من شأن العدو يؤدي إلى كوارث ، لأن نتائج الاستهانة بالعدو هي القصور عن إعداد العدة لمجابهته وإن المعنويات هي السلاح الرابح في المعركة مع الأخذ بأسباب الانتصار جميعاً[٢٨] .

وقد أكد عمر بن الخطاب على ضرورة التريث في الحرب وأخذ القرارات بعد دراسة واعية ومعرفة بحالة العدو وعدم الاستهانة به ومن توجيهاته لأبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس والعراق قال له :

« اسمع من أصحاب النبي ﷺ وأشركهم في الأمر ولا تجيبن مسرعاً حتى تبين ، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث ، الذي يعرف الفرصة والكف ، وقال له في أخرى : إنه لم يمنعني أن أُؤَمِّر « سليطاً » إلا سرعته في الحرب ، وفي التسرع في الحرب إلا عن بيان : ضياع ، والله لولا ذلك لأمرته ، ولكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث »[٢٩] .

ويقول اللواء شيت خطاب : « من المعروف أن الأمة التي تريد أن تحرز النصر على عدوها لابد أن تعرف ذلك العدو ، معرفة دقيقة صحيحة ، وتعرف طبيعة الأرض التي ستدور عليها المعركة ، معرفة شاملة مفصلة . أما الذين يقاتلون عدواً لا يعرفون عنه معلومات وافية فإنهم لن ينتصروا عليه أبداً ، لأن الخطة العسكرية الناجحة لابد أن تبنى على أسس من المعلومات الواضحة السليمة عن العدو والقائد الذي يقاتل عدوه ، وهو

---

(٢٨) الوجيز في العسكرية الإسرائيلية / محمود شيت خطاب ص ١٩٠ , ١٣ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١٤٩ ، الحرب النفسية صلاح نصر ١ / ١٠٩ ـ ١١٢ الجاسوسية بين الوقاية والعلاج / أحمد هاني ص ٢٣ ـ ٢٤ المدرسة العسكرية الإسلامية ص ٣٢٢ ـ ٣٢٥ العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ ص ٣٠٨ ـ ٣١١ .

(٢٩) تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٣١ مؤسسة الأعلمي .

في جهل مطبق عن قوته عَدداً وعُدداً إنما يقاتل وهو أعمى البصر والبصيرة ، لذلك لا يكون نصيبه إلا الإخفاق والاندحار »[٣٠] .

وتظهر أهمية التجسس وجمع المعلومات عن العدو واستخدام الوسائل المتقدمة في وقت الحرب حيث تكون على أساس التخطيط للعمليات العسكرية ، حيث يستفيد المسئولون من العمليات المتعلقة بالدول الأخرى والتي تمثل حصيلة الحقائق والتقديرات الجيدة التي تكفل وضع أفضل الخطط لهذه العمليات في مواجهة العدو . كما يكفل وضع سياسة الأمن والنظام في وقت السلم ومواجهة مؤامرات الدول المعادية وإحباط جهود جواسيسهم والقبض عليهم ومنعهم من الحصول على المعلومات أو تنفيذ المخططات المعادية المادية أو المعنوية[٣١] .

وكثيراً ما تعمد الدول في الوقت الحاضر إلى استخدام الجواسيس والوسائل الممكنة الأخرى حيث إن القائد في الميدان يحتاج إلى هذه المعلومات كما يحتاج إليها أيضاً في وقت التخطيط ودراسة سياسة القيادة في اختيار العمليات العسكرية المناسبة[٣٢] ومن أمثال العرب : رب حيلة أنفع من قبيلة[٣٣] .

ويقول ابن خلدون : « إن أسباب الغلب في الأكثر مجتمعة من أمور ظاهرة ، وهي الجيوش ، ووفورها ، وكمال الأسلحة ، واستجادتها ، وكثرة الشجعان وترتيب المصاف ومنه : صدق القتال وما جرى مجرى ذلك من أمور خفية وهي : إما من خدع البشر ، وحيلهم في الإرجاف والتشانيع التي يقع بها التخذيل ، وفي التقدم إلى الأماكن المرتفعة لتكون الحرب من أعلى ، فيتوهم المنخفض لذلك ، وفي الكمون وفي الفياض ومطمئن الأرض والتواري بالكدي عن العدو ، حتى يتداولهم العسكر دفعة ، وقد تورطوا

---

(٣٠) الوجيز في العسكرية الإسرائيلية : محمود شيت خطاب ص ١١ .

(٣١) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٢٨ ـ ٢٩ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ١٥٧ ـ ١٥٨ مجلة الأزهر عدد شعبان ١٤٠٠ هـ ص ١٠١٠ . الملحق العسكري الأميرالاي أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن ٦١ ـ ٦٢ مكتبة النهضة المصرية .

(٣٢) الحقوق الدولية العامة فؤاد شباط ص ٦٢٠ ، قانون الحرب عبد العزيز علي جميع ورفيقاه ص ١٧٤ القانون الدولي العام ص ٨٤٥ . الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٢٨ .

(٣٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٧ الطبعة الأولى ـ دار القلم .

فيتلمون إلى النجاة ، وأمثال ذلك ، وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية أموراً سماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها »[٣٤] .

وقد جاء في الخدمة السفرية[٣٥] فيما ينقله اللواء محمود شيت خطاب ما نصه : « يجب أن تبنى جميع الاستعدادات والخطط العسكرية على المعلومات الجيدة » .

فدائرة الأركان العامة في وزارة الدفاع مسئولة عن جمع المعلومات المتعلقة بقوات الدول الأجنبية كافة ، وتجديد تلك المعلومات دائماً لتكون على أحدث ما هي من استقاء المعلومات التي تبين عدد سكان الأقطار التي يحتمل أن تحارب فيها القوات وسجايا أولئك السكان وسلاحهم وأيضاً المعلومات المتعلقة بمصادر جميع دور الحرب التي يحتمل أن تقاتل فيها قواتنا ، ووسائل تنقلها ، وظاهراتها الطبيعية ، وللمعلومات الطبيعية المفصلة المتعلقة بدار الحرب شأن خطير لأن عليها يتوقف تأليف قوة الميدان وتنظيمها . مثال ذلك أن عدد السيارات المصفحة التي يقتضي استخدامها في الحرب يتوقف على ملاءمة دار الحرب لحركة هذه السيارات »[٣٦] .

فمن السياسات الخاصة بالإمام والمتعلقة بحماية الدولة يقول صاحب كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك : « ويجب أن يعرف أخبار مجاوريه ، وأن يشحن الثغور بالرجال ... ينبغي أن يعلم حال العدو في كل ساعة بالجواسيس ولا يغفل أمره »[٣٧] .

ومن حسن السياسة والحزم أن يستعمل الإمام المكائد في الحرب على الأعداء وأن يكتم سره ويصونه وأن يترك حسن الظن بكل واحد ، وأن يتجنب الاستعانة بضعاف النفوس الذين لا يكتمون الأسرار وأن يضع العيون على عدوه بالخارج والداخل وأن يعرف حاله ونواياه وبهذا يقول الماوردي في كتابه « الوزارة » : « ولم يقطع أسباب المراقبة ليحظى بأربعة أشياء : دعة المسالمة ، والأمن من خطر المناجزة وبقاء الأموال

---

(٣٤) تاريخ ابن خلدون ١ / ٢٣١ .

(٣٥) أوثق كتب التعبية المعتمدة ويطلق عليه العسكريون الغربيون تعبير إنجيل العسكرية (انظر هامش الوجيز في العسكرية الإسرائيلية للواء محمود شيت خطاب ص ١١) .

(٣٦) الوجيز في العسكرية الإسرائيلية / محمود شيت خطاب ص ١١ ـ ٢١ .

(٣٧) سلوك المالك في تدبير الممالك / ابن أبي الربيع ص ١٠٧ مطبعة المعارف المصرية ١٢٨٦ .

وراحة الأجناد ، وقد قالت القدماء : خذ بالإناءة ما استقامت لك واقبل العافية ما وهبت لك ، ولا تعجل إلى مناجزة العدو ما وجدت إلى الحيلة سبيلاً ولا تأمن من مطاولة عدوك ، فإن لك من الإبطاء انتظاراً لفرصة وظفراً بعورة »[٣٨] .

ويقول صاحب سلوك المالك : « ويجب أن يجعل على كل عدة معلومة من عسكره رئيساً من شجعانهم ومجربيهم ، وينبغي أن يتخذ كميناً لا يهمل خبره ، ويحذر من ذلك كمين الأعداء ويجب أن لا يستصغر عدوه ، ويقابله بما يقابل الأمر العظيم ... إذ لا معول على ريب الزمان وليجعل المحاربة آخر حيلة . فإن النفقة فيها من النفوس ، وفي غيرها من الأموال فإن أفادت الحيلة ربح ماله وحقن دماء جيشه ، وإن أعيت حاربه بعد ذلك »[٣٩] .

ولقد أدرك كبار القادة أن نجاحهم في الحرب مرهون بقيمة ما يصل إليهم من المعلومات عن أعدائهم ، ومن أجل ذلك كان اهتمام الدول بأخبار الدول المجاورة ومشروعاتها الحربية ، فإن العمليات الحربية تدار وفق المعلومات التي تصل إلى الدولة من جواسيسها وعمالها المخبرين في كل مكان إضافة إلى المعلومات المكتسبة بطريق علني مكشوف[٤٠] .

قال السيوطي في ذكر التتار وأخبارهم : « تصل إليهم أخبار الأمم ولا تصل أخبارهم إلى الأمم وقلما يقدر جاسوس أن يتمكن منهم لأن الغريب لا يتشبه بهم ، وإذا أرادوا جهة كتموا أمرهم ونهضوا دفعة واحدة فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه ، ولا عسكر حتى يخالطوه ولهذا تفسد على الناس وجوه الحيل وتضيق طرق الهرب »[٤١] .

وقال نابليون في حسرة : « لم يوفقني الله مثل ما وفق جنكيزخان ! » ولعل ذلك التوفيق كان قوامه نظام مخابرات دقيق وأسلوب قيادة جريء ملهم واستغلال تام لفنون الدعاية إلى الحد الذي جعل جواسيس الأعداء أنفسهم ينقلون ما يهيئه لهم المغول من

---

(٣٨) الوزارة / الماوردي صفحة ٧٤ ـ ٧٥ الطبعة الأولى دار الجامعات المصرية ـ الإسكندرية .

(٣٩) سلوك المالك في تدبير الممالك / ابن أبي الربيع ص ١٠٧ .

(٤٠) الملحق العسكري / أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن ص ١٧ ط ١٩٤٩ .

(٤١) تاريخ الخلفاء / السيوطي ص ٤٦٧ الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ .

أراجيف تقوض الروح المعنوية لدى المدنيين[٤٢] .

وفي مختصر سياسة الحروب : قالوا : أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقية وأكملهم عقلاً وأطولهم تجربة ، وأبعدهم صوتاً وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة وأحسنهم تعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة وتسييرهم أوان المسير وإنزالهم أوان النزول ، وإدخال الأمن عليهم والخوف على عدوهم[٤٣] .

وإن معظم القادة في حروبهم يأخذون بالحيطة والحذر ويهتمون بجمع المعلومات عن العدو ما أمكنهم إلى ذلك سبيلاً مع الحرص الشديد من تسرب أية معلومات إلى الطرف الآخر الأمر الذي يحقق الانتصار ومباغتة العدو ، ولا تقف معرفة العدو بعد انتهاء الحرب ، يقول أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن :

« ولقد أوضح لنا مؤرخون عديدون كيف كان القدماء يدركون قيمة فن الاستعلام بحيث يمكنهم من معرفة ما يجري في بلاد العدو عقب إعلان الحرب »[٤٤] .

ويقول :

« فإذا وضعت الحرب أوزارها ، وكان السلم ، استمر نشاط هؤلاء العيون المنبثون للدولة في بلاد جيرانها أو أصدقائها المتربصين أو المحتملين لكي يقوموا بموالاة التحري والتقصي والاستعلام والاستخبار في الشئون جميعها سياسية واقتصادية وحربية وسيكولوجية وطبوغرافية ، ويوافون بها دولتهم أولاً بأول لكي تكون على تمام الأهبة ، أو على الأقل لا تؤخذ على غرة »[٤٥] .

ويقول الأسدي في كتاب التيسير والاعتبار : « ومن أجل تحرير السياسة الكلية في الأمور السلطانية ، اعتمد الملوك على ما وضعوه من الإدراك المترصدة ، والعيون الدائرة والمركزة والحمامات المطيرة بالبطائق المسرعة . والخيول المسرجة للبريد في سائر المسافات

---

(٤٢) الملحق العسكري / أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن ص ٢٨ .

(٤٣) مختصر سياسة الحروب الهرثمي ص ١٧ .

(٤٤) الملحق العسكري ص ٢٤ .

(٤٥) الملحق العسكري الأميرالاي أركان حرب أحمد شوقي عبد الرحمن ص ١٨ .

البعيدة للبلدان والأقاليم الشاسعة ، والرسل الظاهرة للأمور المتواترة ، والرسل الخفية للحوائج المقتضية ، ونقل الأخبار الصحيحة بالعبارات الفصيحة والأقلاع الحصينة في البلدان المخوفة والآمنة.»[٤٦] .

وكما تظهر أهمية التجسس في معرفة أهل الحرب تظهر أيضاً في معرفة أهل البدع والضلالة على حقيقتهم وذلك لحماية الرعية من خطر هؤلاء ومن أضرار المتلصصين وأهل الريب والفساد وبذلك يحفظ الأمن والاستقرار في البلاد .

فمن صفات صاحب الشرطة كما يقول ابن أبي الربيع : « أن يكون غليظاً على أهل الريب في تصاريف الحيل شديد اليقظة »[٤٧] .

ويقول الجويني : « فإن النظر في أمور الرعايا يترتب على الاطلاع على الغوامض والخفايا ، وإذا انتشرت من خطة المملكة الأطراف وأسبلت العماية دون معرفتها إسدال الأعراف ولم تطلع شمس رأي راعي الرعية على صفة الإشراق والإشراف امتدت أيدي الظلمة إلى الضعفة بالإهلاك والإتلاف والثلة[٤٨] ، إذا نام عنها راعيها عاشت طلس الذئاب فيها ، وعسر تداركها وتلافيها ، والتيقظ والخبرة أس الإيالة وقاعدة الإمرة ، وإذا عمى المعتدون أخبارهم أنشبوا في المستضعفين أظفارهم واستجرؤوا على الاعتداء ثم طمسوا عن مالك الأمر آثارهم ويخون حينئذ المؤتمن ويغش الناصح وتشيع المخازي والفضائح »[٤٩] .

وإن ملاحقة أهل التلصص والريب ووضع العيون عليهم يفيد في انتظام الأحكام ، ويأمن نتيجته على نفسه وماله وعرضه ودينه ، وبخلاف ذلك تظهر دواعي الفساد ، ويقول الجويني حول هذا : « ولا تصفوا نعمة عن الأقذاء ، ما لم يأمن أهل الإقامة والأسفار من الأخطار والإغراء ، فإذا اضطربت الطرق وانقطعت الرفاق وانحصر الناس في البلاد ، وظهرت دواعي الفساد ، ترتب عليهم : غلاء الأسعار وخراب الديار

---

(٤٦) التيسير والاعتبار والتحرير الاختبار الأسدي ص ١٥٤ .

(٤٧) سلوك المالك في تدبير المالك ص ١٣١ .

(٤٨) الجماعة من الناس انظر مختار الصحاح ص ٨٦ .

(٤٩) غياث الأمم / الجويني ص ٢٧٣ .

وهواجس الخطوب الكبار ، فالأمن والعافية قاعدتا النعم كلها »[٥٠] .

ويقول : « ثم ما أهون البحث والتنقير[٥١] على من إليه مقاليد التدبير ، على أن هذا الخطب الخطير قريب المدرك يسير ، فلو اصطنع صدر الدين والدنيا من كل بلدة زمراً من التقاة على ما يرى ورسم لهم أن ينهوا إليه تفاصيل ما جرى ، فلا يغادروا نفعاً ولا ضراً إلا بلغوه اختفاء وسراً لتواقب[٥٢] دقائق الأخبار وحقائق الأسرار على مخيم العز غضة طرية ، وتراءت للحضرة العلية ، مجاري الأحوال في الأعمال القصية فإذا استشعر أهل الخبل والفساد أنهم من أصحاب الأمر بالمرصاد آثروا الميل طوعاً أو كرهاً إلى مسالك الرشاد وانتظمت أمور البلاد والعباد »[٥٣] .

وسنتعرض لهذا في هذه الرسالة بشيء من التفصيل إن شاء الله .



---

(٥٠) غياث الأمم : الجويني ص ١٥٧ .

(٥١) نقر : الطائر الحبة التقطها ونقر الشيء ثقبه بالمنقار (مختار الصحاح ص ٦٧٥) . ومعناه الاطلاع على أعمال الرعية .

(٥٢) وقب : أقبل وجاء من باب وعد ، ومنه وقب الظلام أي دخل على الناس (انظر مختار الصحاح للرازي ص ٧٣١) .

(٥٣) غياث الأمم / الجويني ص ١٤٣ .

المبحث الثالث

لمحة تاريخية في التجسس

منذ أن وجد الإنسان وجدت معه الحرب كوسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ، أمام هجمات الأعداء والطامعين ، ومنها استخدام الأسلحة المتوافرة ووسائل القتال المعروفة عند كل أمة من الأمم ، وما وصلت إليه في وسائلها وأساليبها ونظمها وتطورها ، وكيفية ممارستها للمتوافر من معداتها الحربية طوال التاريخ الحربي الذي مر به الإنسان عند مختلف الأمم والشعوب ، سواء أكانت الحرب الدائرة داخلية بين الجماعات المتصارعة أم مع الممالك والإمبراطوريات المجاورة .

ومن أمثلة ذلك ما كان عند المصريين القدماء من تاريخ مجيد ، سجل معارك عظيمة ، وقادة ، لهم مكانة ومعرفة في الحروب ، ومازالت حضارتهم باقية إلى اليوم .

ومن صور هذه الحروب ما يحكى عن « توحتموس الثالث » عندما همَّ بفتح مدينة يافا في فلسطين واستعصى عليه فتحها لجأ إلى الخديعة ، والحيلة والمفاجأة ، حيث أخذ حاكمها بحيلة استطاع أن يدخلها في روعه حيث أشعره أنه ساخط على فرعون ، وأنه ينوي الغدر به والانضمام إلى عدوه ، وإنه عليم بسر قوة فرعون ، ويستطيع أن يري هذا السر إلى قائد يافا لعله يتحد معه ضد فرعون فلما التقى به ليطلب رؤية هذا السر تمكن منه وصرعه وحمل مجموعة من فرسانه رسائل توهم أنها من حاكم يافا إلى زوجته وأكثر من حراسها فدخلوا المدينة وبهذا استطاع السيطرة عليها[1] .

كما غزا رمسيس الثاني الحثيين ، وأثناء ذلك تم القبض على جاسوسين للعدو في معسكر جيشه حيث تم ضربهما ضرباً مبرحاً ليعترفا بالحقيقة[2] ويقول « لاديسلاس فاراجو » فيما ينقله أحمد هاني : « والمصريون القدماء كان لهم إدارات مخابرات منظمة من قبل عصر السيد المسيح بعدة قرون »[3] .

---

(١) الحرب النفسية / صلاح نصر ١ / ٥٦ .

(٢) الحرب النفسية / صلاح نصر ١ / ٥٦ .

(٣) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج : أحمد هاني ص ٣٣ .

وها هو ذا الإسكندر المقدوني كقائد من قادة الحرب العظام عرف أهمية الطلائع وفرق الاستكشافات وأكثر ما استعمل الفرسان للكشف البعيد ، وهو أول من استعمل الحصن من الجبل للكمائن ، وأول من اتخذ الجواسيس والعيون على العدو[٤] .

كما عرفها الصينيون وبذا يقول سان سو « الصيني الأخلاقي » : « إن ما يمكن المليك الحكيم والقائد الصالح من إنزال الضربة والانتصار ، وبلوغ ما يتجاوز حدود الرجل العادي هو المعلومات السابقة »[٥] .

وفي العهد القديم فيما ينقله عبد الوهاب النجار في قصص الأنبياء أن موسى عليه السلام بعث بعناصره لتجوس الأرض المقدسة قبل أن يطلب من بني إسرائيل دخول تلك الأرض فقد أرسل من قبله رواداً يتجسسون ويجمعون المعلومات وكانوا اثني عشر رجلاً ، فلما عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا فلما أمرهم موسى عليه السلام بالعبور ضعفت قلوبهم فأبوا الدخول[٦] .

وينقل أحمد هاني قصة من العهد القديم مفادها أن الرب أمر « يوشع بن نون » ليقود بني إسرائيل عبر الأردن إلى كنعان « وانتفع » يوشع من تجاربه مع موسى عليه السلام وأرسل رجلين ليتجسسا على أريحا « لمعرفة مدى قوة العدو وغير ذلك مما يجدر بالقائد أن يعرفه قبل مهاجمة الأعداء وعاونت في ذلك سيدة ساقطة تدعى « رباب » فاستطاع الرجلان أداء مهمتهما وتم خروجهما من المدينة دون أن يستطيع رجال ملك أريحا اكتشافهما[٧] ، وهذا يشير إلى ما عليه اليهود قديماً وحديثاً من الخبث واستعمال المومسات في التجسس والوصول إلى الغرض الذي يبغونه بأي وسيلة .

وقصة سليمان بن داوود عليه السلام مع الهدهد وملكة سبأ تتضمن الإشارة إلى استفادة سليمان عليه السلام من خبر الهدهد ، فعرف عليه السلام سمات ومعالم شخصية

---

(٤) صبح الأعشى ١ / ٤٢٩ . المدرسة العسكرية الإسلامية محمد فرج ص ١٩ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٢ لسنة ١٩٦٥ .

(٥) الجاسوسية الأميركية أندروتولي ص ١١ .

(٦) قصص الأنبياء ص ٢٢٧ .

(٧) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج أحمد هاني ص ٣٥ .

الملكة وحاشيتها ، وتنظيمها وهي القصة الواردة في القرآن الكريم يقول الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مالِي لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كان منَ الْغَائِبين * لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَو لأَذْبَحَنَّهُ أَو لَيَأتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَأٍ بنبأٍ يَقِين .. ﴾[٨] .

والملاحظ أن سليمان عليه السلام كان يتفقد الطير وهذا دليل اليقظة والفطنة والحذر والحزم ، فلم يغفل عن غيبة جندي واحد من جنوده ، ولابد له من سؤال الجندي المتخلف عن سبب تغيبه ، ولما سأله ، بدأ الهدهد في عرض مفاجأة لا يعلمها سليمان عليه السلام وهي : أنه وجد مملكة تحكمها امرأة ، وملكها عظيم وذات ثراء كبير ، إلا أنها وقومها يعبدون الشمس من دون الله[٩] .

ويعرض الطبري سبب تفقد سليمان عليه السلام للطير وسؤاله عن الهدهد خاصة دون غيره من الطيور أن سليمان عليه السلام أراد أن يعرف بُعد الماء فسأل من يعرف بعد الماء ؟ فقالوا : الهدهد ، فتذكره أو تفقده لنوبته ، ويقول : « والصواب من القول : أن الله أخبر سليمان عليه السلام أن يتفقد الطير إما للنوبة التي كان عليها وأخل بها وإما الحاجة من بعد الماء »[١٠] .

والملاحظ أن الهدهد كجندي : على ثغرة من ثغر الإسلام في شريعة ما قبل الإسلام رأى أن من واجبه أن يأتي بما حصل عليه من معلومات لا يعلمها سليمان عليه السلام ، وأما تصرفه دون إذن من النبي سليمان إما لضيق وقته أو لأهمية وخطورة الأمر الذي سيتخلف فيه عن الحضور في جيش سليمان من الطير ، كما تظهر فطنة سليمان عليه السلام واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من ملكه ، وحذره الشديد ورغبته في أن تكون المعلومات التي يأتي بها الجند صادقة ودقيقة .

ومن هنا تتخذ بعض الدول الهدهد شعاراً لمخابراتها إشارة إلى الدقة والصدق في الخبر ،

---

(٨) سورة النمل آية (٢٠ ـ ٢٢) .

(٩) في ظلال القرآن الكريم ٦ / ١٤٤ .

(١٠) تفسير الطبري ص ١٩ / ٩٠ الطبعة الأولى ـ ١٣٢٨ هـ .

والسرعة والإخلاص والتضحية في نقل الأخبار بكل أمانة ؛ إضافة إلى الفطنة والحذر وإن كل مواطن حارس أمين قد ينقل الخبر إلى المسئولين دون أن يكلف بذلك ويكون من باب الجهاد في سبيل الله تعالى[١١] .

ولا تقتصر فائدة المعلومات السابقة على بني الإنسان ، فقد يستفيد منها الحيوان أيضاً ، كعالم النمل مثلاً : فقد استفاد النمل من المعلومات السابقة فاستعمل وسائل الإنذار المبكر للنمل السارح في الوادي من أن يتأثر بسليمان عليه السلام وجنوده ، وبهذا يقول الله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ** ﴾[١٢] .

ويقول صاحب تفسير الظلال حول ذلك : « فقد قالت هذه النملة بالوسيلة التي يفهمها النمل ، وباللغة المتعارف عليها بينها وحسب ما وصلت إليه من معلومات بحكم مركزها ومسئوليتها في قومها قالت : ادخلوا مساكنكم حفاظاً على حياتكم ، فإن سليمان عليه السلام قادم وجنوده معه فربما يدوسون بأرجلهم فوقكم فتحطمون دون قصد ، فقد بينت السبب في توجيه هذا الإنذار السريع ، وهذا الطلب بدخول المساكن »[١٣] .

فتلك النملة التي لها رئاسة الملك على النمل لم تكن لها تلك الرئاسة إلا لعلمها ، يقول الأسدي : « فتلك النملة لما علمت هذه المسألة الواحدة استحقت الرئاسة التامة على النمل فمن علم حقائق الأشياء من الموجودات والحكم والمعارف ، فكيف لا يستوجب الرئاسة في الدنيا ، وفي الآخرة حسن الجزاء والرحمة من المولى »[١٤] .

وقبيل البعثة النبوية الشريفة كانت هناك دولتان كبيرتان في العالم ولكل منهما أسلوبها الخاص في الحرب ، وهما دولة الفرس ودولة الروم .. وكانت الحرب بينهما مستحكمة في كثير من الأحيان واستعمل سلاح التجسس في كل منها كوسيلة عسكرية .

---

(١١) من المعروف أن شعار دائرة المخابرات العامة في المملكة الأردنية الهاشمية هو الهدهد ـ إضافة إلى الآية الكريمة ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ .

(١٢) سورة النمل آية رقم (١٨) .

(١٣) في ظلال القرآن الكريم ٤ / ١٤١ .

(١٤) التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار / الأسدي ص ١٦٤ .

وكانت دولـة الفرس تبـدو مملكـة عزيزة الجانب وهي في حروب دائمة مع الـدولـة البيزنطية ، وكانت الأيام تدول بين الدولتين حتى انتهى الأمر إلى تقلص سلطـة الـدولـة الفارسية نتيجة للصراعات الداخلية والدسائس ، وكان آخر ملوكها « يزدجرد الثالث ابن شهريار بن كسرى » ثم « أبرويز » آخر ملوك ساسان وهو الذي تمت في عهده الفتوحات الإسلامية .

وكانت دولة الروم قوية أيضاً ومهابة الجانب وكانت تستعمل الجواسيس ضد العرب قبل ظهور الإسلام حتى إن مكة المكرمة قبل الإسلام كانت لا تخلو من الجواسيس الذين يعملون لحساب الرومان ، وكان فيها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومـان للشئون التجـاريـة في الظـاهر وللتجسس على أحـوال العرب سراً . ولما ظهر الإسـلام استخـدم التجسس ضد المسلمين[١٥] .

يقول الواقـدي : « وكان يوقـا زعيم قلعـة حلب يستخـدم الجـواسيس ضـد المسلمين ، وكانت أعظم جواسيسه التي تأتيه بـالأخبـار ليل نهـار من متنصرة العرب التي تـدلهم على أماكن وقوة المسلمين ، كما يستعينون بالرعاة كذلك »[١٦] .

كما عرف العرب قبل الإسـلام التجسس وأهميتـه ، واستعملـوه في حروبهم بعضهم مـع بعض ، كما استعملوه مع أعدائهم خارج الجزيرة العربية ، وكانوا يعتمـدون على المعلومـات الدالة على أماكن العدو وعدده ، وقوته وتحركاته وغالباً ما تكون أخبـار تحركات القبـائل العربيـة من مكان إلى مكان آخر تثير تحركات قبـائـل عربيـة أخرى ، واستعـدادهـا واستنفارها .

وقـد عرف العرب الغزو كمـورد للرزق وطلبـاً للمراعي والمـاء ، ويقـع الغـزو عنـدهم نتيجة للطمع ، فقـد طمعت القبـائل بـأهل الحضر ، لما عنـدهم من وسـائل عيش ميسرة ومراع خصبة ، ومن هنـا كانت القبـائل تغير على المـدن ، وكان لازماً على الحضر تعزيز أنفسهم في الحصون ، ومراكـز المراقبـة وبنـاء الأبراج العـاليـة لمراقبـة الغـزاة كما يتم تـوفير

---

(١٥) فجر الإسلام / أحمد أمين ص ١٣ الطبعة التاسعة .

(١٦) فتوح الشام ، ١ / ٢٥٧ .

الأسلحة بمختلف أنواعها وتتخذ الحراسات ويستعمل الجواسيس لمساعدتهم في الدفاع عن أنفسهم وأرزاقهم بحيث يحصلون على هذه المعلومات أولاً لاتخاذ الحيطة والحذر[١٧] .

كما عمد العرب في الجاهلية إلى استخدام العيون للتجسس على الأعداء بصورة تجار أو مسافرين أو على هيئة سرايا صغيرة ، وتتقصى آثار العدو وتسأل من تلتقي به من الركبان عنه ، وقد تقبض هذه السرايا على بعض المسافرين من القبائل وتحقق معهم وتعرف خطة الأعداء ، وعلى ضوء هذه المعلومات يرتب القادة الأسلوب الذي سيتخذ في مباغتة العدو لإنزال الضربة القاضية به[١٨] .

وإذا أحس العربي بغارة العدو أو رأى قوماً يتقدمون لمفاجأة قومه سارع إلى إنذارهم وإبلاغهم بذلك حيث يتجرد من ثيابه ويشير بها دلالة على الخطر وقرب العدو وهو ما يعرف عندهم « بالنذير العريان »[١٩] .

كما عرف العرب الخدعة في الحرب وأداروا معاركهم على أساس : الحرب خدعة . بحيث يشيعون أنهم يريدون جهة معينة أو قبيلة بعينها أو أنهم سيسلكون طريقاً معيناً ثم يرسلون قوة صغيرة بقصد التعمية ثم تسير قواتهم بعد ذلك في الطريق المحدد لها وذلك من أجل أن يأخذوا أعداءهم على حين غرة دون علم ، ومن أجل أن يقع العدو بخطأ المعلومات التي حصل عليها بواسطة جواسيسه وغالباً ما تكون الإغارة مفاجأة في وقت راحة العدو أو في الصباح ... وقد يسيرون ليلاً حتى لا يراهم أحد[٢٠] .

وكان العرب يعرفون الشعار المتفق عليه بإعلان الحرب وضرورة الاستعداد لها وذلك بإشعال النار التي تجمع القبائل المتناصرة فإذا رآها العربي عرف أن هذه النار نار حرب ويتولى قيادة الجيش عندهم ذوو الخبرة والمراس[٢١] .

---

(١٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ / ٣٣٤ .

(١٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٥ / ٤٠٨ .

(١٩) المفصل في تاريخ العرب جواد علي ٥ / ٤٠٩ .

(٢٠) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام / جواد علي ٥ / ٤٠٣ ـ ٤٠٨ .

(٢١) المفصل في تاريخ العرب ٥ / ٤٠٥ ـ ٤٠٩ .

وللعرب آداب وقـواعـد في الحرب يعـارفـوا على أنهـا سبب من الاسبـاب النصر ، ويطلبون من المحاربين ضرورة التقيد بها . قيل لأكثم بن صيفي :

صف لنا العمل في الحرب : « قال : أقلوا الخلاف على أمرائكم فلا جماعة لمن اختلف عليه ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل فتثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين ، ورب عجلة تعقب ريثاً ، وادرعوا الليل ، فإنه أخفى للويل وتحفظوا من البيات »[٢٢] .

☆ ☆ ☆

---

(٢٢) عيون الأخبار ١ / ١٠٨ .

المبحث الرابع

في التجسس في عهد الرسول ﷺ

عندما أعلن الرسول ﷺ الدعوة وجهر بها بدأت القبائل العربية تقاوم الدين الجديد ، وتعارضه ، وتضع الخطط للقضاء عليه ، قبل أن يستفحل أمره ، ويقوى ويدخل فيه الناس .

ومع اهتمام الرسول ﷺ بأن ينشر الدين الحنيف بطريقة سلمية إلا أنه كان لابد من أن تقع المواجهة العسكرية بين المسلمين والمشركين وعلى رأسهم قريش زعيمة العرب .

وأذن الله للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم ودينهم فكانت الغزوات المعروفة في التاريخ والتي انتصر فيها المسلمون في الجزيرة العربية وخارجها وقد استعملت في هذه الغزوات كافة الوسائل العسكرية المعروفة في ذلك الوقت بما في ذلك التجسس باعتبار ماله من أهمية للحصول على المعلومات السابقة وهي سلاح قوي في القتال خاصة فيما يتعلق بالتخطيط والإعداد وكانت غزوات الرسول ﷺ تسع عشرة غزوة[١] .

عن عبد الله بن زيد عن أبيه قال : غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ، قاتل في ثمان منهن[٢] .

وفي الطبقات الكبرى إن عدد مغازي رسول الله ﷺ سبع وعشرون غزوة . وكانت سراياه التي بعث بها سبعاً وأربعين سرية . وكان ما قاتل به من المغازي تسع غزوات :

بدر وأحد ، والمريسيع ، والخندق ، وقريظة ، وخيبر ، وفتح مكة ، وحنين والطائف[٣] .

---

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٣٠٣ (وقيل غزا رسول الله ﷺ ستاً وعشرين غزوة ، وقيل سبعاً وعشرين ، فمن قال ستاً وعشرين جعل غزوة خيبر ووادي القرى واحدة ، لأنه لم يرجع من خيبر إلى منزله ومن فرق بينهما جعل غزواته ﷺ سبعاً وعشرين فجعل غزوة خيبر غزوة ، ووادي القرى غزوة (انظر الكامل في التاريخ مجلد ٢ / ٣٠٣ طبعة بيروت ١٩٦٥) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي تحقيق عبد الباقي رقم (١٨١٤) في كتاب الجهاد والسير جزء ٣ / ١٤٤٨ .

(٣) الطبقات الكبرى ٢ / ١ ـ ٢ .

كما استعمل رسول الله ﷺ في غزواته الجواسيس كوسيلة عسكرية وبعث الصحابة ، وبهذا يذكر صاحب لامع الدراري أن الصحابة قد ذهبوا للتجسس وفي الطلائع في مواضع كثيرة ويقول : « قال الحافظ في الفتح : وقد وقع في كتب المغازي بعث كل من : حذيفة ونعيم بن مسعود ، وعبد الله بن أنيس ، وخوات بن جبير ، وعمرو بن أمية ، وسالم بن عمير ، وبسيس في عدة مواطن بعضها في الصحيح »[٤] .

فقد كان الرسول ﷺ قدوة لكل قائد ولكل مسلم في كل مجال من مجالات الحياة ، وقد عرف قواعد النصر ، والظفر والإعداد للعدو .

وكان ﷺ لا يدخل معركة إلا بعد معرفة حالة العدو ومعسكراته ، ومواقعه العسكرية وطبيعة الأرض وهذا ما سنتناوله في هذا المبحث إن شاء الله .

المطلب الأول : في استعمال الرسول ﷺ للأدلاء والجواسيس في بعض غزواته :

عندما أرادت قريش بالرسول ﷺ سوءاً ، أمره الله بالهجرة إلى المدينة المنورة وأعلمه بنيتهم قال تعالى :

﴿ وإذْ يَمكرُ بِكَ الَّذينَ كَفَروا لِيُثْبِتُوكَ أو يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ الله والله خَيْرُ المَاكِرِين ﴾[٥] .

وقد استعمل رسول الله طريقة للخروج من هذا المأزق ، فعن ابن عباس قال : « تشاورت قريش ليلة بمكة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ، يريدون النبي ﷺ . وقال بعضهم : بل اقتلوه ، وقال بعضهم : بل أخرجوه ، فأطلع الله عز وجل نبيه ﷺ على ذلك فبات علي على فراش النبي ﷺ تلك الليلة ، وخرج النبي ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركون يحرصون علياً يحسبونه النبي ﷺ . فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوا علياً رد الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري ، فاقتصوا أثره

---

(٤) لامع الدراري على جامع البخاري ٧ / ٢٢٩ المكتبة الإمدادية مكة مطبعة لاهور ١٣٩٦ ـ ١٩٧٦ .

(٥) سورة الأنفال آية ٣٠ .

فلما بلغوا الجبل خلط عليهم فصعدوا في الجبل فمروا بالغار ، فرأوا على بابه نسيج العنكبوت ، فقالوا لو دخل حقاً هنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه ، فمكث فيه ثلاث ليال »[٦] .

واستعمل الرسول ﷺ وصاحبه دليلاً يدله على الطريق من غير المسلمين باعتباره خبيراً في الأرض أو مسالك الطرق المؤدية إليها فاستأجر عبد الله بن أرقد[٧] من بني الديل « الدئل » بن بكر وأمه من بني سهم بن عمرو ، وكان مشركاً ليدلهما على الطريق[٨] ووعداه أن يأتيهما إلى غار ثور بعد ثلاثة أيام من خروجهما حتى لا تعلم به قريش .

وكان عبد الله بن أبي بكر الصديق يأتيهما بخبر القوم بالليل ثم يصبح بين أظهرهم كأنه بات بمكة ، وأمر الرسول ﷺ عامر بن فهيرة « راعي أبي بكر ومولاه أن يرعى غنمه نهاراً ثم يأتيهما بها ليلاً .

وكانت أسماء بنت أبي بكر الصديق تأتيهما بالطعام مساء وفي الصباح تزيل الغنم آثار أسماء وعبد الله حتى لا تراه قريش[٩] .

وقد استعمل الرسول ﷺ الأدلاء في معظم غزواته يدلونه على مسالك الطرق المؤدية إلى أية جهة يريدها في غزواته ، وكان ﷺ يختارهم ممن يعرفون طبيعة الأرض وتضاريسها وكثيراً ما كان يختارهم من أهل البلاد التي لهم خبرة بها ، أو اعتادوا زيارتها في الجاهلية ، فقد استعمل في غزوة خيبر : حسيل بن خارجة وعبد الله بن نعيم من قبيلة أشجع النجدية ، التي يرتاد رجالها دائماً في الجاهلية منطقة خيبر ، ولذا استطاع الرسول ﷺ أن يصل إلى خيبر دون علم اليهود ، على الرغم من أن اليهود حصلوا على معلومات كافية عن طريق المنافقين ، وأعوان اليهود في المدينة ، عن تحركات الرسول

---

(٦) مسند أحمد بن حنبل ١ / ٣٤٨ / طبعة دار صادر .

(٧) ورد اسمه (عبد الله بن أريقط وليس أرقد) انظر الطبقات الكبرى ٣ / ١٢٣ ، تاريخ الأمم والملوك ٢ / ٢٩٦ ، السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٣) .

(٨) السيرة الحلبية ٢ / ٢٠٣ ، الطبقات الكبرى : ٣ / ٢٢٣ .

(٩) الطبقات الكبرى ٣ / ٢٢٣ ، الكامل في التاريخ ٢ / ١٠٤ .

ﷺ وقد استفاد من التكتم في الخبر ، وبث السرايا وطلائع الاستكشاف لترقب حركات العدو ، والقضاء على جواسيسه قبل أن يوصلوا الأخبار إليه(١٠) .

وعندما دنا أبو سفيان بالقافلة قادماً من الشام وأراد أن يعرف الرسول ﷺ أين وصلت القافلة ، بعث قبل أن يخرج من المدينة « طلحة بن عبيد الله ، وسعيد بن زيد ابن عمر و بن نفيل » إلى طريق الشام يتجسسان الأخبار عن العير ثم رجعا إلى المدينة فقدما يوم وقعة بدر فاستقبلا رسول الله ﷺ « بتربان » وهو منحدر من بدر يريد المدينة المنورة بعد انتهاء الغزوة ولم يحضرا القتال فأسهم لكلٍّ(١١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه بعث ﷺ عشرة عيناً في غزوة بدر يتجسسون له(١٢) .

ولم يكتف الرسول ﷺ بهذا بل بعث برجلين يتجسسان له الأخبار عن عير قريش ، فعن أنس رضي الله عنه قال : بعث رسول الله ﷺ بسيساً عيناً ينظر ما صنعت عير أبي سفيان فحدثته الحديث ، فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : إنا لنا طلبة(١٣) فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا ، فجعل رجال يستأذنونه في ظهرهم في علو المدينة ، فقال : لا إلاّ من كان ظهره حاضراً ، فانطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا ركب المشركين إلى بدر »(١٤) .

وقد أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالجهاز لتجهيز جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه فقال له : « ياأسامة : سر على اسم الله ، وبركته ، حتى تنتهي إلى مقتل أبيك ،

---

(١٠) غزوة خيبر محمد باشميل / ص ١١١ ، الإسلام والعلاقات الدولية في السلم والحرب ص ٦٨ .

(١١) تاريخ الطبري ٢ / ٢٩٦ ، إنسان العيون ٢ / ٣٨١ .

(١٢) البخاري شرح فتح الباري ٨ / ٣٨٢ البخاري بشرح عمدة القاري ٤ / ٢٩٠ مسند أحمد بن حنبل ٢ / ٣١٠ (باختلاف في اللفظ ـ عشرة رهط سرية عيناً) .

(١٣) طلبه : بكسر اللام : أي لنا حاجة وبغية وهو الشيء المطلوب .
(انظر المصباح المنير ص ٣٧ ، مختار الصحاح ص ٢٩٥) .

(١٤) مسند أحمد ٣ / ١٣٦ سنن أبي داوود ٢ / ٣٧ (بلفظ بسيسة) سنن البيهقي ٩ / ١٤٨ ، صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ٣ / ١٥١٠ رقم ١٩٠١ كتاب الإمارة بلفظ بسيسة .

فأوطئهم الخيل ، فقد وليتك هذا الجيش ، فأغر صباحاً على أهل أبنـا « أبني »[١٥] وحرِّق عليهم وأسرع السير تسبق الأخبـار ، فـإن أظفرك الله ، فـأقلـل اللبث فيهم وخـذ معـك الأدلاء وقدم إلعيون أمامك والطلائع »[١٦] .

وكان ﷺ في غزواته يتأكد من نوايا العدو ، فقد خرج عام الحديبية لا يريد حرباً إلا أنه احتاط فبعث من يستطلع الأخبار لمعرفة تحركات العـدو زيـادة في أخـذ الحيطـة والحذر وتنفيذاً لأمره تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُم ﴾[١٧] .

فعن الزهري عن عروة بن الزبير عن المسور بن مخرمـة ومروان بن الحكم يصـدق كل واحد منهما صاحبه قالا : خرج رسول الله ﷺ زمن الحـديبيـة في بضع عشرة مـائـة من أصحابه حتى إذا كان « بذي الحليفة » قلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره وأحرم بالعمرة ، وبعث بين يديه عينـاً لـه من خزاعـة يخبره عن قريش ، وسـار رسول الله ﷺ حتى إذا كان بوادي « الأشطاط »[١٨] قريباً من عسفان أتاه عينه الخزاعي فقال :

إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي قد جمعوا لك الأحابيش وجمعوا لـك جموعـاً وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت ، فقال النبي ﷺ :«أشيروا علي ، أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم فـإن قعـدوا ، قعـدوا موتورين ، محزونين وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله ، أو ترون أن نؤم البيت فمن صدنا قـاتلنـاه . فقـال أبو بكر رضي الله عنه : الله ورسوله أعلم يانبي الله إنما جئنـا معتمرين ، ولم نجيء نقـاتل أحـداً ، ولكن ما حال بيننا وبين البيت قاتلناه ، فقال النبي ﷺ : فروحوا إذاً »[١٩] .

وكان للرسول ﷺ عيون محلية في المدينـة المنورة وعيون في مكـة المكرمـة يطلعونـه على كل صغيرة وكبيرة قـد تضر بـالمصلحـة العـامـة للمسلمين في السلم والحرب ففي مكـة المكرمة كان العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ يأتيه بالأخبار ، فقد أرسل له العباس

---

(١٥) أبنى : على وزن حبلى موضع بالشام وقيل اسم قبيلة (شرح العناية على الهداية : ٥ / ٤٤٦) .

(١٦) ابن عساكر في تاريخ دمشق ١ / ١٢١ سيرة ابن هشام ٤ / ٦٠٦ ـ الطبعة الرابعة الطبقات الكبرى ٢ / ١٢٦ .

(١٧) سورة النساء آية ٧١ .

(١٨) في مسند أحمد : بغدير الأشطاط (مسند أحمد ٤ / ٣٢٨) .

(١٩) مسند أحمد ٤ / ٢٢٨ ، سنن البيهقي ٩ / ٢١٨ .

بوقت خروج قريش لقتاله في أحد كما أعلمه بعدد قواتها ، فأسرع حامل رسالة العباس وقطع المسافة في ثلاثة أيام ، وكان العباس يرغب في الهجرة ، إلا أن الرسول ﷺ كتب إليه : « إن مقامك في مكة خير »[٢٠] .

كما كانت له العيون من القبائل العربية الأخرى فقد كان عبد الله بن حدرد الأسلمي من قبيلة هوازن عيناً له في حنين فبعد فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة قررت القبائل العربية من هوازن وثقيف أن تغزو الرسول ﷺ قبل أن يبدأ المسلمون بغزوهم .

وعندما سمع الرسول ﷺ نبأ هوازن وثقيف هذا أرسل « عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي »[٢١] ليأتيه بالمعلومات اللازمة ، فدخل فيهم ، وعرف ما أجمعوا عليه وسمع من مالك بن عوف قائد هوازن ثم جاء إلى رسول الله يخبره الخبر،«فعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ أمر عبد الله بن أبي حدرد أن يقيم فيهم وقال له : اعلم لنا من علمهم ، فأتاهم فدخل فيهم ، وأقام فيهم يوماً أو يومين ، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا عليه من حربه ﷺ ، وسمع من مالك ، وأمر هوازن وما هم عليه ، وقد انتهى إلى خباء مالك فوجد عنده رؤساء هوازن فسمعه يقول لأصحابه : إن محمداً لم يقاتل قوماً قط ، قبل هذه المرة ، وإنما كان يلقى أقواماً أغراراً لا علم لهم بالحرب ، فيظهر عليهم ، فإذا كان السحر ، فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم . ثم صفوا ثم تكون الحملة منكم واكسروا جفون سيوفكم ، فتلقونه بعشرين ألف سيف مكسورة الجفون واحملوا حملة رجل واحد ، واعلموا أن الحملة لمن حمل أولاً . فأقبل حتى أتاه ﷺ فأخبره الخبر فقال لعمر ألا تسمع ما يقول ؟ فقال :

كذب . فقال ابن أبي حدرد : لئن كذبتني ياعمر ربما كذبت بالحق . فقال عمر : ألا تسمع ما يقول : فقال ﷺ : « قد كنت ضالاً فهداك الله »[٢٢] .

---

(٢٠) التراتيب الإدارية ١ / ٣٦٣ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١٥٤ .

(٢١) اسمه سلامة بن عمير بن أبي سلامة ـ وقال بعضهم اسم أبي حدرد « عبد الله » وهو صحابي جليل توفي سنة ٧١ هـ وعمره ٨١ سنة (انظر الطبقات الكبرى ٤ / ٤١ ، ٤٢ شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٣ / ٧ ـ الطبعة الأولى) .

(٢٢) سيرة ابن هشام ٤ / ٤٤٠ تاريخ ابن خلدون ٣ / ٨١٢ دار الكتاب اللبناني ٩٧٧ ، تاريخ الطبري ٣ / ١٢٧ ، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ٣ / ٧ .

وفي غزوة الخندق جاء نعيم بن مسعود إلى رسول الله ﷺ وعرض عليه أن يكلفه بأي عمل يقوم به ضد المشركين ، حيث إن قومه لا يعلمون بإسلامه ، وقال للرسول ﷺ مرني بما شئت فقال ﷺ :

« إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا »(٢٣) فذهب نعيم بن مسعود إلى بني قريظة في السنة الخامسة للهجرة وكان نديمهم في الجاهلية ـ وحذرهم : إن هزمت قريش فنجت بنفسها فإنها ستترككم تحت رحمة محمد ﷺ وصحبه ونصحهم أن لا يطمئنوا لقريش إلا أن يأخذوا الرهائن من السادة والأشراف ، ثم ذهب إلى قريش وأوهمهم أن بني قريظة نادمة على نقض العهد مع محمد مؤكداً ذلك لأبي سفيان ، وأنه يعرف وده لقريش ولأبي سفيان وفراقه محمداً وطلب إليهم أن لا يفشوا ذلك عنه وقال : تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : أنا قد ندمنا فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم ذهب إلى غطفان وأوهم بما أوهم به قريشاً ، فاستعجلت قريش وعد قريظة لها نصرتها فكان جوابهم ما يؤكد كلام نعيم بن مسعود من أنهم بيتوا الغدر ، ونجح نعيم ابن مسعود في الإيقاع بهم جميعاً »(٢٤) .

المطلب الثاني : الحرص من تسرب الأخبار إلى العدو :

من أهم ركائز مقاومة جواسيس الأعداء اتخاذ الإجراءات السليمة في الحرص من أن تتسرب الأخبار إليه . وأن من أهم وسائل مقاومة جواسيس الأعداء الكشف عمن يقومون بأعمال التجسس وتعقبهم ، ومتابعة نشاطهم وذلك بالوسائل السرية في حماية الأسرار ، لإحباط محاولات العدو من الحصول على معلومات عن المسلمين عن طريق جواسيسه وأعوانه في الداخل .

وقد حرص ﷺ ألا تتسرب الأخبار إلى العدو وعمل على مقاومة جواسيس قريش في مكة والمدينة .

---

(٢٣) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٤١ الطبقات الكبرى ٤ / ٢٠ وعيون الأثر ٢ / ٦٤ .

(٢٤) سيرة ابن هشام ٣ / ٢٤١ ، الطبقات الكبرى ٤ / ٢٠ .

فقد بث الرسول ﷺ عيونه ودورياته لتجوس الدروب حول المدينة لتحول دون تسرب المعلومات إلى قريش كما بث عيونه في الداخل ليقضي على كل خبر يمكن أن يصل أو يتسرب إلى قريش عن طريق عيونها داخل صفوف المسلمين وذلك في فتح مكة في السنة الثامنة للهجرة ، وذلك ليتمكن ﷺ من السيطرة على الموقف وليستفيد من عنصر المبادرة أيضاً[٢٥] .

وقد عرف ﷺ أهمية علم العدو بالمعلومات عن حركة المسلمين وقد دعا ربه قائلاً : « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها »[٢٦] .

وقد تجهز الرسول ﷺ وأخفى ذلك عن الناس كما أخفت عائشة رضي الله عنها ذلك حيث أمرها الرسول ﷺ بقوله : « جهزينا وأخف أمرك » ولما سألها أبو بكر الصديق قائلاً :

أين ترينه يريد : قالت لا والله ما أدري « وجاء إلى رسول الله ﷺ وسأله أين يريد فقال ﷺ : « قريشاً » وأخف ذلك ياأبا بكر . وأمر الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجهة التي يريدها[٢٧] ولذلك لم يستطع أبو سفيان الحصول على أي معلومات حتى من أقرب الناس إليه وهي ابنته أم حبيبة .

وقد أشار رسول الله ﷺ على وفد خزاعة الذين جاءوا يخبرونه بأن قريشاً ناصرت بني بكر على خزاعة ، ونقضوا عهدهم .. أشار عليهم رسول الله ﷺ أن يفترقوا أثناء رجوعهم حتى لا تراهم قريش ـ فتعرف أن المسلمين قد علموا بنقضهم للعهد ، وأنه قد يستعد لملاقاتهم فتفرقوا[٢٨] .

وبذا يكون رسول الله عرف أهمية حفظ السر والتكتم على العدو في حروبه ، وكان ﷺ يعمي على العدو تحركاته ولا يظهر للناس الجهة التي يريدها أو القبيلة التي

---

(٢٥) السيرة الحلبية ٣ / ٩ ، الرسول القائد محمود شيت خطاب ص ٢٣٤ .

(٢٦) السيرة الحلبية ٣ / ١٠ ، تفسير ابن كثير ٨ / ١٠٨ (بلفظ اللهم عم عليهم خبرنا) .

(٢٧) السيرة الحلبية ٣ / ٩ ، عيون الأثر ٢ / ١٦٧ .

(٢٨) السيرة الحلبية ٣ / ١٠ .

يريد قتالها إلا في تبوك وذلك لبعد الشقة التي تحتاج إلى الاستعداد الكامل وأخذ المئونة ولذلك (كما يروي البخاري) :

« لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها[٢٩] .

وعندما أراد الرسول ﷺ تأديب بني اللحيان الذين قتلوا رهط المسلمين ، أعلن النبي ﷺ أنه يريد الشام وتحرك فعلاً نحو الشام شمالاً ، فلما اطمئن إلى انتشار الأخبار من أنه اتجه شمالاً عاد راجعاً باتجاه مكة مسرعاً في حركته حتى بلغ منازل بني لحيان الذين فروا إلى رؤوس الجبال ونجوا بأرواحهم »[٣٠] .

وهكذا كان ﷺ يكتم سره ويواري غزواته حذر الجواسيس وقد كان للرسول ﷺ من أصحابه من يعلم سره في بعض الأمور فكان حذيفة بن اليمان يعلم سر رسول الله ﷺ في المنافقين ولم يكن يعلمهم أحد إلا حذيفة أعلمه بها رسول الله ﷺ وسأله عمر بن الخطاب : أفي عمالي أحد من المنافقين ؟ قال : نعم[٣١] .

ومن الوسائل التي استخدمها الرسول ﷺ لتحول دون تسرب الأخبار إلى العدو ورصد تحركاته أيضاً : الحراسات :

فعن سهل بن الحنظلة أنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين فأطنبوا السير ، حتى كان عشية قال : من يحرسنا الليلة ؟ قال أنس بن أبي مرثد الغنوى : أنا يارسول الله ، قال : فاركب ، فركب فرساً له ، وجاء إلى رسول الله ﷺ فقال له استقبل هذا الشّعب حتى تكون أعلاه ولا نغرن من قبلك الليلة ، فلما أصبحنا جاء رسول الله ﷺ إلى مصلاه فركع ركعتين ، ثم قال : هل أحسستم فارسكم الليلة ؟ قالوا : لا ، فثوب بالصلاة فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلى الشِّعب ، حتى إذا قضى رسول الله ﷺ

---

(٢٩) البخاري شرح عمدة القاري ١٤ / ٢١٧ ، ابن ماجه ٢ / ٩٤٥ . سنن البيهقي ٩ / ١٥٠ ورواية البيهقي (كان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها حتى كانت غزوة تبوك فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدداً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم وأخبرهم بوجهه الذي يريد) .

(٣٠) (الطبقات الكبرى لابن سعد ٢ / ٢٥ ـ ٢٦ .

(٣١) التراتيب الإدارية ١ / ٣٠ السيرة الحلبية ٣ / ١٢١ .

قال : أبشروا قد جاءكم فارسكم : فإذا هو قد جاء ، حتى وقف على رسول الله فقال : إني انطلقت حتى كنت في أعلى هذا الشعب حيث أمرني رسول الله ﷺ فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما ، فنظرت فلم أر أحداً ... فقال له رسول الله ﷺ : « هل نزلت الليلة ؟؟ قال : لا إلا مصلياً أو قاضياً حاجة . فقال له رسول الله ﷺ : « قد أوجبت فلا عليك ألا تعمل بعدها »[٣٢] .

وكان عمر بن الخطاب على حرس رسول الله ﷺ في غزوة الفتح الأعظم ، وكان أبو بكر الصديق يحرسه في هجرته بعد أن سار الرسول ﷺ وصاحبه ليلتين ، وفي الطريق سوى أبو بكر مكاناً عند صخرة ليقيل به رسول الله ﷺ ويستظل بظل الصخرة ، فنام رسول الله ﷺ وأبو بكر يحرسه حتى رحلوا بعدما زالت الشمس[٣٣] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ سهر فلما قدم المدينة قال : ليت رجلاً من أصحابي صالحاً يحرسني الليلة إذ سمعنا صوت سلاح فقال : من هذا ؟ فقال : أنا سعد بن أبي وقاص جئت لأحرسك فنام النبي ﷺ »[٣٤] .

فلم يغفل رسول الله ﷺ عن وضع الحرس لمراقبة من يمر من الأعداء أو أعوانهم في داخل المجتمع المسلم وإن كان قد حفظه الله سبحانه وتعالى من الناس ، فيما يتعلق بشخصه ﷺ ولكن حرصه على مصلحة المسلمين يدعوه إلى وضع الحراسات ، وقد ظفر الحرس بجواسيس العدو في فتح مكه حيث ألقى القبض على أبي سفيان ومن معه وجيء به إلى رسول الله ﷺ .

وفي خيبر ألقى الحرس القبض على يهودي في جوف الليل فجاء به عمر إلى النبي ﷺ وسأله الرسول ﷺ عن يهود فأخبر عن قوتهم وأسلحتهم وأنواعها ، وحصونهم ومداخلها وطريقة دفاعهم واستفادوا من ذلك في فتح خيبر ومعرفة مآتي هذه الحصون[٣٥] .

---

(٣٢) أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ١٨٢ .

(٣٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ١٠٥ .

(٣٤) البخاري : شرح فتح الباري ٦ / ١٨١ (والمعروف أن سعد بن معاذ كان على حرس رسول الله ﷺ في العريش في غزوة بدر الكبرى) (انظر السيرة الحلبية ٢ / ٣٨١) .

(٣٥) السيرة الحلبية ٢ / ٧٣٣ .

وحفظاً على كتم الأسرار كان ﷺ قد استعمل وسيلة أخرى للحفاظ على الأسرار وهي غاية في التكتم والحيطة تلك هي الأوامر المختومة فكان ﷺ يعطي الأمر بكتاب دون أن يراه المكلف بقيادة السرية أو أحد من أفرادها فقد وجه عبد الله بن جحش « في سرية وذلك في السنة الثانية للهجرة وأمره على اثنى عشر مهاجراً في مهمة أخفاها عنهم ودفع إليه كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين في اتجاه معين ثم ينظر فيه فلما مضى يومان فض الكتاب فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل « نخلة » بين مكة والطائف فترصد لنا عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم ، فلما نظر في الكتاب قال :

سمعاً وطاعة ، ثم قال ذلك لأصحابه وقال : قد نهاني رسول الله ﷺ أن أستكره أحداً منكم فمضوا لم يتخلف منهم أحد . ومضى عبد الله بن جحش وأصحابه حتى نزل بنخلة ... »[٣٦] .

وكان ﷺ يهدف من تكتمه مفاجأة العدو والتعمية عليه حتى يأخذه على حين غرة ، ففي غزوة بدر الكبرى ظل ﷺ يتحرى خبر القوم ثم نزل قريباً من بدر وكان برفقته أبو بكر الصديق وقيل معاذ بن جبل حتى وقفا على شيخ من العرب يقال له : « سفيان » فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم فقال الشيخ : لا أخبركما حتى تخبراني من أنتما ، فقال رسول الله ﷺ : إذا أخبرتنا أخبرناك ، فقال الشيخ ذاك بذاك ؟ قال : نعم . قال : فإنه قد بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدق الذي أخبرني به فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي نزل به رسول الله ﷺ وأصحابه . وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم كذا وكذا فإن كان الذي أخبرني به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي نزلت به قريش فلما فرغ من خبره قال : من أنتما ؟! فقال رسول الله ﷺ : نحن من ماء ـ أي من ماء دافق ـ ثم انصرفا عنه فقال الشيخ :

---

(٣٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ٦ / ١٩٨ ، تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن ١ / ١٠٨ عيون الأثر ١ / ٢٢٧ . نهاية الأرب ـ السفر ١٧ / ٦ الفن الحربي في صدر الإسلام عبد الرؤوف عون ص ٢١٢ ، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١ / ٣٩٧ .

من ماء ؟؟! من ماء العراق ؟؟ ففهم أن المراد بالماء حقيقته[٣٧] .

وعن أنس رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ خرج إلى خيبر فجاءها ليلاً ، وكان إذا جاء قوماً بليل لا يغير عليهم حتى يصبح ، فلما أصبح خرجت يهود بمساحلهم ومكاتلهم ، فلما رأوه قالوا : محمد والله والخميس فقال النبي ﷺ : الله أكبر خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[٣٨] .

وكان ﷺ يدرك أهمية المعلومات وجمعها في المعركة عن العدو وهو ما يعرف اليوم بالاستطلاع والاستكشاف وتقوم به دوريات خاصة تشكل من أفراد قلائل يجمعون المعلومات عن العدو وقد يختار من فيه الجرأة والشجاعة للقيام بهذه المهمة كاختيار عبد الله بن جحش لما يتصف به من صفات الطاعة والانضباطية والخبرة .

وإن كتابة رسول الله ﷺ لهذا الكتاب وجعله مقفلاً لا يعلمه أحد من الخارجين في هذه السرية له هدف وهو التكتم على الناس حتى لا يشيع أمر هذه السرية بينهم فيعرفون اتجاهها ومقاصدها فيبلغ ذلك العدو فيحتاط لنفسه .

والكتمان أمر حيوي في العمليات العسكرية حيث تفشل كل حركة بدون تحقيق ذلك وتطبيقه ، ثم إن وصية رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن جحش بألا يستكره أحداً من أصحابه منها : إنه يريد ﷺ بأن لا يدفع بفرد إلى عملية يخشاها أو يهابها لأن الحرب تحتاج إلى القوة والشجاعة وأن من يخرج إليها بنفسه وبإرادته فإنه يقدر على مواجهة الأحداث التي تمر به أثناء القتال : وأما الذي يخرج مكرهاً على ذلك فإنه لا يصبر على القتال وسرعان ما يهزم أمام العدو فيكون سبباً لهزيمة المسلمين .

المطلب الثالث : الحذر من العدو في الحرب والسلم : .

كان ﷺ يحذر عدوه كثيراً ولذلك كان يضع العيون ويستفيد من المعلومات عن العدو ، فقد بث الجواسيس في غزوة بدر كما مرَّ معنا ، واستفاد كذلك من المعلومات التي

---

(٣٧) السيرة الحلبية ٢ / ٣٨٧ .

(٣٨) البخاري : بشرح عمدة القاري ١٤ / ٢١٤ ، السنن الكبرى ٩ / ٧٩ .

وصلته عن قريش في أُحد عن طريق عمه العباس بن عبد المطلب كما ذكر ذلك سابقاً .

وبعد غزوة أحد كثر كلام اليهود والمنافقين ، فبعث رسول الله ﷺ من يجس له خبر قريش ويترقب أخبارهم ، فبعث علي بن أبي طالب وقال له : « اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وماذا يريدون ، فإذا هم جنبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة فوالذي نفس محمد بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم ثم لأناجزنهم فيها » « فرآهم علي قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة »[٣٩] .

وكان المنافقون يوجهون القبائل لمحاربة الرسول ﷺ وصحبه ، ولذا لابد للمسلمين أن يأخذوا الحيطة والحذر في الحرب وبعد انتهائها .

إن حذر المسلمين ويقظتهم أفادهم في ضرب كثير من القبائل التي حاولت الاعتداء على المسلمين خاصة في وقت ضعف المسلمين وهزيمتهم في أُحد ، ولذا نرى الرسول ﷺ يوجه الحملة لمحاربة بعض القبائل الطامعة في المسلمين فكانت غزوة حمراء الأسد التي أعاد فيها المسلمون اعتبارهم وعززوا معنوياتهم وأرهبوا القبائل الصغيرة التي تطمع في المسلمين وتتحين فيهم الفرص .

وفي هذا أثبت المسلمون قوتهم في المدينة بعد غزوة أحد مباشرة حيث إن الصدمات لم تزدهم إلا إيماناً وقوة بالحق ، فظهر المسلمون أقوياء أمام الأعداء حتى في أضعف أوقاتهم وأصعب ظروفهم فلم يكن الرسول ﷺ وصحبه غافلين عن تحركات القبائل العربية الصغيرة والتي تعمل بتوجيه المنافقين وذوي النفوس الخبيثة ممن هم في المدينة من اليهود والمنافقين .

ولذا ازدادت تحركات المسلمين بعد أحد مباشرة كما ازداد نشاطهم ، فأخذوا يراقبون الأعراب وتحركاتهم والمنافقين وميولهم ودسائسهم ، وكانت أخبار القبائل العربية تصل إليهم قبل أن تبدأ بتنفيذ خطتها فكانت تصل إلى رسول الله ﷺ أخبار هذه القبائل بمجرد تجهيزها للقتال وفي ذلك الحكمة في اتخاذ الحيطة والحذر بعد الهزيمة وفيه الاستفادة من العيون . فقد وصل إلى رسول الله ﷺ خبر « خالد بن نبيح » من أنه جهز قبائل

(٣٩) السيرة الحلبية ٢/ ٤٩٠ تاريخ الإسلام حسن إبراهيم حسن ١/١١١، تفسير المنار ٤/ ١٠٦، سيرة ابن هشام: ٣/ ٩٤.

« هذيل وبني اللحيان » من قبائل الحجاز ، وأنه أعد العدة لـذلـك ، فـأراد الرسول ﷺ أن يتأكد من هذا النبأ فبعث ﷺ : « عبد الله بن أنيس » ليقف على جلية أمره فـانتهز عبد الله غرة من الرجل فقتله »[٤٠] .

ومن الضرورات الحيوية في استطلاع الأخبار والحذر من العدو ومقـاومـة جواسيسـه سواء أكان ذلـك في السلم أو في الحرب تعلم لغـة العـدو فقـد تنبـه الرسول ﷺ إلى ذلـك وعنى به فأمر زيـد بن ثـابت بتعلم لغـة العـدو من اليهود ولقـد تعلم زيـد كتـابـة اليهود بالسريانية وفي هذا تحطيم لمكيدة العدو ، وإفساد لحربه التي يشنها على المسلمين وإفشـال لمخططاته ، وتحطيم معنوياته وضرب الحرب النفسية التي يشنها ضـد المسلمين ، وفي ذلـك عبرة لكل مسلم ، وهي من الضرورات الحيوية لكل جيش في كل زمان ومكان فعن زيد ابن ثابت[٤١] قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أتعلم كلمات من كتاب يهود وقال :

« إني والله ما آمن يهود على كتـابي » قـال : فما مر بي نصف شهر حتى تعلمتـه لـه ، قال : فلمـا تعلمتـه كان إذا كتب إلى يهود كتبت إليهم ، وإذا كتبوا إليـه قرأت كتـابهم ، وفي رواية أخرى : أمرني رسول الله ﷺ : أن أتعلم السريانية « وفي رواية : فتعلمتهـا في سبعة عشر يوماً »[٤٢] .

ومن الحذر أيضا اتخاذ الشعار « كلمة التعارف » فقـد كان للجيش الإسلامي نـداءات خاصة بـه يصـدرهـا القـائـد للجنـد في الحرب وذلـك نتيجـة لتنويع الحركات في الحرب

---

(٤٠) البخاري : بشرح فتح الباري ٧ / ٢٦٦ ، مجمع الزوائد ٦ / ٢٠٣ ، تاريخ اليعقوبي ٢ / ٥٨ .

(٤١) أبو سعيد زيـد بن ثـابت بن الضحـاك الأنصـاري يقـال : أبـو خـاجـة الخزرجي البخـاري المدني .. استصغره رسول الله ﷺ يوم بدر ، وشهد الخندق وقيل شهد أحداً ، وكان معه راية بني النجـار يوم تبوك . وكان يكتب الوحي إلى رسول الله ﷺ ويكتب الرسـائل لـه ، وجمع القرآن الكريم في عهـد أبي بكر الصـديق وقـال عنـه أبو هريرة يوم مات :

اليوم مات حبر هذه الأمة وعسى الله أن يجعل في ابن عباس خلفاً .

وكانت وفاته سنة ٤٥ هـ (انظر التاريخ الكبير ١ / ٣٨٠) .

(٤٢) البخـاري : بشرح فتح البـاري في بـاب ترجمـة الحكام ١٣ / ١٨٥ التـاريـخ الكبير للبخـاري ١ / ٣٨٠ رقم (١٢٧٨) الترمـذي بشرح الأحـوذي ٧ / ٤٩٧ ، حـديث رقم (٢٨٥٨) التراتيب الإداريـة ١ / ٣٠٢ ، مسنـد أحمـد ٥ / ١٨٢ (بلفظ سبعة عشر يوماً) أبو داوود في كتاب العلم ١٠ / ٧٨ حديث رقم (٣٦٢٨) .

والحاجة إلى إخفاء الحركة عن العدو فكان لكل حركة نداء خاص يدل لفظه المراد به على معنى معين .

وهذه الشعارات يتعارفون بها عند القتال ويتميزون بها عن عدوهم (عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله ﷺ : « إنكم ستلقون العدو غداً فإن شعاركم : حم لا ينصرون »[٤٣] .

وعن سلمة بن الأكوع قال : أمر رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، فغزونا ناساً من المشركين فبيتناهم نقتلهم ، وكان شعارنا تلك الليلة : أمت أمت ، قال سلمة : « فقتلت بيدي تلك الليلة سبعة أهل أبيات من المشركين »[٤٤] .

وعن عائشة رضي الله عنها : « جعل رسول الله ﷺ شعار المهاجر يوم بدر : عبد الرحمن والخزرج : عبد الله »[٤٥] .

وعن أبي داود عن سمرة بن جندب قال : « كان شعار المهاجرين يوم بدر : عبد الله والأنصار : عبد الرحمن »[٤٦] .

وكان النداء الغالب الذي يجمع المسلمين جميعاً : « الله أكبر » وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر : « أحد أحد »[٤٧] .

وكان النداء لأصحاب رسول الله ﷺ في حنين : يا أصحاب سورة البقرة[٤٨] .

ومن هنا نجد أن رسول الله ﷺ كان حذراً من عدوه أشد الحذر ، وفي ذلك الحكمة

---

(٤٣) أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ٢٩٩ (بلفظ أن بيتكم العدو) ، المستدرك ٢ / ١٠٧ .

(٤٤) أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ٢٩٩ ، مسند الطيالسي ٢ / ١٠٩ والحديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه (انظر المستدرك ٢/ ١٠٧ وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٩/ ٧٩، نيل الأوطار ٧/ ٢٧٤. مسند أحمد ٤/ ٤٦ دار صادر .

(٤٥) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٨٧ .

(٤٦) أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ٢٥٧ .

(٤٧) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٨٧ .

(٤٨) الطبقات الكبرى ٢ / ١٠٩ التراتيب الإدارية ١ / ٣٢٧ .

والخبرة بالحرب ومعرفتها فقد كان يهتم بجمع المعلومات عن العدو في وقت الحرب وكان يتوقع هجمة العدو في كل لحظة فكانت تأتيه الأخبار من كل مكان ، فقد أخبر بتجهيز قريش في أحد ، وعرف أنها متقدمة نحوه ولذلك نجده يستشير أصحابه في الأمر . وعندما تركز الرأي أن يخرج المسلمون لملاقاتهم في جبل أحد ، ودارت المعركة ، وهزم فيها المسلمون ومع ذلك فإن الهزيمة لم تزعزع إيمانهم بل زادت المسلمين قوة وتصميماً وتمسكاً بالحق فنجد أن المسلمين لم ييأسوا مما حل بهم في أحد بل زادت حركتهم وترقبهم لقريش خوفاً من أن ترجع إليهم تستأصلهم ، وكما زادت حركتهم لمراقبة الأعداء الذين يترصدون بهم الدوائر فأرسل الرسول ﷺ طلائع الاستكشاف ، وكان كلما جاءه خبر عن قبيلة من القبائل تأكد من صدق هذا الخبر .. فكانت تأتيه تحركات القبائل جميعاً .

وفي غزوة تبوك لم يكن المسلمون غافلين عن حركات الروم فقد استطاعوا معرفة تحشدات الروم وقطاعاتهم ومواضع تلك التحشدات .. كما عرفوا نواياهم مبكراً وبصورة مفصلة مثلما عرفوا ذلك عن كل أعدائهم في الصحراء وفي مكة . فلولا حصول الرسول ﷺ على معلومات سابقة ، لما بدأ بالحملة ضدهم في هذا الوقت ، وفي شدة الحر لكنه ﷺ عرف حال أصحابه وتحملهم للحر وعرف عدوه وعدم قدرته على التحمل في وقت الحر وأنه يتحمل ذلك في وقت الشتاء الذي لا يحتمله أصحابه أكثر من تحملهم الحر ثم إنه حاول ﷺ أن يقضي على هذه القوة قبل أن تبدأ بالقضاء على المسلمين فأراد أن يكون عنصر المبادرة والمفاجأة بيده .

ثم إن في تعلم لغة العدو أن يأمن المسلمون شرهم ومكيدتهم ، فلعل العدو يضع الخطط أو الجواسيس على المسلمين فيكون في تعلم لغتهم أمن شرهم ودفع مكيدتهم .

وإن استعمال الشعار والنداءات الخاصة من الأمور الهامة في كل جيش للتعمية على العدو بحركات الوحدات العسكرية المقاتلة وليتعارف بهذا المجاهدون في وقت اختلاطهم بالعدو ونداءاتهم لإخوانهم دون أن يعرفها العدو أو أن يحل رموزها الخاصة ، وفي ذلك ما فيه من المعرفة بأمور المعركة والإعداد للعدو بكل ما يستطيع المسلم من قوة .

إن استخدام الشعار بين المقاتلين يقوي معنوياتهم ويضمن لهم عدم معرفة العدو ما

يقولونه بينهم وما يقصدونه من التخاطب بهذا الشعار فلا يستطيع فهم مضمون هذه الكلمة سواهم .

المطلب الرابع : استنتاج المعلومات :

استفاد الرسول ﷺ من المعلومات التي جمعتها عيونه في بدر ، ففي غزوة بدر استفاد ﷺ من حالة جدل دار بين جاريتين لقريش نقلها له أصحابه فقدر ﷺ وقت وصول قريش إلى بدر .

فقد بعث ﷺ بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة ، وعدي بن الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر يتجسسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وغيره ، ومضيا حتى نزلا بدراً ... فأناخا إلى تل قريب من الماء ، فسمع عدي وبسبس جاريتين من جواري الحاضر « القوم » وهما يتلازمان على الماء والملزومة تقول لصاحبتها :

إنما يأتي العير غداً أو بعد غد ، فأعمل لهم ثم أقضيك الذي لك . فقال مجدي : صدقت ثم خلص بينهما ، وسمع ذلك عدي وبسبس فجلسا على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا »[٤٩] .

كما استجوب الرسول ﷺ غلامين ألقى القبض عليهما حول ماء بدر ، وحاورهما وعرف منهما حالة العدو وقوته كما عرف أسماء القادة وقدر عدد الجيش بأنه بين التسعمائة والألف مستنتجاً هذه المعلومات من خلال الحوار الذي أجراه ﷺ مع الغلامين ومعرفة كم ينحرون من الإبل في اليوم الواحد فأفادا بأنهم ينحرون يوماً تسعاً ويوماً عشراً فعرف أن القوم بهذا العدد فلما وصل ﷺ ماء بدر (بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن وقاص في نفر من أصحابه رضي الله عنهم إلى بدر يلتمسون الخبر ، فأصابوا راوية لقريش معها غلام لبني الحجاج ، وغلام لبني العاص ، فأتوا بهما ورسول الله ﷺ قائم يصلي) .

فقالوا : لمن أنتما ؟ وظنوا أنهما لأبي سفيان . فقالا : نحن سقاة لقريش بعثونا نسقيهم

---

(٤٩) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني ٢١ / ٣٠ ، السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٦٩ ، السيرة الحلبية ٢ / ٣٩٠ .

من الماء ، فضربوهما ، فلما أوجعوهما ضرباً قالا نحن لأبي سفيان فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته قال : إذا صدقاكم القول ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش .

أخبراني عن قريش قالا : هم وراء هذا الكثيب - أي : التل من الرمل - الذي بالعدوة القصوى - أي : جانب الوادي المرتفع - فقال لهما رسول الله ﷺ : كم القوم ؟ قالا : كثير .

« وفي لفظ : والله كثير عددهم شديد بأسهم » قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندري . قال ﷺ : كم ينحرون أي من الجزر كل يوم ؟ قالا : يوماً تسعاً ويوماً عشراً . فقال ﷺ : « القوم ما بين تسعمائة والألف »[٥٠] ومثله في مسلم : فكان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه فيقول : مالي علم بأبي سفيان ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف ، فإذا قال ذلك ضربوه ، فقال نعم أنا أخسركم هذا أبو سفيان ، فإذا تركوه فسألوه فقال : مالي بأبي سفيان علم ولكن هذا أبو جهل وعتبة وشيبة وأمية بن خلف في الناس . فإذا قال هذا ضربوه ورسول الله ﷺ قائم يصلي ، فلما رأى ذلك وانصرف قال : والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم وتتركوه إذا كذبكم[٥١] قال النووي : فيه جواز ضرب الكافر أثناء الاستجواب[٥٢] .

وبهذه المعلومات التي حصل عليها استطاع الرسول ﷺ أن يقدر مكان جيش العدو وأن يعرف عدد الخارجين للقتال ضد المسلمين .

وهذا ما يجب أن يعرفه القائد عن عدوه ليتمكن من تنظيم قواته على أساس هذه المعلومات عند المواجهة ولذا لم يكن لقاء الرسول ﷺ وأصحابه في بدر لهذا العدد الضخم مفاجئاً ، فقد استنبط رسول الله ﷺ من خلال معرفته بعدد ما ينحر عدوه من الإبل كل يوم عدد عدوه مقدراً إياه ما بين التسعمائة والألف .

---

(٥٠) سنن البيهقي ٩ / ١٤٨ ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٢٦ مع اختلاف في اللفظ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٢٦٩ السيرة الحلبية ٢ / ٣٨٨ .

(٥١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٢٦ .

(٥٢) شرح مسلم ١٢ / ١٢٦ .

ثم استطـاع الرسـول ﷺ أن يعرف قـادة العـدو فـأعـد العـدة وحرض المـؤمنين على القتال وذكرهم بالآخرة وجزاء المجاهدين عند الله تعالى ، ولـذا لم يفـاجـأ المسلمون بوجود بعض أقاربهم في المعركة فلم يتحفظوا من وجود الصلات بينهم ولما التقوا بهم عـدوهم من الأعداء فكان الرجل يقف في مواجهة أخيه أو أبيه .

كما كان لمعرفـة الرسول ﷺ لوقت وصول العـدو ممـا وصلـه من معلـومـات لـه أبلـغ الأثر في الاستعداد واستغلال الوقت والسرعة للوصول إلى الماء قبل أن تصل قريش .

المطلب الخامس : اختيار من فيه الكفاية لجمع المعلومات :

ينبغي بعث الجواسيس الذين فيهم الكفاية والقدرة على الدخول في أرض العدو ففي غزوة الخندق في السنة الخامسة للهجرة بعث رسول الله ﷺ حـذيفـة بن اليمان وقـال لـه أن يدخل في القوم ويتريث بخفـة في مشيتـه حتى لا يـذعرهم « عن حـذيفـة بن اليمان ، قال : لقد رأيْتُنَا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنـا ريـح شـديـدة وقـر : فقـال رسول الله ﷺ ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيـامـة فسكتنـا فلم يجب منا أحد ، ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعلـه الله معي يوم القيـامـة فسكتنـا فلم يجبه منًّا أحد ، ثم قال : ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامـة فسكتنـا فلم يجبه منا أحد فقال : قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم ، فلم أجد بدأ إذ دعـاني بـاسمي أن أقوم . قال اذهب فأتني بخبر القوم ولا تـذعـرهم علـي[٥٣] ، فلمـا وليت من عنـده جعلت كأنما أمشي في حمام[٥٤] حيث أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنـار ، فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ : « ولا تـذعرهم عليّ » ولو رميته لأصبته فرجعت وأنـا أمشي في مثل الحمـام ، فلمـا أتيتـه أخبرتـه بخبر القوم وفرغت قررت[٥٥] فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نـائمـاً حتى أصبحت قال : قم يا نومان »[٥٦] .

---

(٥٣) لا تذعرهم : لا تفزعهم (المصباح المنير ص ٢٠٨ ، مختار الصحاح ص ٢٢٢) .

(٥٤) كأنما أمشي في حمام : لم يجد البرد الذي يجده الناس منذ ذهب حتى عاد .

(٥٥) قررت : القر : هو البرد أي بردت (مختار الصحاح ص ٥٢٨ المصباح المنير ٤٩٧) .

(٥٦) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٤٦ عمدة القاري بشرح البخاري ١٤ / ١٤٢ . سيرة ابن هشام ٣ / ٢٤٣ .

كما بعث النبي ﷺ الزبير بن العوام يستطلع الأخبار عن قريش فعن جابر رضي الله عنه قال :

قال الرسول ﷺ يوم الأحزاب : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا ثم قال : من يأتينا بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال : « إن لكل نبي حوارياً وإن حواري الزبير »

ومن هنا فإن من تسند إليه مهمة الدخول في العدو ينبغي أن تكون فيه الكفاية والقدرة والشجاعة وأن تكون عنده الخبرة الكافية والمعرفة بالطريق وأن يستطيع التخلص من المواقف الحرجة والقدرة على السيطرة على مشاعره وانفعالاته ومن هنا أيضاً يجب أن يدخل من يجمع المعلومات عن العدو بسرية تامة حتى لا يعلمه أحد من الأعداء ، أو يحس به . فيعطيه أخباراً موهمة وإن على الجاسوس إطاعة الأمر وتنفيذه والتقيد به تماماً . وأن لا يتكلم بالمعلومات التي يحصل عليها إلا لمن أصدر له الأمر بالدخول في العدو كما أوصى صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان : (ولا تحدثن أحداً حتى تأتينا) (ولا تذعرهم عليَّ) .

وكان النبي ﷺ قد علم بنوايا أعدائه من خلال المعلومات التي حصل عليها من العيون التي بعثها إليهم . وتقديراً لأهمية هذه المعلومات فإن من يسند إليه الأمر بجمعها والحصول عليها أن يكون متميزاً بصفات خاصة أهمها الصدق حيث يعتمد عليها وقد اعتمد ﷺ على المعلومات التي كانت تأتيه من حذيفة ومن غيره من الصحابة .

ولذا كان الرسول ﷺ بجانب اهتمامه بجمع المعلومات كان يتخير الأشخاص الذين يثق بهم يبعثهم في صفوف العدو فكانت المعلومات التي تأتيه صحيحة ودقيقة .

كما نلاحظ أيضا أن الرسول ﷺ يعطي الخيار لأصحابه فمن رغب منهم تنفيذ أمر معين كان يعطيه الأمر بالدخول في العدو ، وكان يعطي فرصة لأصحابه . فمن أراد أن يخرج يثق به ويوصيه . ومن لم يرد ذلك لا يكرهه .

---

(٥٧) صحيح البخاري بشرح عمدة القاري ١٤ / ١٤١ ، سنن البيهقي ٩ / ١٤٨ .

وكان يختار ﷺ القوي من أصحابه ومن يحمل صفات تصلح لموقف معين فيكلفه بـه وكان يعرض الأمر على أصحابه ويقول :

(من يأتينا بخبر القوم ...) ويكرر ذلك حتى يعرف من في نفسه الرغبـة ، إلا أنـه لما وجد أنه ليس أحد من أصحابه يرغب بذلك ندب حذيفة لمعرفته به وبنفسيته وأمانته وصدق خبره ، وأمره أن يدخل في القوم ويأتي بخبرهم فلو لم يكن مقصوداً لصفات تميز بها فلربما ضرب أبا سفيان عندما رآه يصلي ظهره بالنار ، ولكن معرفة الرسول ﷺ برجاله تدعوه أن يختار من بينهم من يتمتع بصفات معينة .. فمن لا يصلح لهذا الموقف فإنه يصلح لموقف آخر .



المبحث الخامس

في أمثلة من التجسس في الفتوحات الإسلامية الأولى

لقد دأب الخلفاء الراشدون على إزجاء نصائحهم إلى القادة العسكريين بضرورة اتخاذ الأدلاء والجواسيس وأخذ الحيطة والحذر وكتمان الأسرار ، ومعرفة أسرار العدو بواسطة الجواسيس ، ولقد طبق القادة العسكريون هذه الوسيلة القتالية الهامة ، وربما خرج القائد بنفسه يستطلع الأخبار من بين صفوف العدو ، كما قد يتفقد جنده حذراً من جواسيس الأعداء .

ومن وصايا الإمام أبي بكر الصديق إلى يزيد بن أبي سفيان حين وجهه إلى الشام قال : يا يزيد سر على بركة الله ، فإذا دخلت بلاد العدو ، فكن بعيداً عن الحملة ، فإني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد ، وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح ، فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات ، فإن في العرب غرة ، وأقلل من الكلام فإن لك ما وعي عنك »[1] .

ومن وصية له أيضاً إلى عمرو بن العاص قال فيها :« وابعث عيونك يأتوك بأخبار أبي عبيدة ، فإن كان ظافراً بعدوه ، فكن أنت لقتال من في فلسطين وإن كان يريد عسكراً فأنفذ إليه جيشاً إثر جيش »[2] .

ثم بيّن أبو بكر الصديق ليزيد بن أبي سفيان كيفية معاملة الجند باللين ، وحفظ المعسكرات ، ومراقبة هذه الحراسات فيقول : « فلا تلحن في عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن إليها ، وأنت تكتفي بغيرها ، واقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله في سرائهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ولا تهمله فتفسده »[3] .

ثم يؤكد الخليفة للقائد العسكري بعد ذلك ضرورة بث الحراسات وترتيب النوبات

---

(١) عيون الأخبار مجلد ١ / ١٠٨ .

(٢) فتوح الشام ١ / ١٥ .

(٣) عيون الأخبار ١ / ١٠٩ .

وتوزيعها بما يتناسب وقدرة تحمل الجندي بحيث تكون في النهار أطول منها في الليل فيقول :

« وأسمر بالليل في أصحابك تأتك الأخبار ، وتنكشف عنك الأشياء وأكثر من حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر من مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير إفراط ... واجعل النوبة الأولى أطول من الآخرة فإنها أيسرها لقربها من النهار »[٤] .

ومن هنا يظهر مدى اهتمام الخليفة أبي بكر الصديق بأخذ الحيطة والحذر ولا غرابة في ذلك فقد عاش الإمام أبو بكر الصديق فترة حاسمة من تاريخ الإسلام وهو رفيق الرسول ﷺ .. وعرف الحروب الداخلية والخارجية ، وعرف أهمية التجسس والطلائع ففي حروبه مع الردة جمع في المسجد أصحابه يستشيرهم وأرسل العيون على الطرقات من كل سبيل .. فجاءوا بنبأ القوم ومواضع جماعتهم المختلفة ، ولذا قرر أن يخرج بالليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون فدهم من كان منهم بذي « القصة » فذعروا لهذه البغتة التي لم يتوقعوها وهكذا ، ففي فترة حروب الردة كانت القبائل مشغولة بالهجوم أو الدفاع وكانت رسل أبي بكر رضي الله عنه تمشي بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء ، وتأتيه بالأخبار من كل مكان ، فيعمل وهو بصير ، ويعملون وهم متخبطون[٥] .

وعندما وجه الخليفة خالد بن الوليد لقتال أهل الردة أعلن أنه يريد المسير إلى خيبر ، وذلك من أجل أن يدهم العدو على حين غرة ويفوت الفرصة على أعوانه من أن يوصلوا إليه معلومات صحيحة ، ويدخل الرعب في قلوب سكان تلك المنطقة .

إن وصية الإمام أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد وغيره من القادة من أروع ما توصلت إليه الحرب الحديثة من التقدم ، والأخذ بأسباب النصر وكذلك فإن وصيته في أسلوب معاملة الجند من أعظم الأساليب الحديثة في معاملة العاملين في الجيوش وطريقة معالجة أخطائهم .

---

(٤) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢ / ٤٠٤ ، الصديق أبو بكر / محمد حسين هيكل ص ٢٤٧ .

(٥) عبقرية خالد / عباس محمود العقاد ص ١٥٠ ـ ١٥٢ .

وإن التكتم في الحرب على العدو ، وحفظ اللسان والإيهام في مسير الجيش ، وأخذ الأخبار عن العدو والتكتم في ذلك ، وضرورة معرفة الطرق وطبيعة الأرض والاستفادة من الأدلاء ، ووضع الحراسات الليلية ، وتقسيم النوبات ومراعاة الوقت في ذلك وطول كل مدة كل هذه تنم عن خبرة في معاملة الجيش والعاملين فيه . والحرص على سلامتهم ، ولا غرابة في ذلك فالإمام أبو بكر الصديق ملازم للرسول ﷺ وله خبرات خاصة في حروب الردة .

وكذلك كان عمر بن الخطاب يوصي قادة جنده ، فمن حديثه إلى سعد بن أبي وقاص : « فإذا وطئت أرض العدو ، فأذك العيون بينك وبينهم .. ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه ، والغاش عين عليك ، وليس عيناً لك »(٦) .

وقد وجه أبا عبيدة بن مسعود الثقفي وأوصاه بالتريث في الوضع الذي يصلح فيه التريث مع الحذر يقول :

« ولا تجتهد مسرعاً بل اتئد ، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذي يعرف الفرصة »(٧) .

ثم يزيده تبصرة بضرورة الحيطة والحذر فيقول له : « إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة ... فانظر كيف تكون ... واحرز لسانك ولا تفشين سرك فإن صاحب السر متحصن ولا يؤتى من وجه يكره »(٨) .

وكان عمر بن الخطاب يهتم بشئون المسلمين الحربية مثل اهتمامه بالشئون الداخلية .

وكثيراً ما كان يأمر بإقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجند في الفتوحات الإسلامية وخصوصاً في الطرق حيث كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الجمال ،

---

(٦) بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق ٢ / ٤٠٤ ، تاريخ الإسلام / حسن إبراهيم حسن ١ / ٤٨٢ .

(٧) عبقرية عمر - ص ٨٤ ، تاريخ الطبري ٤ / ٦١ مكتبة خياط / بيروت .

(٨) عبقرية عمر / عباس العقاد ص ٨٤ .

وعمر الذي أمر بإقامة الحاميات على الحدود لصد هجمات العدو المفاجئة وجعل الجيش فئة مخصوصة معروفة في عملها وأوصافها وكمية أرزاقها[٩] .

وقد عرف أهمية الطلائع الاستكشافية وضرورة الحصول على معلومات عن العدو فمن وصيته إلى سعد بن أبي وقاص :

« وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر من الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا أمدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم ، وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدوك كان أول من يلقاهم أهل القوة ، واجعل أمر السرايا إلى أهل الاجتهاد والصبر والجلد ولا تخص بها أحداً من خاصتك فيضيع من رأي مؤامراتك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه يتخوف فيه عليها ضيعة ونكاية »[١٠] .

ومن وصية له إلى أبي عبيدة عندما ولاه جيش خالد بن الوليد « ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده لهم وتعلم كيف مأتاه »[١١] ومن وصية له إلى سعد بن أبي وقاص يأمره فيها أن يكتشف عورة العدو ويعرف الأرض ومسالكها يقول : « ثم لا تفاجئهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ، ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفتك أهلها فتصنع بعدوك كصنعه بك ، ثم أذك أحرار أحراسك على عسكرك وتحفظ من البيات جهدك »[١٢] .

ومن هنا نلاحظ مدى معرفة الخليفة عمر بن الخطاب بأهمية المعرفة المتقدمة لمواقع الأعداء وكشف قواتهم ، وقد بين الطريق السليمة لدخول أرض العدو بالجيش مستفيداً من الدروس التي أخذها المسلمون في غزوة حنين حيث هزمت مقدمة الجيش الإسلامي لعدم التأكد من وجود العدو في مكامن على جنبات الوادي ، ولذلك دخلت الجيوش دون الحصول على المعلومات السابقة بمواقع العدو واستحكاماته كما استفاد عمر من تجاربه

---

(٩) الطبري ٥ / ٢٣ ، تاريخ الإسلام السياسي / حسن إبراهيم حسن ١ / ٤٧٨ .

(١٠) بدائع السلك ٢ / ٦٣ تاريخ الإسلام السياسي / حسن إبراهيم حسن ١ / ٤٨٢ .

(١١) حياة الصحابة ٢ / ١٢٧ .

(١٢) بدائع السلك في طبائع الملك ٢ / ٦٤ .

مع رسول الله ﷺ في غزوات أخرى وكذلك من تجارب الخليفة أبي بكر الصديق . ولذا كان حريصاً على سلامة الجيش الإسلامي في معاركه مع الأعداء وكان عمر مهتماً بشئون المسلمين بنفسه وكان رضي الله عنه يعس المدينة بالليل ويتفقد أحوال الرعية بنفسه ويطوف بالأسواق ، وهو يقرأ القرآن الكريم[١٣] وقد عزم على الطواف في البلاد الإسلامية وقد قال في ذلك : «لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً ، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني أما عمالهم فلا يرفعونها إليَّ وأما هم فلا يصلون إلي فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ثم إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم إلى البصرة فأقيم بها شهرين والله لنعم الحول هذا »[١٤] .

وهكذا نرى أن الوصايا من الخلفاء إلى قادة الفتح الإسلامي كانت كثيرة ومعبرة ومفيدة ، وكانت تتناول ضرورة كتمان الأسرار ، وإخفائها عن العدو والحصول على المعلومات قبلاً والتي تلزم لكل جيش سواء أكان ذلك قبل البدء بالمعركة أم خلالها أم بعدها ، وهي تفيد القائد في وضع الخطط العسكرية السليمة والخطة الوقائية من هجوم العدو هجوماً مفاجئاً على المسلمين ولذلك بادر القادة العسكريون إلى تطبيق ذلك واعتبروا الحصول على المعلومات من المطالب الهامة في الحرب فكانوا يلتقطون الأخبار عن العدو قبل بدء المعركة ، وربما خرج القائد بنفسه إلى أرض العدو يجمع المعلومات عنه في أصعب الظروف كما فعل عمرو بن العاص لمعرفة العدو بنفسه للحصول على المعلومات ليتسنى له وضع خطة لملاقاة العدو وانتصاره عليه ، مع ما يتعرض له هذا القائد من الخطر فقد دخل حصن العدو على أنه جندي يحمل رسالة إلى أرطبون الروم ، فدرس الحصن ، وعرف أسراره وطرقه ومواطن الضعف والقوة في العدو وحالته العسكرية ، ثم وضع خطة لاحتلال الحصن ، الأمر الذي سهل فتح فلسطين بصورة

---

(١٣) خطط المقريزي ٣ / ٦٦ ، الخراج لأبي يوسف ص ٢١٤ (وكان عمر يتولى بنفسه العسعس : وهو الطواف بالليل لتتبع أهل الريب عس بالليل يعس عساً وعسساً . (المصباح المنير ص ٤٠٩ ـ مختار الصحاح ص ٤٣٢) وأول من عس بالليل عبد الله بن مسعود بأمر الخليفة أبي بكر الصديق (خطط المقريزي ٣ / ٦٦ .

(١٤) تاريخ الطبري ٥ / ٢٣ .

سريعة[١٥] .

وخلال حرب خالد بن الوليد وانتصاراته على بني حنيفة في حروب الردة فإن خالد ابن الوليد أبقى على حياة قائد طليعة العدو ، لينتفع به في مهام حربية .

وكان خالد بن الوليد في حروبه مع الروم يأخذ الجواسيس معه من كل إقليم وقد اصطفاهم لنفسه . وكان يحسن إليهم ، ويأتون له بالأخبار فلم يكن اعتماده في ذلك على العرب فقط ، خاصة في جمع المعلومات واستعمال الجواسيس[١٦] .

كما استعمل خالد في حروبه مع فارس الأدلاء الذين كانوا يدلونه على مسالك الطرق ومراكز العدو ، فاستعمل أيضاً الطلائع والجواسيس وهدفه حماية جيشه من استطلاعات عدوه ..

وكان يراقب عدوه مراقبة وثيقة ويتحين منه الفرصة لإنزال الضربة القاضية . وربما كان خالد يجس بنفسه بلاد العدو حيث وجد حصناً قوياً في بلاد الأنبار « فطاف بالخندق وعرف مآتيه وثغرات الضعف فيه ، كما كان لخالد وغيره من قادة الجيوش الإسلامية جواسيس يخرجونهم كل يوم يستطلعون لهم الأخبار »[١٧] .

وكان خالد بن الوليد كغيره من القادة يختار الجواسيس من مختلف المناطق ومن مختلف القبائل ويختار المدربين وأهل المراس ولذا يقول الواقدي في فتوح الشام : « وكانت العيون من المسلمين من بني طيء ومذحج ينزلون ، ويتزيون بزي العرب المتنصرة يتجسسون الأخبار حتى اختلطوا بالعساكر المذكورة .. وكانوا حذاقاً متفرسين »[١٨] .

كما عمل خالد بن الوليد على تأمين الحدود مع العدو فوضع حاميات الثغور ووضع لها

(١٥) تاريخ الطبري ٤ / ١٥٧ ، فن إدارة المعركة ص ٤٤ .

(١٦) فتوح الشام ٢ / ٧٢ ، خالد بن الوليد المثل الأعلى للقيادة الظافرة بكر موسى ص ١٢٠ .

(١٧) فتوح الشام ٢ / ٢٣٠ الكامل في التاريخ ٢ / ٤٠٨ ، ٤١٢ .

(١٨) فتوح الشام ٢ / ٢٣٠ .

الأمراء فكان معه ضرار بن الأزور ، وضرار بن الخطاب ، والقعقاع بن عمرو ، والمثنى ابن حارثة[١٩] .

وأما عمرو بن العاص في حربه مع مصر فقد استفاد من خبراته السابقة حيث زار مصر في الجاهلية قبل الإسلام ، فكان يسير بجيشه بمعرفة سابقة بطبيعة الأرض المصرية .

وكذلك اهتم المثنى بن حارثة الشيباني اهتماماً بالغاً بدراسة أحوال العراق قبل أن يبدأ بالحملة عليها ، حيث عرف مسالك المنطقة وتحصنات العدو ، ومناطق الضعف والقوة في جيشه قبل أن يبدأ بالحملة العسكرية ، فقد درس حال العدو الاجتماعية ، وعرف المنازعات بين ملوك الحيرة وتنافسهم على الرياسة ، وذلك لما له من خبرة ومراس عسكري .

وفي اليرموك استعملت وسيلة التجسس كوسيلة قتالية ذات فاعلية في إحراز النصر ، وفي المعركة أخذ المسلمون أهبتهم ودعا الأمير أبو عبيدة بجواسيسه من المعاهدين وأمرهم أن يدخلوا في عساكر الروم يتجسسون له خبر القوم وعددهم وعديدهم وسلاحهم . وقد سمع أحد جواسيسه كلاماً للقوم فنقله قائلاً : « أيها الأمير إن القوم يذكرون أن عددهم ألف ألف ، فلا أدري أهم يتحدثون بذلك ليسمع جواسيسنا ، ويحدثون بذلك أم لا »[٢٠] . ويذكر الواقدي أن للأمير أبي عبيدة في جيوش الروم عيوناً وجواسيس من المعاهدين يتعرفون له الأخبار[٢١] .

وهكذا استعمل قادة الفتح الإسلامي التجسس في المعركة كضرورة من ضرورات ما يعد للمعركة ، ويعتبر سبباً من أسباب النصر فكانوا يقدمون الجواسيس بين أيديهم ليعلموا لهم علم العدو ، كما يخوضون الأرض بالسرايا الاستكشافية لمعرفتها ومعرفة مداخلها .

وكان القادة يولون هذا الأمر أهمية خاصة ويعملون على معرفة العدْو ومخططاته

---

(١٩) الكامل في التاريخ ٢ / ٣٩٢ .

(٢٠) فتوح الشام ١ / ١٦٣ ـ ١٦٦ .

(٢١) فتوح االشام ١ / ١٦٣ .

وتحصناته ، ومآتي الخنـادق التي يلتجىء بهـا . كما عملوا على كتمان الأسرار حتى عن أقرب الناس إليهم لما في ذلك من إحباط مكيـدة العـدو وإحبـاط هجومـه المفـاجىء . كما كان الخلفاء يقدمون نصائحهم بضرورة أخذ الحذر والحيطـة أثنـاء حركـة الجيش ، ويوجهون القـادة إلى ضرورة استعمال الأدلاء وبث طلائع الاستكشـاف والعيون على العـدو وأرضـه ومعرفة مخططاته ومن أهمها وصايا الخليفة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب التي تصلح كأسـاس لـدراسـة الخطوط العريضـة التي بهـا يتم إحراز النصر ، وتفشل مكيـدة العـدو ، وبحق فإنها تصلح عبرة للقادة في كل وقت .. وخاصة القادة العسكريين ، وإنهـا جـديرة بالدرس والتقدير . والجدير بالذكر أن القادة في الجيش الإسلامي سمعوا هذه النصائح ولم يتجاوزوها ، فكانت لهم منارة تذكرهم كلما غفلوا فيرجعون إلى طريق السلامة وإلى مـا يحقق لهم النصر المبين .



الفصل الثاني

في شخصية الجاسوس وإعداده

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : في شخصية الجاسوس وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في تحليل شخصية الجاسوس .

المطلب الثاني : في الشروط التي يجب توافرها في الجاسوس .

المبحث الثاني : في إعداد الجاسوس . وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في تدريب الجاسوس .

المطلب الثاني : في معاملة الجاسوس .

المطلب الثالث : في كسب الجواسيس من الأعداء .

الفصل الثاني

في شخصية الجاسوس وإعداده

عمل الجاسوس من أهم الأعمال في الحرب ، وهو من أسباب النصر الهامة ، يقول أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي في كتابه الملحق العسكري : « فإذا نشبت الحرب أديرت العمليات الحربية . وفق المعلومات التي وصلت إلى الدول من عيونها وعمالها السريين الذين تطلق عليهم اسم « مخبرين » « إذا كانوا لها ، وتدعوهم جواسيس إذا كانوا عليها ، وليس مغالياً من يقول : إن « تاريخ الحروب ليس إلا تاريخ الجاسوسية »[١] .

وعمل الجاسوس من أشق الأعمال التي يكلف بها الجنود في الحرب لما ينطوي عليه من مخاطر ، وما يؤول إليه من نتائج تنكشف في صور الضحايا الذين يقبض عليهم بين الحين والآخر في كثير من الدول[٢] . وسأتكلم في هذا الفصل عن شخصية الجاسوس وإعداده في مبحثين : الأول في شخصية الجاسوس والثاني في إعداده .

---

(١) الملحق العسكري / أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي ص ١٧ ـ ١٨ .

(٢) المجلة العسكرية الأردنية العدد (٩) آذار ١٩٥٧ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد (٢٦) حزيران ١٩٦١ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ١٥٧ ، الملحق العسكري / ص ١٨ ، ٢٠١ .

المبحث الأول

في شخصية الجاسوس

مع أني لم أجد من كتب في شخصية الجاسوس من الناحية العسكرية أو النفسية بحيث يغوص في أعماق نفسه ، ويحلل شخصيته بصورة واضحة أو مستقلة ، فإني سأتكلم في هذا المبحث في مطلبين لهما صلة بشخصية الجاسوس ومعرفته ، وتحليل شخصيته .

المطلب الأول : في تحليل شخصية الجاسوس :

عند دراسة الجاسوس لابد أن ينظر إليه كرجل مكلف بمهمة ، ومن خلال مهنته وخطورتها ، والتي يمكن أن يتعامل من خلالها مع العدو ، فيتمكن من الدخول في صفوفه ، فيعرف حقيقته وينقلها دون أن يكشف له أمر أو يعرف له خبر .

إن لكل فرد استعداداته وقدراته وميوله ، وقد تناسبه بعض الأعمال ولا تناسبه أعمال أخرى ، ويمكن أن يكلف الإنسان بأداء عمل معين فيؤديه بنجاح إذا استغلت إمكاناته بشكل أفضل ، الأمر الذي يرفع من مستوى الأداء ، ومستوى الكفاءة في تحقيق الأهداف المرجوة والنتائج المتوخاة[١] .

وإن التوافق بين الفرد والعمل قد يحفظ للفرد قوة « دافعة » وإنتاجاً متجدداً حيث إن هذا التوافق يوفر للفرد المناخ المناسب للنجاح والفرصة المواتية لتحقيق الذات وإظهار العمل بالشكل المرضي ، ومن هنا تظهر شخصية الفرد من خلال العمل الذي يؤديه[٢] .

ففي المعركة يظهر الأبطال الشجعان المخلصون كما يعرف الضعفاء والجبناء ويتميز المخذِّلون والطامعون والذين يقاتلون من أجل الشهرة أو من أجل جمع المادة[٣] .

---

(١) الدوافع النفسية د . مصطفى فهمي ص ٣٧ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية ص ١٩٦ .

(٢) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١٩٦ .

(٣) مختصر سياسة الحروب ص ٥٣ ، ٥٤ .

وبالنظر إلى شخصية الجاسوس نجد أنه يختلف من موقف إلى آخر ومن فرد إلى آخر . حيث إن هناك فروقاً فردية بين الأفراد ، فلا يمكن أن يتشابه فردان في العالم في جميع الوجوه والأحوال ، وذلك لاختلاف البيئة واللغة والوراثة والشكل ، كما أن هناك اختلافاً من حيث القدرات الجسميَّة والعقلية ، والميول واختلافاً في التصورات ، والاتجاهات والدوافع(٤) .

وأن هناك اختلافاً في الأمزجة واختلافاً في النفسية من حيث الشجاعة والجبن والضعف أو الخمول أو النباهة ، واليقظة والحذر ، والقدرة على حفظ الأسماء والبلدان أو الوجوه ، وهناك اختلاف في القدرة على التذكر والقدرة على الاستفادة من الخبرات ، والقدرة على مواجهة الأمور والمفاجآت(٥) .

وهناك اختلاف في الهدف الذي من أجله يقوم الشخص بالتجسس ، فالأشخاص الذين يتجسسون على وطنهم للعدو هم : منافقون ، منحرفون يتصفون بالطمع ، والجشع والأنانية . وهؤلاء جبناء لا يستطيعون أن يظهروا الحقيقة ، وهم انتهازيون يتحينون الفرص بالمسلمين ويتمنون لهم السوء والهلاك ، وخطرهم كبير في هدم المجتمع(٦) .

والأشخاص الذين يتجسسون رغبة في التجسس وحباً في المغامرة لإظهار الشجاعة والجرأة ، أو إرضاء لما يكمن في نفوسهم داخلياً من حب الاعتداء ، والرغبة في الإضرار ، والقتل والسفك للأرواح والدماء ، فهؤلاء مصابون بمرض حب النفس ، والعدوان ، اكتسبوه في ظل البيئة التي يعيشون فيها ، نتيجة للسلسلة الطويلة للسلوك الإحباطي والقمعي الذي يتعرضون له في المجتمع(٧) .

ومثل هؤلاء ليس لهم اتجاه سليم أو تصور واضح أو انتماء معروف ، ولابد أن هؤلاء غير ناضجين اجتماعياً ، ولا يقدم على مثل هذا العمل إلا من كانت صفة المغامرة صفة

---

(٤) الدوافع النفسية / د . مصطفى فهمي ص ٣٧ .

(٥) الحرب النفسية / صلاح نصر ٢ / ١٤ .

(٦) المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ سنة ١٩٦٥ ص ٦٥ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١٥٧ - ١٦٠ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد (٢٦) حزيران ١٩٦١ .

(٧) الدوافع النفسية / د . مصطفى فهمي ص ٢٤٧ ، ٨٦ المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ سنة ١٩٦٥ ص ٦٥ .

أصيلة فيه ، واستجابته العدوانية ظاهرة في شخصه[٨] .

ويقول أحمد هاني في كتابه : « الجاسوسية بين الوقاية والعلاج » :

« ولاشك في أن الجاسوس الجيد هو الجاسوس المواطن أي الجاسوس الذي يعمل بوحي من وطنيته ، والذي ينظر إلى هذه الأعمال على أنها أعمال موقوتة لغرض وطني صالح ، ولهذا يخضع لنظام محكم راضياً باتباع هذا النظام مؤدياً ما يطلب منه على أكمل وجه مهما واجه من أخطار[٩] .

فالعاطفة التي تدفع الجاسوس لاختيار هذا العمل إما وطنيةٌ ودينيةٌ وإيمان بضرورة الدفاع عن النفس والعرض والمال وحفظ للدين والعقيدة ، ولذا يختار الجاسوس أصعب الظروف ويتحمل أصعب المشاق في سبيل تحقيق الهدف بجمع المعلومات عن العدو ، وإما أن يكون بدافع الطمع والجشع وحب الذات وحباً بجمع المادة وأخذ الأجرة . وإما أن يكون إرضاء لدافع نفسي نتيجة لمرض معين[١٠] .

يمكن أن يصبح الفرد جاسوساً نتيجة لظروف معينة يقول أحمد هاني : « ويصبح الرجال والنساء جواسيس عن طريق مؤثرات متنوعة ، فالبعض يتطوعون في هذه الخدمة حباً في المغامرة ، أو لأنهم يرون فيها عملاً مثيراً ساحراً ، وآخرون من أجل الطمع والكسب الشخصي ، وغيرهم يرغمون على العمل تحت ضغط ظروف مختلفة يضعهم فيها من يريد استخدامهم . وهناك آخرون يقبلون على هذا العمل كمواطنين يرغبون في مساعدة دولتهم بأفضل وسيلة يستطيعونها ، وأحياناً ما تكون هذه العوامل مزيجاً من اثنين أو أكثر من هذه المؤثرات »[١١] .

ويمكن السيطرة على عقول كثير من الناس الذين يقبض عليهم للتحقيق فيصبحون جواسيس بواسطة « غسيل المخ » بهدف تنمية الطاعة والإخلاص لجهة معينة ، وتحطيم

---

(٨) الدوافع النفسية / د . مصطفى فهمي ص ٨٧ ، الحرب النفسية صلاح نصر ١ / ٧٩ .

(٩) الجاسوسية بين الوقايةوالعلاج / أحمد هاني ص ٧٣ .

(١٠) الدوافع النفسية / د . مصطفى فهمي ص ١٤٢ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ سنة ١٩٦٥ ص ٦٥ .

(١١) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٣ .

لأنه لأي فرد أو جماعة أخرى ، ويكون بعزل الشخص عن الحياة العامة بالزنازن بعيداً عن كل معارفه القدامى ، وعن المعلومات وكل الصور الحياتية العادية ، وبتطبيق أساليب الضغط النفسي والمعاملة بالحرمان خاصة ما يتعلق بالغذاء حتى يصل الشخص إلى درجة الانهيار والإعياء فيكون عقله قابلاً لتقبل أي توجيه بعد اتخاذ العنف والضرب والتهديد بالموت ، والإذلال واستعمال الضغوط النفسية أثناء التحقيق كالاستجواب لمدة طويلة ، ومن ثم التوجيه بإعطاء الدروس ، والمحاضرات حتى يصبح الشخص أسير من يوجهه بكل طاعة ورغبة في تنفيذ ما يوكل إليه من مهام[١٢] . والمعروف أن هذا الأسلوب يمنعه الإسلام ولا يقره .

كما أن هناك اختبارات لكشف الكذب في العصر الحديث ، يخضع لها الجاسوس وقد يخضع لها كبار القادة .

فقد نشرت (نيويورك تايمز) ونقلتها صحيفة الدستور الأردنية أن اختبارات لكشف الكذب أجريت على (٢٥) من كبار مسؤولي وزارة الدفاع الأمريكية في محاولة لتحديد الشخص الذي سرّب تفاصيل اجتماع عُقد للبحث عن الإنفاق الدفاعي .

فقد أكد مسؤولون في (البنتاغون) أن نائب وزير الدفاع [فرانك كارلوتشي] أمر بإجراء هذه الاختبارات ، وأنه هو أول من تعرض لهذا الفحص ، هو وعدد من كبار المسؤولين الأمريكيين[١٣] .

ولزيادة نشاط الجاسوس يضع القادة حوافز مادية أو معنوية لتدفع به إلى الزيادة من نشاطه وإنتاجه كجاسوس ، وتزيد هذه الحوافز من تمكنه من التغلب على المعوقات التي تعترضه فيستطيع تأدية عمله بمستوى أعلى . ولذلك يمكن تفسير سلوك الجاسوس على ضوء العوامل الداخلية المتمثلة في الدوافع ، وإلى العوامل والظروف الخارجية المتداخلة[١٤] .

---

(١٢) الحرب النفسية / صلاح نصر ٢ / ٢٩ ـ ٣٩ .

(١٣) الدستور العدد ٥١٩١ ـ تاريخ ٢٥ / ١ / ١٩٨٢ ٣٠ ربيع أول ١٤٠٢ هـ .

(١٤) الدوافع النفسية ص ٢٤٧ ـ ٢٤٨ .

ومن هنا نجد أن الدول تنفق أموالاً طائلة على الجواسيس ، وفاء بحقهم وتقديراً لجهودهم التي يقدمونها ، وخير الحوافز التي تقدم هي أن يشعر الجاسوس أنه يعمل لهدف سام ، وأن تكون نتيجته التي يؤول إليها مرضية ، وخير النتائج ما وضعه الله سبحانه وتعالى للمجاهدين المسلمين الأمر الذي يدفعهم للتضحية باطمئنان تام ومعرفة للنتيجة التي تنتظرهم وهي الجنة .

فالجاسوس الذي يتجسس لوطنه على العدو ، إن كان مسلماً ولم يخالف بعمله توجيهات الشريعة الإسلامية فهو : مجاهد في سبيل الله تعالى ، إذا كانت نيته خالصة لله تعالى فقد قال الرسول ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه[(١٥)] .

وقد صور لنا رسول الله ﷺ نفسية المجاهد وهدفه وكيف يختلف من شخص إلى آخر حسب نيته عندما جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال له : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[(١٦)] .

فالجاسوس لابد وأن يتصف بالشجاعة لخطورة العمل الذي يقوم به ونتائجه ، حيث أنه يعرض نفسه للتعذيب أو القتل ، ويتصف كذلك بالمغامرة ، والقدرة على التستر والتخفي والتمثيل ، بحيث يلبس لكل حالة لبوسها ، ولكل وضع بما يتناسب معه من الانفعالات المصاحبة . كما لابد وأن يتصف بالصبر حيث أن نتيجة هذا العمل التعذيب ، ولابد أن يكون مستعداً للتضحية نظراً لتعرضه للمخاطر الشديدة بدمه وروحه[(١٧)] . وهذا ما سنتعرض له بالتفصيل في ذكر الشروط التي يجب توافرها في الجاسوس في المطلب الثاني من هذا المبحث .

---

(١٥) ابن ماجه ٢ / ١٤١٣ حديث رقم ٤٢٢٧ ، أبو داوود ١ / ٥١٠ صحيح مسلم ٣ / ١٥١٦ كتاب الإجارة ورد بلفظ (بالنية) نيل الأوطار ١ / ١٩٩ .

(١٦) البخاري بشرح فتح الباري ٦ / ٢٨ .

(١٧) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٣ ، ٧٤ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ سنة ١٩٦٥ . الملحق العسكري ص ١٨ .

المطلب الثاني : في الشروط التي يجب توافرها في الجاسوس الناجح :

لتحقيق أي هدف لابد من التخطيط والتنسيق لهذا الهدف بما يحققه من إعداد العدة والاهتمام بالوسائل وتنظيمها ، وتنسيق العمل بحيث يكون متكاملاً . وتقسيم هذا العمل وتوزيعه بين المشاركين حسب قدراتهم ومستوياتهم ، ويكون بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب وذلك من أجل تحقيق الأهداف بأقل التكاليف وأقصر الطرق[١٨] .

وإن خير الطرق لتحقيق الهدف عند توزيع المسئوليات يكون في المواءمة بين متطلبات العمل وبين قدرات الأفراد المشاركين في هذا العمل ، فإن الفرد الذي يقوم بالعمل الذي يتناسب وقدراته واستعداداته وميوله يمكن أن يؤديه بنجاح وهو ما يعرف بالصحة النفسية ، وقد يفشل ويتخبط إذا لم يكن ذلك متفقاً مع رغباته وميوله وعندها لا يستطيع القيام به ، فالتوافق بين الفرد والعمل على أساس من الرغبة والاستعداد يوفر للفرد فرص النجاح في ميدان عمله ، ويؤثر على نفسيته ، فيعمل برغبة ، ولذا عند توزيع العمل يجب مراعاة الفروق الفردية وأن تعطى الأعمال الصعبة لمن يستطيع القيام بها من ذوي القدرات والكفاءات ، وتعطى الأعمال السهلة لمن هو أقل قدرة على تحمل الأعمال الصعبة[١٩] .

وفي علم النفس : « إن استمتاع الأفراد بقدر من النجاح والكفاية في مناشط حياتهم العادية يزودهم بنوع من الثقة والطمأنينة عندما يفكرون في أمر مستقبلهم ، ولذا كان من الضروري أن يتسنى لكل فرد أن يتذوق طعم النجاح والتقدير في نوع واحد من النشاط على الأقل فهي جميعاً تفيد في تنمية الثقة بالنفس والقدرة على تحمل المسئولية »[٢٠] .

وعند تسخير طاقات الأمة لصالح الدعوة الإسلامية يعمل كل فرد بما يتناسب

---

(١٨) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية / ص ١١٠ .

(١٩) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية / ص ١٠٦ ـ ١١١ .

(٢٠) التكيف النفسي ص ٧٤ .

وقدراته ؛ فإن المسئولية يتحملها جميع الأفراد بالنتيجة ، فيؤدي كل فرد دوره فيها مع بقاء القيادة قوية في تحملها للمسئولية . وبعكس ذلك عندما لا يحس أفراد الأمة بالرعاية والملاحظة التامة ولا يكلفون بمهات يستطيعون القيام بها فإنهم يشعرون بالفتور الأمر الذي يعطل سير الأمور ويوجد عدم الثقة عند المشاركين[٢١] .

وبما أن عمل الجاسوس من أشق الأعمال وأصعبها فلابد أن تتوافر فيمن يقوم به شروط معينة ، لكي يستطيع تحمل هذه المسئولية الخطرة ويؤديها بنجاح .

ونستطيع أن نجمل هذه الشروط فيما يلي :

أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا ينتفع بخبره ، وإن كان صادقاً ، لأنه ربما أخبر بالصدق فاتهم فيه ، فتفوت المصلحة ، بل ربما آثر الضرر لمن هو عين له ؛ إذ المتهم في الحقيقة عين علينا لاعيناً لنا . وكيف يكون المتهم أميناً لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأحوال من القضايا العظيمة إن سلمت نفسيات الأمور[٢٢] .

وبهذا يوصي الخليفة عمر بن الخطاب بضرورة توافر هذه الصفة في الجواسيس برسالته إلى سعد بن أبي وقاص : « إذا وطئت أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه ، وصدقه ، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك وليس عيناً لك »[٢٣] .

وفي مختصر سياسة الحروب : « لتكن عيونك وجواسيسك ممن تثق بصدقه ونصيحته ، فإن الظنين لا ينفعك خبره وإن كان صادقاً ، والمتهم عين عليك لا لك ، ذكروا عن بعض أهل التجربة في الحرب : أنه كان يستدعي صدق الجواسيس بأن يعطي من أتاه بما يكره أكثر ممن يأتيه منهم بما يحب »[٢٤] .

ومن سياسة الحرب يقول الشاعر أبو بكر الصيرفي الأندلسي فيما ينقله ابن

---

(٢١) الرسول ﷺ / سعيد حوى ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

(٢٢) انظر صبح الأعشى ١ / ١٢٣ .

(٢٣) تاريخ الإسلام السياسي / حسن إبراهيم حسن ١ / ٤٨١ .

(٢٤) مختصر سياسة الحروب للهرثمي / ص ٢٤ ـ ٢٥ .

خلدون[٢٥] .

واجعل من الطلائع أهل شهامة   للصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا تسمع الكذاب جاءك مرجفاً   لا رأي للكذاب فيما يصنع

ومنها : « أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدل بما هو فيه ببعض الأمور على بعض ، فإذا تفرس في قضية ، ولاح له أمر آخر يعضدها قوّى بحثه فيها بانضمام بعض القرائن إلى بعض »[٢٦] .

ومنها فراسة حذيفة بن اليمان وقد بعثه رسول الله ﷺ عيناً إلى المشركين فجلس بينهم . « فقال أبو سفيان : لينظر كل منكم جليسه ، فبادر حذيفة وقال لجليسه ، من أنت ؟ قال فلان بن فلان »[٢٧] .

وإن الذكاء صفة ملازمة للجاسوس بالإضافة إلى الحدس والقدرة على ضم القضايا بعضها إلى بعض والخروج بنتيجة هي مناط عمله ولذلك فإن ضرر الجاسوس الغبي أكثر من نفعه وقد يكون الجاسوس الغبي وبالاً على من يعمل معه حيث يسهل الإيقاع به[٢٨] .

وكذلك يجب أن تتوافر في الجاسوس القدرة على الملاحظة في نظرته إلى الأشخاص ، والأشياء ، مع القدرة على التعبير عنها نطقاً وكتابة بوضوح ، وهذا يتطلب منه أن يكون ذا ذاكرة تعي الأرقام وتختزن الحقائق والمعلومات ، فالقدرة على الملاحظة الدقيقة ضرورية للجاسوس كما أن الدقة في حفظ الضروري من المعلومات في الذاكرة له أهمية عظيمة ، فلكي يأخذ الجاسوس المعلومات فإنه : يسمع أولاً ثم يحفظ ثم يؤديها لفظاً بإرسالها لمصدرها أو أن يدونها ، وهذا كله يتطلب مراناً ذهنياً ممتازاً[٢٩] .

---

(٢٥) مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٦ دار القلم .

(٢٦) صبح الأعشى ١ / ١٢٣ .

(٢٧) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية / ابن قيم الجوزية ص ٣٧ .

(٢٨) المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ سنة ١٩٦٥ ص ٦٥ .

(٢٩) الملحق العسكري ص ٧٤ .

ومنها : « أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ليتوصل بدهائه إلى كل موصل ، ويدخل بحيلته إلى كل مدخل ، ويدرك مقصده من أي طريق أمكنه ، فإنه متى كان قاصراً في هذا الباب أوشك أن يقع ويظفر العدو به ، أو يعود صفر اليدين في طلبته »[٣٠] .

وهذا يتطلب منه القدرة على إظهار الود للناس والإخلاص لهم مع بقائه موالياً لبلاده ، وكلما أظهر الود للعدو كلما تيسرت مهمته وحصل على بغيته ، ولذا يجب أن يكون ذا شخصية جذابة قابلة للتطبع والتكيف في كل الظروف وأن يتميز باللطف في المعاشرة وحسن المخالطة مع الاتزان والفطنة النافذة والبداهة الموفقة[٣١] .

فمن الضروري أن يتصف الجاسوس بالقدرة على التمثيل والتلون والتخفي ، بحيث يأخذ ما يريده دون أن يراه أحد ، وهو مضطر أن يلبس حالات مختلفة وانفعالات معينة مصاحبة لهذه الحالات ، وعليه أن يتصف بكل حالة بما يتلاءم معها من انفعالات أو عواطف ، الأمر الذي يحتم أن يكون عنده القدرة على التخفي والتمثيل ، فمن ليست لديه القدرة على التخفي والتمثيل فإنه جاسوس فاشل .

وفي كتاب الجاسوسية بين الوقاية والعلاج : « والجاسوس لا يحتاج فقط لوسيلة اختفاء متجددة ، بل يحتاج إلى مهارة ليلعب دور الشخصية التي يختارها لاختفائه فمن الضروري أن يكون ممثلاً ماهراً ، وعلى الأخص أن يكون سريع التحول من حال إلى حال ، قادراً على أن يواجه في ثبات واتزان أخطر المواقف وأعقدها »[٣٢] .

فلو لاحظنا كيف استطاع نعيم بن مسعود أن يكتم انفعالاته دون أن يبدي أي قلق أثناء مهمته التي قام بها في الإيقاع بين القبائل من قريش وغطفان ويهود بني قريظة ، بحيث خذلهم جميعاً ، وكان يلبس لكل حالة لبوسها من الانفعالات المصاحبة بحيث لايظهر في كل حالة إلا الاهتمام لمصلحة القوم ، فمرة يبدي اهتمامه وغيرته على مصلحة

---

(٣٠) صبح الأعشى ١ / ١٢٣ .

(٣١) الملحق العسكري ص ٧١ ، المجله العسكرية الأردنية عدد ٤٣ لسنة ١٩٦٥ .

(٣٢) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج / ص ٧٦ .

اليهود ، ومرة يبدي حرصه على مصلحة قريش ، دون أن تظهر عليه أيه علامة تخالف ما يقوله ، وهكذا نجح نعيم بن مسعود في الإيقاع بينهم .

وكثير من الدول تلحق رجلاً عسكرياً في منصب السفير أو إلحاق ضباط عسكريين ضمن موظفي السفارة باعتبارهم دبلوماسيين في درجات صغيرة عليهم أن يبذلوا الجهد الكبير لكي يخفوا حقيقة أمرهم ، ومرمى عملهم الذي أساسه الحصول على الأخبار العسكرية التي يحتاجون لجمعها[٣٣] .

ومن التخفي والتستر بصور شتى ما فعلته الجاسوسة الحسناء التي كانت تعمل كمتسولة على شواطىء قبرص حيث عرفت « عبد الله بن قيس » الذي خرج طليعة للمسلمين فسألته الصدقة فأعطاها فرجعت ودلت عليه وقالت : إن عبد الله بن قيس في الميناء ولم تكن تعرفه ، ولما قيل لها : بأي شيء عرفتيه قالت : كان كالتاجر فلما سألته أعطاني كالملك فعرفته بهذا[٣٤] .

ومن صفات الجاسوس الشجاعة والإخلاص والوفاء والطاعة ، حيث أن عمل الجاسوس فيه المخاطرة الشديدة والمجازفة بالنفس ، وهذا يتطلب ممن يقوم بهذا العمل أن يتصف بالشجاعة المعنوية والمادية . فقد تحدث له حالات يجازف فيها بمحبة الناس ، أو يجازف بحياته في سبيل بلاده . وأن يتصف بالشعور السامي بأداء الواجب بكل اخلاص وأمانة ووفاء وأن يكون عنده الإحساس بالتضحية في سبيل الغاية التي يعمل من أجلها ، وتنفيذ ما أمره به قائده[٣٥] .

وقد ظهرت شجاعة حذيفة بن اليمان المعنوية والمادية وظهرت طاعته لرسول الله ﷺ ووفاؤه له ، عندما دخل في العدو في الوقت الذي بلغت فيه القلوب الحناجر من الخوف في غزوة الأحزاب ومع ذلك دخل بهدوء كامل واستطاع أن يكتم انفعالاته فظهرت شجاعته وطاعته للرسول الكريم عندما رأى أبا سفيان يصلي ظهره بالنار وكان

---

(٣٣) الملحق العسكري / أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي ص ٢٣ .

(٣٤) اشتراكية عثمان / محمود شلبي ص ١٦٤ ـ دار الجيل الطبعة الثانية ١٩٧٤ .

(٣٥) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٤ ، الملحق العسكري أميرالاي أركان حرب أحمد شوقي ص ٧٥ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ لسنة ١٩٦٥ .

باستطاعته أن يرميه ، حيث جهز السهم في كبد القوس وأعده للانطلاق ولكنه تذكر ضرورة الوفاء لوصية الرسول ﷺ بقوله له : « ولا تذعرهم علي »[٣٦] . يقول أحمد هاني : « والجاسوس الناجح ليس من يجيد التنكر بل هو الذي لا يحتاج إلى التنكر وهو رجل حرفة أكثر منه رجلاً ذكياً وأكثر تحملاً للمشاق منه رجلاً جريئاً »[٣٧] .

وفي صبح الأعشى من صفات الجاسوس أيضاً : « أن يكون له دربة بالأسفار ، ومعرفة بالبلاد التي يتوجه إليها ، فربما كان في السؤال تنبه له ، وتيقظ لأمره ، فيكون ذلك سبباً لهلاكه ، بل ربما وقع في العقوبة وسئل عن حال ملكه فدل عليه ، وكان عيناً عليه لا له »[٣٨] .

ومعرفة الطرق والمداخل ضرورية للجاسوس وللدليل لأنه لا يعقل أن يسأل عن الطريق فيعرف أنه غريب ، وعندما يُتَنَبَّهُ له ، فيقع في قبضة العدو وهو لا يدري[٣٩] .

وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يختار الأدلاء والجواسيس من أهل البلاد ومن القبائل التي لها خبرة بالمناطق ، واعتادوا زيارة مناطق العدو في الجاهلية ، وقد استعمل الرسول ﷺ في هجرته دليلاً له معرفة بالطرق ، كما استعمل في غزوة خيبر : « حسيل ابن خارجة ، وعبد الله بن نعيم » وكلاهما من قبيلة أشجع النجدية التي يرتاد رجالها دائماً في الجاهلية منطقة خيبر »[٤٠] .

وها هو ذا « عبد الله بن أنيس » بعثه الرسول ﷺ لاستطلاع أخبار هذيل وبني اللحيان من قبائل الحجاز وكان يعرف تلك القبائل لمجاورتها ديار قومه « جهينة »[٤١] .

ومن الصفات التي يجب أن تتوافر في الجاسوس أيضاً كما يقول صاحب صبح

---

(٣٦) مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٤٦ ، سيرة ابن هشام ٣ / ٢٤٣ .
البخاري بشرح عمدة القاري ١٤ / ١٤٢ .

(٣٧) الجاسوسية بين والوقاية والعلاج ص ٧٨ .

(٣٨) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

(٣٩) كشف القناع عن متن الإقناع للبهوتي ٣ / ٦٥ مكتبة النصر الحديثة / الرياض .

(٤٠) غزوة خيبر / ص ١١١ .

(٤١) غزوة الأحزاب ص ٣٠ .

الأعشى : « أن يكون عارفاً بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها ليلتقط ما يقع من الكلام فيما ذهب بسببه ممن يخالطه من أهل تلك المملكة وسكان البلاد العالمين بأخبارها ، ولا يكون ممن يهتم بحالات أهل ذلك اللسان من حيث أن الغالب على أهل لسان كل بلد الجنس والجنسية علة الضم »[٤٢] .

وإذا لم يكن للجاسوس إلمام باللغات الأجنبية بحيث يتقن لغة البلد الأجنبي الذي يعمل بأرضه ، فلن يحالفه التوفيق في النهوض بواجباته إلا بقدر محدود . فعليه أن لا يدخر جهداً ولا وقتاً حتى يتعلم لغة البلاد التي يعمل بها بطلاقة تامة ، وأن تمتد معرفته إلى اللغة واللهجة العامية ومصطلحاتها .

فإذا ما تكلم اللغة الأجنبية بطلاقة وفي غير تهيب من التورط في الأخطاء ، أو اللحن في اللغة حتى لا يظهر أمره ويكشف سره ، وغالباً ما يكون تعلمه للغة الأجنبية في بلاده قبل أن يكلف بتنفيذ المهمة التي توكل إليه ، كما حصل مع « كوهين » الجاسوس الإسرائيلي في سوريا وعشرات بل مئات يجري تدريبهم في إسرائيل ويتم توزيعهم على العالم لخدمة مصالح الصهيونية والسياسة الإسرائيلية[٤٣] .

كما أن من صفاته : أن يكون صبوراً على ما قد يقع له من عقوبة دون أن يفضي بشيء من أخبار قومه ، وأن التعذيب الذي قد يصادفه يجب أن لا يجعله ييأس فيقر ، فإن الإقرار عند العدو لا يخلص الجاسوس من المسئولية بل عليه أن ينكر أنه جاسوس أصلاً ، والاقرار لا يخفف من العقوبة[٤٤] .

وعلى الجاسوس أن يكون متحفزاً للعمل المضني أحياناً ولو كلفه ذلك السهر طوال الليل ، وعليه أن يعلم أن يد المساعدة لا تمد له ، وقد تتنكر الحكومة لجواسيسها بعد القبض عليهم وإن كانت تعمل لمساعدتهم في الخفاء[٤٥] .

---

(٤٢) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

(٤٣) جاسوس من إسرائيل / إيل كوهين ص ١٥ الطبعة الثانية ١٩٦٨ انظر كتاب الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة تعريب غسان نوفلي ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢ .

(٤٤) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

(٤٥) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٤ ، ٧٥ .

ومن صفاته السرعة في إنجاز المهمة التي توكل إليه وإيصال المعلومات في وقتها دون تأخير وذلك لأهمية الوقت الذي تصل فيه المعلومات يقول الأميرالاي أركان حرب أحمد شوقي : «ولاشك أن المعلومات تظل لا جدوى فيها ولا قيمة لها ما لم تصل في وقتها الملائم للانتفاع بها »[٤٦] .

ولهذا يجب أن يتصف الجاسوس بالسرعة في توصيل المعلومات والخفة في الحركة : وتقدير الموقف ، كما يحتاج إلى مهارة خاصة .

لقد عمد « مونتجومري » في معاركه بشمال أفريقيا إلى أن ينشىء شبكة متصلة الحلقات لمراكز التبليغ تجمع الأنباء من المواقع الأمامية ، ويرسل من ذوي الدراية والخبرة من قواده لموافاته بما يجري من الأحداث وقت حصولها . وعلى الرغم من التقدم العلمي ومخترعات العصر الآلية فإنه لم يتغلب بعد على صعوبة وصول الأخبار إلى الميدان بالسرعة المطلوبة[٤٧] .

ولاشك أن الجاسوس يجب أن يعرف ويلم بمختلف المعارف والرياضات كأن يعرف كيف يقود سيارة أو يمتطي جواداً ، أو يكتب على الآلة الكاتبة ، فيكون نجاحه أكثر يسراً حيث إن المناسبات تضطره إلى أن يمتطي جواداً أو يركب دراجة فالجاسوس رجل فن وحرفة ورجل ذكي يتقن مختلف الرياضات ويقود مختلف السيارات[٤٨] .

فيجب أن تتوفر في الجاسوس صفات خاصة كي يستطيع أن يقوم بتنفيذ مهمته على خير وجه ، ويكون خبره مقبولاً فيؤدي نتيجة مقبولة تفيد الأمة ، وعماد هذه الصفات الصدق والأمانة والإخلاص والشجاعة كي يستطيع مواجهة المواقف والأمور الصعبة .

والإخلاص هو الذي يدفع المرء بأن يضحي بنفسه في سبيل الله فيدخل الأهوال ويتجشم الأخطار ، فالإيمان يذكي بنفسه الحماس لتحقيق مطلبه ، كما أن الخبرة من أهم ما يجب أن يتصف به الجاسوس ليدخل هذه المداخل الصعبة سواء أكانت الخبرة بالطريق أو

---

(٤٦) الملحق العسكري ص ٢٩ .

(٤٧) الملحق العسكري ص ٢٩ .

(٤٨) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٨ ، الملحق العسكري ص ٧١ .

بإتقـان السلاح واستعمال الآلات وركوب الخيل والسبـاحـة ومختلف الريـاضـات التي قـد يحتاجها ، كما يحتاج إلى معرفة الطريق .

ثم إن الفطانة والحذر والقدرة على التكتم والتستر والشجاعة والإقـدام من أهم صفـات الجاسوس . وعندما وقع اختيار الرسول ﷺ على « حـذيفـة بن اليمان » ليـدخل في القوم ويأتيه بخبرهم ما كان اختياره له إلا لمعرفته بصفاته ومدى صـدقـه ، وإخلاصـه ، كما كان حذيفة يتمتع بمزايا الكتمان الشديد ، ولذا لا يرتبك في المواقف الصعبة ، كما يتمتع بـالصبر على كتم انفعالاته ، ولذا كان ملائماً للمهمة التي وكلت إليه .



المبحث الثاني

في إعداد الجاسوس

المطلب الأول : في تدريب الجاسوس :

يحتاج الجندي في ميدان القتال إلى تدريبات عدة على مختلف أنواع الأسلحة المستعملة في الحرب ، والجاسوس يحتاج إلى جانب هذه التدريبات بعض التدريبات الإضافية على مختلف الأجهزة المستعملة في التجسس ، وتتطور هذه التدريبات بتطور الزمن . وقد تكون على أحدث أجهزة المخابرات الإلكترونية ، فإن الحروب تتطور دائماً وتزداد تبعاً لذلك ضرورة استعمال الأجهزة المتقدمة في التجسس[١] .

كما يفهم من خلال دراسة بعض الجواسيس أن الجاسوس يُدرب على أن يفهم طبيعة الناس والمجتمعات ، حتى يفهم كيف يتعامل معهم . كما يفهم كيف يتعامل مع من يعرفهم ومع المسئولين والقادة كما يدرب المسئول عن الجاسوس تدريبات عدة ليعرف كيف يتعامل مع من يليه من الأفراد ، وكيف يؤثر في سلوكهم وكيف يستطيع كسبهم والتأثير عليهم[٢] .

وتجتهد منظمات الجاسوسية أن تقدر في البداية لأفرادها كل ما يمكن أن يواجه الجاسوس أثناء تأديته لمهمته ، ويدرب بكيفية مواجهة الأمور والمواقف المختلفة التي تمر به ، فإذا أحس الخوف كيف يتصرف حيال ذلك ؟ كما تقترح عليه وسائل أخرى تمكنه من النجاة إذا ما تصيدته أجهزة الدولة المعادية ، وتعد له في البداية مما يقلل من فرص تعرضه للخطر وإلقاء القبض عليه ، وتوجهه كيف يتصرف إذا شعر بالقلق أو عدم الاطمئنان ، وتحمّل الغيظ والحقد ، وكتم الانفعالات[٣] .

---

(١) المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ لسنة ١٩٦٥ ، الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٢٧٠ ، ٢٧٩ ـ ٢٨٤ ، الأهرام الجمعة ٢٥ يوليو ١٩٧٥ جريدة الدستور عدد ٤١٦٧ ١٤ / ٣ / ١٩٧٩ م .

(٢) انظر كتاب جاسوس من إسرائيل / إيل كوهين الطبعة الثانية ١٩٦٨ (وكيف استطاع أن يصل إلى أعلى المناصب وما كان له هذا لولا معرفته بطبيعة الشعب السوري) .

(٣) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٤ .

ولابد أن يُمرن الجاسوس على التكيف الفعلي أثناء مواجهة المشكلات وأن يتفهم عقلية الغوغاء والدهماء ويعرف مؤثرات الفزع التي تؤثر في الجماهير خاصة ما يتعلق بأسلوب معاملة الجماهير ، وطريقة تحريكهم وإثارتهم[٤] .

كما يدرب الجاسوس حالياً على أنماط سلوكية معينة تجعل منه في صورة وطني محب للعدو ، وفي هذا جهد كبير ومشقة في كتم الانفعالات والتحكم بالمشاعر ، ومن خلال التدريبات المختلفة تلتقط القيادة نوعيات من الجواسيس تصلح لمواقف معينة فلا تبعث لموقف فيه مشقة ورعب إلا من هو أهل لهذا الموقف ، وقدرات الأفراد عادة تكتشف بالاختبارات والمقابلات ، والتسجيلات لأعمالهم السابقة ، ثم يصنف الأفراد تبعاً لقدراتهم ، ويتطلب هذا الأمر إنشاء معاهد خاصة للتدريب[٥] .

ويقول أحمد هاني : « ويعتبر الجواسيس من ناحية عامة كالآلات تتطلب الكثير من النفقات كما تحتاج الوقت الطويل للانتفاع منها ، ويعلم الجواسيس تماماً أنهم يعتبرون حتى بواسطة المنظمات التي يعملون لها كمنبوذين ومجرمين[٦] .

كما يوجه الجواسيس إلى ضرورة العمل بإخلاص وصبر دون انتظار الأجرة أو الشكر من المسئولين . وقد لا تقدم الدولة لهم أية مساعدة ، ولذا فإن عليهم الاعتماد على أنفسهم والتصرف بما يحقق نجاتهم وتحقيق الغاية التي أُرسلوا من أجلها[٧] .

ويقول رئيس مكافحة الجاسوسية في بريطانيا في العشرينات فيما ينقله أحمد هاني :

« إن جزءاً كبيراً من تدريب الجاسوس يتجه إلى تعليمه كيفية الاختفاء والتنكر والمنظمة التي يتبعها تمده بأوراق صحيحة ومقبولة وبماض لا غبار عليه يختفي وراءه وهو يعرف كيف يعمل بحذر وأناة مع السرعة وانتهاز الفرص تبعاً لمهارته الفذة »[٨] .

---

(٤) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٩١ ، ١٠٠ . الحرب النفسية / صلاح نصر ١ / ١٢٢ .

(٥) الحرب النفسية / صلاح نصر ١ / ١٢١ ـ ١٢٤ .

(٦) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٤ .

(٧) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٤ ـ ٧٥ .

(٨) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٢٥٠ .

وحتى يتم عمل الجاسوس بكفاية تامة فإنه يجب وضع الرجل المناسب في المكان المناسب مع الاستفادة من الخبرات السابقة وسجل حياة الأفراد بحيث تستغل طاقات الأفراد لتحقيق الأهداف بأيسر وأقل التكاليف ، مع ضرورة إعطاء الفرص للإبداع وتحقيق الفرد لذاته لرفع مستوى الأداء ، وإعطاء الأعمال بما يتناسب مع ميول الأفراد ورغباتهم[٩] .

ويدرب الجاسوس قبل تكليفه بالعمل تدريبات عدة كأن يأخذ تمرينات ووصايا مختلفة وصلت في تقدمها إلى تمرينات خاصة بالذاكرة بتدريب الجاسوس على حفظ الأماكن والأسماء والوجوه وغيرها .

وهناك تمرينات التمييز يتدرب فيها على تمييز الوجوه والظروف والملابسات ، والوثائق والأحوال وغيرها .

كما يدرب الجاسوس على كيفية بث الإشاعات ونشر الأراجيف ، وأخذ الأخبار ومعرفة الأسرار الخاصة بالعدو وقواته .. وقوته المعنوية ويعرف كذلك بمستويات الجماهير ، وبالطرق والوسائل التي بها يحدث الفزع بين الناس وفي صفوف جنود الاحتياط من أفراد الجيش[١٠] .

ومن هنا يذكر الهرثمي في مختصر سياسة الحروب :

« قالوا أحكم أمر جواسيسك فإنه رأس أمر الحرب وتدبير مكايدة العدو »[١١] .

وقد يكون التدريب على التخفي والتستر بحيث لا يعرف الجواسيس إلى العسكر أو لا يعرفون بعضهم بعضاً ، كما يعرف الجواسيس بأسلوب معاملة الناس وإظهار الحيل في مواجهة الأحداث .

وإن أهم الأهداف والمقاصد من إعداد الجواسيس والمحافظة عليهم ما جاء برسالة عبد الحميد الكاتب إلى أحد قواد مروان بن الحكم يقول فيها :

---

(٩) الحرب النفسية صلاح نصر ١ / ١٢٤ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١١٢ .

(١٠) الحرب النفسية صلاح نصر ١ / ١٢١ ـ ١٢٤ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية ص ١١٢ ـ ١١٣ .

(١١) مختصر سياسة الحروب ص ٢٣ .

« فاحـذر أن يشهر رجل من جواسيسـك في عسكرك فيبلغ ذلـك عـدوك ، ويعرف موضعه فيعد له المراصد ويحتال له بـالمكايـد ، فـإن ظفر بـه فـأظهر عقوبتـه كسر ذلـك ثقـات عيونـك ، وخـذلهم عن تطلب الأخبـار من معـادنهـا ، واستقصـائهـا من عيونهـا . واستعذاب اجتنائها من ينـابيعها حتى يصيروا إلى أخـذهـا مما عرض من غير الثقـة ولا المعاينة لقطاً لها بالأخبار الكاذبة والأحاديث المرجفة »[١٢] .

وقـد يخصص المسئول وقتـاً لملاقـات الجـواسيس وإعطـاء الأوامر لهم وتـوجيههم وقـد ينسب بعض خـاصتـه لمثل هـذا العمل : يقول الهرثمي : « إن لم يمكنـك التفرد بمعـاملـة جواسيسك في ستر ، فليكن لكل واحد منهم رجل من أوثق خاصتك ومعاملتك عنـده ، يتولى إيصاله إليك ، ولا يعلم بعضهم ببعض »[١٣] .

وهذا أبو العباس السفـاح يوصي بعض خـاصتـه بكيفيـة أخـذ الأسرار والطريقـة إلى ذلـك بحيث لا يكتشف أمره ويحصل على معلومـات دقيقـة وكان أعـداؤه من بني الحسن « يقول » :

« قم بإنزالهم ولا تـألو في إلطافهم ، وأظهر الميل إليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنـا ، وإنهم أحق بـالأمر منـا ، كلما خلوت بهم ، وأحص لي مـا يقولون ومـا يكـون منهم في مسيرهم ومقدمهم »[١٤] .

ويمكن أن يوجه الجاسوس لمعرفة حال معينـة للعـدو كمعرفـة قوتـه المعنويـة أو عـدد أفراده أو حـالتـه الاقتصـاديـة أو مصـادر أسلحتـه يقـول عبـد الحميـد الكاتب : « ثم أذك عيـونـك على عـدوك متطلعـاً لعلم أحـوالهم التي يتقلبـون فيهـا ومنـازلهم التي هم بهـا ، ومطامعهم التي قدموا أعناقهم نحوها . والأمور التي أدعى لهم إلى الصلح وأقودهـا لرضـاهم إلى العاقبة وأسهلها لاستنزال طاعتهم ومن أي الوجوه مأتاهم »[١٥] .

---

(١٢) صبح الأعشى ١٠ / ٢١٥ .

(١٣) مختصر سياسة الحروب للهرثمي ص ٢٥ .

(١٤) عصر المأمون د . أحمد فريد رفاعي ، الطبعة الثالثة ١٩٢٨ .

(١٥) صبح الأعشى ١٠ / ٢١٢ .

يقول عبد الحميد الكاتب في رسالته فيما يتعلق بتعهد الجواسيس : « فأحكم أمرهم ، فإنهم رأس مكيدتك ، وقوام تدبيرك وعليهم مدار حربك ، وهو أول ظفرك ، فاعمل على حسب ذلك ، وحيث رجاؤك به تنل أملك من عدوك وقوتك على قتاله ، واحتيالك لإصابة غراته وانتهاز فرصة إن شاء الله »[١٦] .

وقد بين صاحب كتاب صبح الأعشى أن المسئول عن توجيه الجواسيس وتعهدهم والنظر في أمورهم هو صاحب ديوان « الإنشاء » حيث كان أمرهم إليه أيام المماليك ، ويذكر أن تعهدهم وعملهم وسياستهم من أعظم الأمور في المملكة وعمادها ، وإلى ديوان الإنشاء أمرهم وتدريبهم وتصريف شئونهم ، وعلى صاحب ديوان الإنشاء الاهتمام بهم ورعايتهم لعظيم أمرهم وصعوبته وأهمية الأخبار التي يأتون بها وما يترتب على ذلك من تصريف الشئون ووضع الخطط لمقاومة ما يريده العدو من مكيدة المسلمين ، وإن الجاسوس الصادق الأمين يعتمد عليه في تصريف شئون البلاد ، وحيث إن الجاسوس يتوجه إلى العدو فإنه من الضروري أن يحسن اختياره وتعهده بالتربية والتوجيه ، والتدريب على كل الوسائل المتوفرة لإنجاح مهمته[١٧] .

إن تدريب الجاسوس ضروري حيث إن إعداد العدة المادية والمعنوية لكل الجنود أمر ضروري أيضاً ، والجاسوس لابد له حتى يؤدي مهمته بنجاح أن يدرب على كل الوسائل التي يستعملها لنجاحه وأن هذه الأساليب تتقدم بتقدم الأمم وبتقدم وسائل التجسس واختراع الآلات الدقيقة والألكترونية ، إضافة إلى التمرينات الخاصة بنفسية الشعوب وطريقة الدخول في الجماهير والتأثير فيهم كما يدرب على طريقة استنتاج هذه المعلومات وجمعها بالقرائن وإن عمل الجاسوس من أعظم الأعمال التي يكون لها عادة أهمية خاصة في كل دولة من الدول . وإن الدول في العصر الحديث قد وصلت إلى مراحل متقدمة جداً باهتمامها وتعهدها بالجواسيس والاعتماد على أخبارهم .

---

(١٦) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

(١٧) صبح الأعشى ١ / ١٢٣ .

المطلب الثاني : في معاملة الجاسوس :

إن معاملة الجاسوس المسلم كجندي مجاهد كمعاملة غيره من الجنود الأوفياء ، وقد كان الرسول ﷺ يعامل أصحابه جميعاً باللين والرفق ، كما يعامل من يلتقطون له الأخبار بذلك أيضاً .

ويظهر الرفق واللين اللذين كانا يعامل بهما رسول الله ﷺ المسلمين المخلصين في معاملته « لحذيفة بن اليمان » بعد أمره له بالدخول في أرض العدو ومعرفة خبره ، ولما عاد بعد تنفيذ المهمة يقول حذيفة : « فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى أصبحت ، فلما أصبحت قال : قم يانومان »[١٨] .

وفي مثل هذه المعاملة كان رسول الله ﷺ يعامل أصحابه ، وإن في هذه المعاملة معنى الحب والشعور بأهمية العمل الذي يقوم به الجندي في المعركة ، وما يتجشمه من مخاطر وصعوبات في سبيل الله .

فعلى المسئول أن يعرف كيف يعامل الجواسيس وأن يحسن إليهم ويعتبرهم جنوداً مخلصين يستحقون كل تقدير واحترام ومن هنا يتلطف إليهم باللين والرفق ويشعرهم بالمحبة وهم أخوة له أخلصوا لله في جهادهم .

ففي صبح الأعشى : « إذا وجد من العيون والجواسيس من هو مستكمل للشروط المطلوبة فعليه أن يظهر لهم الود والمصافاة ولا يطلع أحد منهم في زمن تصرفه له أنه يتهمه ولا أنه غير مأمون لديه »[١٩] فإذا ما شك بخيانة واحد منهم أو عدم أمانته فعليه أن لا يظهر له ذلك .

ولهذا على المسئول أن يحسن إلى الجواسيس ويعطيهم ويبذل لهم العطاء وبخاصة عند توجيههم للمهمات ، ولا يغفل تعهدهم بالصلات قبل احتياجه إليهم ، ثم يزيد في ذلك عند توجيههم إلى تنفيذ مهمة من المهمات[٢٠] .

---

(١٨) مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٤٦ ، البخاري بشرح عمدة القاري ١٤ / ١٤٢ سيرة ابن هشام ٣ / ٢٤٣ .

(١٩) انظر صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

(٢٠) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

وأن يتعهد أهليهم بالصلات أيضاً وبالنفقة في حضورهم ويزيد من اهتمامه بأسرهم أثناء غيبتهم .. وذلك من أجل أن يطمئن الواحد منهم على أهله وذويه أثناء غيابه وبذلك يزيد من الإخلاص والتضحية ، ويبقى في مهمته مطمئناً راضياً الأمر الذي يزيد من مستوى الأداء ، وبهذا يقول صاحب كتاب صبح الأعشى : « ويتعهد أهليهم في حضورهم وغيبتهم ليملك بذلك قلوبهم ويستصفي به خواطرهم »[٢١] .

وإن الجاسوس الجندي المجاهد في سبيل الله لابد وأن يحظى بمظهر من مظاهر التقدير والوفاء ، وقد يكون هذا التقدير في حياة المجاهد أو بعد وفاته ويكون هذا التقدير بالعناية بالأسرة وتوفير الحياة الكريمة لها بعد وفاته ، بوضع المرتبات وتعهد الأبناء بالتربية والتعليم وإتمام دراستهم مجاناً . وقد يكون معنوياً بالذكر الحسن لهم في المناسبات أو إطلاق أسمائهم على أحد شوارع مدينة معينة ، وفاء لهم بما قدموه من أعمال جليلة ، وأن هذه المعاملة للجاسوس ستؤدي إلى إخلاص غيره وتفانيه بالعمل بحيث يطمئن أنه لو قضي عليه واستشهد فإن هناك من يتعهد أبناءه ، بالتربية والإنفاق وتوفير الحياة الكريمة لهم . وبذا يقول القلقشندي : « وإن قضي على من بعثه بقضاء أحسن إلى من خلفه من أهله ، وجعل لهم من بعده من الإحسان ما كان يجعله له إذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعياً لغيره على النصيحة »[٢٢] .

وإن عاد أحد من الجواسيس دون أن يحقق الهدف الذي كلف به فإن على المسئول أن لا يظهر عدم الرضا من ذلك . بل يعامله بالإحسان ويوليه الجميل مادام يثق به ، لأنه إن لم ينجح المرة نجح الأخرى ومن ثم فإن الفرصة التي تعطى له ليحاول مرة أخرى تكون أدعى لتحقيق المصلحة العامة مستقبلاً[٢٣] .

وإن التكتم في أمر الجواسيس بحيث لا يعرف بعضهم بعضاً أمر ضروري خاصة أثناء توجيههم للمهات وذلك من أجل أن يتمكن المسئول من المقارنة بين الأخبار المختلفة التي تصل إليه منهم وبمقابلة هذه الأخبار بعضها مع بعض يستطيع المسئول أن يخرج

---

(٢١) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ .

(٢٢) صبح الأعشى ١ / ١٢٤ ـ ١٢٥ .

(٢٣) انظر صبح الأعشى ١ / ١٢٥ .

بنتيجة ، وترجيح خبر معين على غيره بوفور القرائن الدالة على ذلك .

وفي إخفـاء أمر الجـواسيس تفـويت لاحتمال أن يـوقـع بعضهم عنـد العـدو . أو اتفاقهم على الكذب في خبر معين ، وبذا يقول الهرثمي : « لا تعرفن أحـداً من الجواسيس صـاحبـه فإنـه لا تـؤمن ممـالأتهم للعـدو ، وتـواطـؤهم على الغش أو أن يـورط بعضهم بعضاً »[٢٤] ويؤكد القلقشندي : « أن عليه أن يحرز أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضـاً ، لاسيا عند التوجه للمهمات وإن استطـاع أن لا يجعل بينـه وبينهم واسطـة فعل . وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلاً من بعض خاصته يتولى إيصاله إليـه ، فـإنـه إن علم بعضهم ببعض ربما أظهره بخلاف مـا إذا اختص بـالسر »[٢٥] وكـذلـك يحترز من أن تعرف جواسيسه في الجيش لما في ذلك من انتشـار السر بينهم فيتضرر من ذلـك ، وبهـذا يكون قد أخذ الحيطة والحذر في التكتم بحركة الجواسيس أو إخفاء أمرهم بصورة نهائية .

وبذا يقول عبد الحميد الكاتب في وصيته : « واحذر أن يعرف بعض عيونـك بعضـاً ، فإنك لا تأمن تواطئهم عليـك ، وممـالأتهم عـدوك ، واجتماعهم على غشـك وتطـابقهم على كذبك ، واتفاقتهم على خيانتك ، وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك »[٢٦] .

ومن أساليب معاملتهم : الإصغاء إلى ما يلقيه إليه كل من جواسيسه وإشعارهم بأهمية ما جاء به من معلومات وإن اختلفت المعلومات التي جـاءوا بهـا فـإن عليـه أن لا يظهر تكذيباً لأحد منهم وأن لا يجعل الاختلاف سبباً في الجفاء أو العقوبة تجاه واحد منهم بل يأخذ بالأحوط من هذه المعلومـات بعـد تمحيصهـا ومقـارنتهـا بعضهـا بعضـاً وقـد تختلف الأخبار دون أن يكون واحد منهم قد كذب في خبره ، فقد يسمع كل واحد ويرى مـالا يراه ويسمعه الآخر ، وقـد تختلف نيـة العـدو من لحظـة إلى أخرى كما قـد يكون الأمر أن العدو أحس في فترة بوجود بعض الجواسيس فأعطى ذلك موهماً من يسمعه باتخـاذ موقف معين ثم يعلن خطته بعد أن يطمئن[٢٧] .

---

(٢٤) مختصر سياسة الحروب ص ٢٤ .

(٢٥) صبح الأعشى ١ / ١٢٥ .

(٢٦) صبح الأعشى ١٠ / ٢١٥ .

(٢٧) مختصر سياسة الحروب ص ٢٤ ، صبح الأعشى ١٠ / ٢١٤ .

ومن حسن معاملة الجواسيس الستر على الأخطاء التي قد تبدر من أحدهم وعدم التسرع في إيقاع العقوبة وإذا كان ذنب أحدهم لا يستوجب العقوبة فإن في التساهل والتسامح بعدم ذكرها أو إشعاره بأخطائه أفضل إذا كان التوجيه والنصيحة غير المباشرة تفيد في ذلك وإذا ما كان ذنبه يستوجب التوبيخ والإغلاظ في القول فعليه أن لا يوبخه أمام زملائه ، متخذاً اللطف والمداراة وحسن المعاملة والتذكير بالمصلحة العامة أو أن ينحه بلطف عن وظيفته .. وإذا كان ذنبه في ممالأة العدو فإن له أن يتصرف حسب ما تقتضيه المصلحة في ذلك فإن كان في النصح ما يصلحه عامله بذلك وإن كان إصلاحه في العقوبة الصارمة التي لابد منها قطعاً للمفسدة ودفعاً للضرر وتحقيقاً للمصلحة فإنه لابد وأن يوقع العقوبة بحقه[٢٨] .

إن على المسئول أن يعرف كيف يعامل الجواسيس من الناحية النفسية فيما يأتونه من أخبار ، وذلك عند الاستقبال وسماع الأنباء التي يأتي بها بحيث يستعمل معه دوام البشر والاهتمام دون إفراط في خبره وذلك بالنظر إليه أثناء الحديث ، بحيث لا يظهر تهافتاً عليه تظهر معه الخفة ، ولا إعراضاً عنه تفوت معه مناصحته له . ثم إن عليه أن يتثبت من هذه الأخبار دون أن يشعر أحداً منهم بزيف ما جاء به أو عدم صدقه ، أو عظيم خطره وأهميته . وأن لا يشعر أحداً منهم أن المسئول أخذ من قوله واتبعه كما جاء به دون مناقشة ، كما لا يشعره بأنه رد خبره رد المكذب به والمتهم له ، والمستخف بما جاء به ، لأن ذلك يستدعي عداوته في داخل نفسه[٢٩] .

ومن حسن معاملة الجاسوس أن لا يظهر المسئول له كراهية ما يأتيه به من الأخبار المكروهة ، لأن ذلك يجعله يكتم الأخبار المكروهة عنه في المستقبل الأمر الذي يؤدي إلى الضرر به بل عليه أن يسمع للخبر المكروه مثل سماعه للخبر السار وذلك حتى يصدق الجواسيس معه دائماً ولا يحجبون عنه خبراً[٣٠] .

إن الجاسوس كجندي محارب مؤمن يجب إن يقدر ، وأن التعامل معه يكون على

---

(٢٨) صبح الأعشى جـ ١ / ١٢٥ ، ١٠ / ٢١٤ ، ٢١٥ مختصر سياسة الحروب ص ٢٤ .

(٢٩) صبح الأعشى ١ / ١٢٥ ، جـ ١٠ / ٢١٥ .

(٣٠) مختصر سياسة الحروب ص ٢٥ وصبح الأعشى ١ / ١٢٥ ـ ١٢٦ .

أساس إذكاء الروح الجهادية بنفسه وتوجيهه إلى ما يحقق الهدف الأسمى لرسالة الإسلام ، ومن طرق معاملتة التودد والتلطف إليه .. ويكون بإعطائه الجوائز والحوافز التي تدفعه إلى الشجاعة والإقدام وتلهب في نفسه روح الإيمان وحب الله ورسوله ، وتذكيره بذلك من فترة إلى أخرى .. وإن المحافظة على الجندي قوياً مخلصاً إنما يكون بالمحافظة على قوة إيمانه وصدق عقيدته ، وإذا ما استشهد الجندي في سبيل الله فلابد من الوفاء له بعد مماته مادياً ومعنوياً ليؤثر ذلك في نفوس بقية المؤمنين ويدفعهم للتضحية والفداء والإخلاص في الشهادة لله رب العالمين .

المطلب الثالث : في كسب الجواسيس من الأعداء :

يعتبر نشاط المخابرات أمراً واقعاً في حياة الأمة حيث ارتبط بالصراع منذ وجود هذا الإنسان على الأرض .

وقد زادت حاجة الدول إلى أجهزة التجسس بظهور القنابل الذرية والتطور العلمي السريع في الوسائل الحديث لنقل الأخبار ، وهي ضرورية في السياسة حتى أنها أصبحت إحدى أدوات بقاء كل دولة .

ففي معظم الدول يعتبر جهاز التجسس فيها في مقدمة أجهزة الدفاع ، ولذا تهتم الدول ببناء جهاز الجاسوسية كإحدى المؤسسات الهامة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، وتنفق عليها الأموال الطائلة لتطويرها وتوفر لها الإمكانات اللازمة لتدريب أعضائها وكسب أعضاء جدد كجواسيس لها من الدول الأخرى خاصة المعادية[٣١] .

ويقوم جهاز التجسس في كل دولة بكسب الجواسيس من الخارج ومن دولة العدو وجواسيسه بطرق مختلفة ، قد يكون منها الطغوط والمؤثرات المتنوعة التي يوضع بها من يراد السيطرة عليه وتحويله إلى جاسوس لصالح الدولة ، سواء أكان ذلك عن طريق غسيل المخ ، أم عن طريق تلبية حاجة الفرد المادية أو النفسية بحيث تحقق رغباته بالمال إذا كان يحب المال وتعطيه كل ما يريده من أجل أن يكون محباً لها ، ويتقبل كل ما

---

(٣١) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٥٨ ـ ٦٨ ، والجاسوسية الأمريكية ص ١٠ .

يملى عليه ، وينفذ كل ما يطلب منه[٣٢] .

ومن أعظم المكائد التي تكيد العدو أن يصير جواسيسه وعيونه جواسيس لدولتنا . ويتم ذلك باستمالة جواسيسه بالمادة والتودد إليهم بالعطف وحسن المعاملة وإظهار المحبة ، وكثرة البذل حتى تستخرج نصيحتهم وتؤخذ منهم المعلومات وحينئذ تلقى إليهم المعلومات التي يراد تبليغها للعدو ، الأمر الذي فيه مكيدته ، حيث يكون ذلك أقرب لقبول قولهم من أن تصله هذه المعلومات ، ممن يتهمهم[٣٣] .

وفي مختصر سياسة الحروب : « ذكروا عن بعض الحكماء في الحرب أنه كان يصير جاسوس عدوه جاسوساً له ، على أن يصدقه ويصدق عنه ويعطيه عن ذلك أكثر مما يعطيه عدوه »[٣٤] .

وفي كسب الجواسيس من الأعداء يقول ابن أبي الربيع : « ينبغي أن يخفي أخباره عن عدوه بكل طريق ممكن ويسترها عمن يخالف سريرته ، وينبغي أن يبذل المال العظيم في مخادعته ، ومخادعة أصحابه واستمالتهم ، وينبغي أن لا يثق بمستأمن من جهة العدو إلا بعد خبرة حاله وصفاء نيته »[٣٥] .

وقد يكون المرتزقة وسيلة للاستعلام والاستخبار كما كان الأمر في جيوش المغول وجواسيسهم ، حيث كان نظام المرتزقة يضمن للمغول رجالاً يخدمونهم من كل قطر ، وهم على إلمام تام بلغات الأمم المختلفة وعاداتها الأمر الذي مكنهم من جعل جواسيس الأعداء أنفسهم يرددون ما يهيئه لهم المغول من الأراجيف التي تقوض روح العدو المعنوية وبث الذعر في نفوس الجيش والمواطنين[٣٦] .

ويمكن كسب الجواسيس من العدو عن طريق الاحتكاك بالأشخاص الذين تتوفر

---

(٣٢) الحرب النفسية / صلاح نصر ٢ / ٢٩ - ٣٩ ، الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٧٣ . (انظر ص ٨٨ - ٨٩ حيث بينا أن الشريعة الإسلامية لا تبيح غسيل المخ) .

(٣٣) صبح الأعشى ١ / ١٢٦ .

(٣٤) مختصر سياسة الحروب ص ٢٤ .

(٣٥) سلوك المالك في تدبير الممالك (ابن أبي الربيع) ص ١٠٧ .

(٣٦) الحرب النفسية صلاح نصر ١ / ٦٤ ، الملحق العسكري ص ٢٨ ، ٢٩ .

لـديهم المعلومـات المطلوب الحصول عليهـا ، بـاستخـدام أسـاليب معينـة وبنـاء عـلاقـات اجتماعية معهم خاصة الـذين يوجـدون في المكان المطلوب الحصول على المعلومـات منـه ثم يتم تجنيـدهم وتوجيههم للحصـول على المعلـومـات وتسليمهـا للجـاسـوس الـذي أثر عليهم ، ويسمى من يتعاون من المواطنين مع جواسيس العدو « بالعميل » وهو أشـد خطورة على وطنـه ممن استمالـه حيث أنـه في وضع يسهل فيـه الحصول على المعلومـات من مصـادرهـا الأولية[٣٧] .

يقـول أحمـد هـاني : « من غير المستبعـد أن تستخـدم أجهـزة المخـابرات المعـاديـة كل النوعيات من الأشخاص الذين تمكنوا من جمع المعلومات لصـالحهـا لتستعين بهم في تحقيق أهدافها . ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من الأجانب أو من المواطنين »[٣٨] .

ولهذا استخدم معظم القادة الطابور الخامس وسيلـة من وسـائل بث الرعب في نفوس المواطنين وربمـا كان كثير من القـادة يعـدون « الطـابـور الخـامس » كجيش لـه أثره في إحراز النصر على العدو ، وهو وسيلة لدفع العدو إلى الاستسلام[٣٩] .

ويمكن أن يستفاد من جواسيس الأعداء بعـد إلقـاء القبض عليهم واستجوابهم وعرض العمل عليهم لصالح الدولة ومن هذا ما أنكره عمرو بن العاص من قتل جواسيس العـدو أثناء مسيرته لفتح « قيسـاريـة » عنـدمـا سـارع جنوده لقتل جـاسوس من الروم قبل أن يصل أمره إليه الأمر الذي دعاه للقول : « هلا أتيتموني به لأستخبره ، فكم من عين تكون علينا ثم أنها ترجع فتصير لنا ، ثم نادى في جيشـه : من وقع بغريب أو جـاسوس فليـأت به إليَّ »[٤٠] .

وفي شهر ربيع الأول من السنـة الثـالثـة للهجرة وبينمـا كان الرسول ﷺ في طريقـه لمقاتلة « ثعلبة ومحارب » الذين جمعهم : « دعثور بن الحارث الغطفاني من بني محـارب » استمال ﷺ وهو في طريقـه إليهم رجلاً اسمـه « جبـار » فـاستفـاد منـه في معرفـة العـدو

(٣٧) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٣٠٠ ، الملحق العسكري ص ٣٢ .

(٣٨) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ٢٨٩ .

(٣٩) المجلة العسكرية الأردنية عدد ٢٦ حزيران ١٩٦١ .

(٤٠) فتوح الشام / الواقدي ٢ / ١٧ .

وقوتـه المعنويـة حيث أفـاد بقولـه : لن يلاقوك ، ولو سمعوا بمسيرك إليهم لهربوا برؤوس الجبال » ، « وأخذ به ذلك الرجل طريقاً وهبط به عليهم »[٤١] .

وقـد استمالت المجموعـة التي خصصت لقتل الأسـود العنسي استمالت زوجتـه واستغلت كراهيتها لزوجها ، فدلت عليه وبينت الطريق للدخول إلى القصر[٤٢] .

وفيما يتعلق بـاستخـدام جواسيس الأعـداء وتوصيل المعلـومـات بـواسطتهم إلى العـدو يقول الهرثمي : « وقد تحتـاج في بعض الأحوال أن يعرف عـدوك بعض أمورك وتـدبيرك على حقيقته ، لما تحاول من مكايدته فتلطف في ذلك بـإظهـاره لجواسيسـه يوصلون إليـه على ما يظهر لهم فيه »[٤٣] .

ويستنتج مما تقـدم أن الجـاسوس يـدرب على كل الطرق التي تمكنـه من الحصول على المعلومات عن العدو بكل يسر وسهولة ، ولابد له من أن يعرف أولاً الحلول البـديلـة لمـا يواجهه من مشاكل أو يعترض طريقه من عقبات .

كما أن الجاسوس يعـامل معـاملـة خـاصـة مشوبـة بـالحـذر ولابـد من أجهزة لإعـداد الجواسيس وتدريبهم والإفادة منهم وتحليل ودراسة المعلومات التي تصل بوساطتهم .



(٤١) السيرة الحلبية ٢ / ٤٨١ .

(٤٢) الكامل في التاريخ / ابن الأثير ٢ / ٣٣٩ .

(٤٣) مختصر سياسة الحروب ص ٢٥ .

الباب الثاني

في أحكام التجسس والوقاية منه

وفيه فصلان

الفصل الأول : في أحكام التجسس في الفقه الإسلامي وفيه المباحث التالية :

المبحث الأول : في التجسس المشروع .

المبحث الثاني : في التجسس غير المشروع .

المبحث الثالث : في عقوبة الجاسوس .

الفصل الثاني : في مكافحة التجسس وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في توعية المجتمع من خطر التجسس .

المبحث الثاني : في حماية الثغور من التجسس .

المبحث الثالث : في سرية التحركات العسكرية .

الفصل الأول

في أحكام التجسس في الفقه الإسلامي

وفيه ثلاثة مباحث

المبحث الأول : في التجسس المشروع وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في تجسس الدولة على الأفراد والجماعات ومعرفة طاقاتهم للاستفادة منهم .

المطلب الثاني : في تجسس الدولة على أهل الريب والمجرمين وتعقبهم والوقوف على حال الرعية .

المطلب الثالث : في التجسس على العدو .

المبحث الثاني : في التجسس غير المشروع ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : في التجسس المؤدي إلى الوقوف على العورات .

المطلب الثاني : في التجسس لمصلحة العدو .

المطلب الثالث : في التجسس المزدوج .

المبحث الثالث : في عقوبة الجاسوس ، وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في عقوبة الجاسوس المسلم .

المطلب الثاني : في عقوبة الجاسوس غير المسلم .

المبحث الأول

في التجسس المشروع

تمارس سلطات أي دولة التجسس على مواطنيها وغيرهم ، في الداخل لأغراض إدارية ، وحكومية ، وتمارسه في الخارج لأغراض سياسية وحربية ، كما تمارسه على مواطنيها في الخارج[1] .

وسنتكلم في هذا المبحث عن ممارسة السلطة الحكومية للتجسس لأغراض إدارية وحكومية في الداخل ، وذلك لحفظ الأمن داخل حدود الدولة كما سنتكلم كذلك عما تمارسه الدولة من تجسس خارج بلادها لأغراض عسكرية وحربية وسياسية ، في المطالب التالية :

المطلب الأول : التجسس على الأفراد والجماعات ومعرفة طاقاتهم والاستفادة منها :

تتقصى الدولة الأخبار عن سيرة بعض الأشخاص أو الهيئات من أجل الاستفادة منهم ، والاستعانة بهم ، والأخذ بمشورتهم وخبراتهم وآرائهم في تصريف شئون الدولة ، وما تقوم به من أعمال إدارية ، واقتصادية للمصلحة العامة في البلاد .

ومن واجب الدولة أن تتعرف على المواطنين وطاقاتهم ، فتحسن استغلالها لتضع الرجل المناسب في المكان المناسب[2] .

وإن علاقة رئيس الدولة بالمواطنين تشبه علاقة رب الأسرة بأبنائه فيتعرف على أحوالهم ، ويعين ضعيفهم على مجابهة الحياة ، ويأخذ بيد العالم منهم والمفكر لما فيه الخير وتحقيق المصلحة العامة ، ويختار من بين المواطنين من يستعين بهم لإدارة الدولة وشئونها ومعاونته في ذلك .

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ١٠ / ٤٠١ .

(٢) الرسول ﷺ / سعيد حوى : ص ٢٠٤ ، عبقرية الإسلام في أصول الحكم / د . منير العجلاني : ص ١٧٧ الطبعة الثانية ١٩٦٥ .

وإن السياسة الناجحة في البلاد هي أن يضع الحاكم الرجل المناسب في مكانه المناسب ، وذلك لأن الناس يختلفون في قدراتهم وطاقاتهم .

ولذلك لابد من التعرف على أصحاب القدرات والطاقات ومعرفة سيرة حياتهم ومستوياتهم الأخلاقية والفكرية وخبراتهم والتأكد من ذلك ليختار من يريد أن يستعين بهم من ذوي الأخلاق الكريمة ، والمخلصين للبلاد والمحبين لها ، حيث إن تصريف شئون البلاد مسئولية كبيرة خاصة في أوقات المحن والشدائد[٣] .

ويستطيع الحاكم أن يتعرف على مسيرة بعض المواطنين من خلال المعلومات التي تسجل في سيرة حياتهم ، ويتعرف على مستوياتهم ، وقدراتهم ، وغاياتهم ويسترشد بنصائحهم ويأخذ بآرائهم فيكون عنده معرفة سابقة بذوي القدرة والمكانة الاجتماعية ، وأهل الرأي والمشورة ، فيستشيرهم فيما يعرض عليه من أحداث ، لأن المشورة مبدأ من مبادىء الإسلام وهي خير ضمان لنجاح القادة في الحكم .

إن اتخاذ القرارات عنصر أساسي في القيادة والإدارة ، وهو مرتكز الأعمال والإجراءات التي تستهدف تحقيق النتائج المرجوة لمصلحة المجتمع العامة .

وإن اتخاذ القرارات ذو أهمية خاصة ، وتعظم أهمية القرارات تبعاً لجسامة المهام ودقتها وضخامة الأهداف ففي الأمور العظيمة لابد من المشورة يقول الله سبحانه تعالى : ﴿ **وأَمْرُهُم شُورَى بَينَهُم** ﴾[٤] ويقول أيضاً ﴿ **وَشَاوِرْهُم فِي الأَمرِ** ﴾[٥] .

ولقد طبق الرسول ﷺ هذا المبدأ فكان يستشير أصحابه في الملمات وفيما يعظم من الأمور ، وكان ﷺ يأخذ بالمشورة الصالحة التي يعرضها عليه أصحابه فقد نزل على رأي الحباب بن المنذر في غزوة بدر حين أشار عليه بأن ينتقل من الموقع الذي اتخذه أولاً إلى قرب ماء بدر في موقع يتحكم تماماً في ماء البئر ، بحيث يقطع الماء عن قريش في الوقت الذي يشرب فيه المسلمون[٦] .

---

(٣) الرسول ﷺ / سعيد حوى : ص ١٩٤ .

(٤) سورة الشورى : آية ٣٨ .

(٥) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٦) السيرة الحلبية : ٢ / ٣٩٣ .

ومن خصائص الرئيس الناجح أن يستغل طاقات أفراد المجتمع على خير وجه ويستفيد من ذوي الخبرة والرأي والمؤهلين لتحقيق المصلحة العامة وتأمين سلامة البلاد وإحراز النصر ، وتلبية احتياجات المجتمع . وليس له وسيلة لمعرفة ذلك إلا بتسجيل المعلومات الوافية عنهم .

ومن هنا فإن عليه أن يعرف قدرات المواطنين وذوي الخبرة وأهل الحل والعقد ، لأنه مأمور أن يحكم الناس بالعدل ، ولابد من اتخاذ الأعوان في ذلك ولابد من وجود بطانة تساعده في إدارة دفة الحكم وله أن يفاضل بين الناس ، ويدرس حياتهم ليضع له بطانة صالحة . يقول الرسول ﷺ : « ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه والمعصوم من عَصَمَ اللهُ تعالى »[٧] .

ويحتاج الحاكم في معرفته للناس وتقصي أخبارهم إلى أجهزة مختصة ، فقد كان نظام البريد في عهد الدولة العباسية ينقل أخبار الأقاليم المختلفة إلى الخليفة ، وكان يقوم بما يقوم به قلم المخابرات في العصر الحديث[٨] .

ونجاح الإدارة لا يعتمد فقط على معرفة الناس وسيرهم بل إن تقصي أعمال حكام الأقاليم يؤدي إلى نجاحه أيضاً وذلك بمتابعة ما يصدر عنهم من قرارات وما يبتون فيه من أمور ، فالخليفة مسئول عن ولاته واحداً واحداً في كل صغيرة وكبيرة وعليه أن يحسن اختيارهم ويراقب أعمالهم « قال عمر يوماً لمن حوله : أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل ، أكنت قضيت ما علي ؟ قالوا : نعم . قال : لا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لا »[٩] .

---

(٧) مسند أحمد بن حنبل ٣ / ٧٩ ومثله في البخاري (انظر البخاري بشرح فتح الباري حديث رقم (٦٦١١) ١١ / ٥٠١) وسنن النسائي ص ٦٤٧ الطبعة الهندية .

(٨) تاريخ الإسلام السياسي حسن إبراهيم حسن : ٢ / ٢٩٣ .

(٩) عبقرية عمر : ص ٨٧ .

ومما كتبه طاهر بن الحسين[١٠] لابنه عبد الله لما ولاه المأمون الرقة ومصر ، وما بينهما قال : « واجعل في كل كورة من عملك أميناً يخبرك بخبر عمالك ، ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل في عمله معايناً لأموره كلها »[١١] .

فلابد من معرفة الأشخاص وقدراتهم وجمع المعلومات حول هذا الموضوع ليختار الموظفين الأكفاء الأمناء على مصالح الأمة ويبعد غير الأكفاء ، والمسئول معنى بذلك ، فهو مسئول عن اختيار القائد العسكري ، أو الحاكم الإداري ، وأن يبعد الضعفاء عن تولي المسئولية . يقول الشوكاني : « ولا يولي غير الكفء لأن فيه تهمة »[١٢] .

فلا يولي القائد إلا من هو أصلح للأعمال حسب القاعدة : « الأمثل فالأمثل » ولا يراعي في ذلك مصلحة خاصة أو قرابة لأن سياسة الرعية الناجحة هي أن توسد أمور المملكة إلى رجال ذوي أمانة واستقامة وكفاءة[١٣] .

وقد حذر من ذلك الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم « فعن يزيد بن أبي سفيان قال : قال أبو بكر رضي الله عنه حين بعثني إلى الشام يايزيد إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة ، وذلك أكبر ما أخاف عليك ، فإن رسول الله ﷺ قال : « من ولي من أمر المسلمين شيئاً فأمر عليهم أحداً محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل الله منه صرفاً ، ولا عدلاً حتى يدخله جهنم ، ومن أعطى أحداً حمى الله فقد انتهك في حمى الله شيئاً بغير حقه ، فعليه لعنة الله أو قال : تبرأ منه ذمة الله عز وجل »[١٤] .

ومن الخيانة أن يعدل الحاكم عمن هو أصلح للعمل وأحق للمصلحة العامة ، لعداوته وبغضه له ، أو أن يستعمل غيره لرشوة أو لاتحاد المذهب أو غيره .

---

(١٠) طاهر بن الحسين : هو أبو الطيب طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن (ماهان) الخزاعي بالولاء قائد المأمون المشهور . وجهه المأمون لقتال أخيه الأمين ببغداد وقتله . ولد سنة ١٥٩ هـ وتوفي سنة ٢٠٧ هـ .

(١١) انظر بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق : ٢ / ١٩٣ .

(١٢) نيل الأوطار : ٨ / ١٩٠ .

(١٣) السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية / السيد عبد الله جمال السيد : ص ١٤ مطبعة الترقي ١٣١٨ هـ .

(١٤) مسند أحمد بن حنبل : ١ / ٦ .

وإن السلطان إذا أعطى غير المستحق وترك المستحق فقد ظلم مرتين : مرة بمنع المستحق ومرة بإعطاء غير المستحق[١٥] .

فبالمعرفة السابقة عن الأشخاص وقدراتهم يمكن للمسئول أن يتحاشى الوقوع في الخطأ فلا يولي غير الكفء وعندها يستطيع وضع الرجل المناسب في مكانه ، ويكون قد نصح الأمة وأدى الواجب الذي عليه .

وإن المواءمة بين قدرات الأفراد ومتطلبات العمل ، الذي يكلفون به ، يحفظ النشاط ويجعله متجدداً ويحقق الهدف من تعيينهم بالوظائف الملائمة لهم . وفي هذا توفير للمناخ المناسب الذي يؤدي إلى نجاح الفرد في مسئوليته المناطة به[١٦] .

فالذي يكون أميراً للجيش مثلاً يجب أن يكون من ذوي الشجاعة والقوة والتجربة في هذا المجال وبهذا يقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ** ﴾[١٧] .

وقلما تجتمع القوة والأمانة في شخص ومن هنا يكون واجب السلطان في المفاضلة بين الرجال ثم الترجيح حسبما تقتضيه المصلحة فالرجل الشجاع القوي الخبير بفنون الحرب ومقتضياتها يقدم أميراً للحرب وقيادة الجيش على الرجل الصالح الأمين إذا كان ضعيفاً[١٨] .

وفي كتاب الفخري في الآداب السلطانية : « ومما يكمل فضيلة الملك : أن تكون قوة الاختيار عنده سليمة لم تعترضها آفة فيكون يختار الرجال اختياراً فاضلاً »[١٩] .

ولقد عرف الرسول ﷺ الموضع الذي يضع فيه كل واحد من صحابته فلقد عرف في أبي بكر الصديق الرقة واللين ، وعرف في عمر الشدة في الحق وعرف في أبي عبيدة

---

(١٥) السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية / السيد عبد الله جمال : ص ١٧ مطبعة الترقي ١٣١٨ هـ .

(١٦) الرسول ﷺ / سعيد حوى : ص ٢٠٥ ، المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية الإسلامية : ص ١١٢ .

(١٧) سورة القصص : آية ٢٦ .

(١٨) السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية / السيد عبد الله جمال : ص ١٩ ـ ٢٠ مطبعة الترقي ١٣١٨ هـ .

(١٩) الفخري في الآداب السلطانية / ابن الطقطقي : ص ٣٣ مطبعة محمد علي صبيح ، ١٩٦٢ م .

الأمانة . وعرف في أبي ذر الغفاري الضعف . وعرف في خالد بن الوليد الفروسية والشجاعة في القتال . ولذا كان ﷺ يضع كل واحد من أصحابه بالمكان الملائم له .

وقد قال ﷺ لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه عندما طلب منه الولاية : « ياأبا ذر إني أراك ضعيفاً وإني أحب إليك ما أحب لنفسي : لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم »[٢٠] .

وفي رواية أخرى : « ياأبا ذر إنك ضعيف وإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها »[٢١] .

وإن الرعية أمانة في عنق الحاكم وإن تعيين الأمناء وأهل الكفاية من أهم ما يناط بالحاكم من مسئوليات فعن حذيفة بن اليمان أن النبي ﷺ قال لأهل نجران : « لأبعثن إليكم رجلاً أميناً حق أمين ، فاستشرق لها أصحاب رسول الله ﷺ فبعث أبا عبيدة »[٢٢] .

إن تقصي الأخبار وجمع المعلومات لهذه الغاية من أشرف ما يقوم به المسئول في خدمة الرعية ، وحماية البلاد من غلبة العدو للمحافظة على سعادة المجتمع وكرامته وتطبيق حكم الله في الأرض .

ويلزم المسئول لتحقيق ذلك العلم بالمصلحة العامة ومن يليق بها وتوزيع المسئوليات حسب الكفاءات المتوفرة . فإن وجد الأكفاء لكل مصلحة حكومية فبها ونعم النجاح وإن لم يجد فله أن يستعمل أصلح من وجد عنده ولا يتوقف عند هذا الحد بل ينبغي أن يجتهد في تربية الرجال وذوي الفضل والكمال وتحصيل الاستطاعة والمقدرة بإنماء الموهبة والقوة عندهم لسعادة الأمة وحمايتها ، وصيانة شرفها وهيبتها بين الدول[٢٣] .

وأن متابعة الولاة والحكام من المسئوليات الأساسية لضمان وتنفيذ حكم الله في الأرض ومن حق المسئول أن يسأل الوالي عن مدى تطبيقه لهذا ، وقد كان عمر يسأل ولاته عن

---

(٢٠) صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي الطبعة الأولى حديث رقم (١٨٢٦) ٣ /١٤٥٨ ونيل الأوطار للشوكاني : ٨ / ٢٩٧ .

(٢١) صحيح مسلم بشرح النووي الطبعة الأولى حديث رقم (١٨٢٥) ونيل الأوطار : ٨ / ٢٩٧ .

(٢٢) صحيح البخاري : ٩ / ١٠٩ طبعة الشعب .

(٢٣) السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية / السيد عبد الله جمال السيد : ص ٢٥ ـ مطبعة الترقي بمصر ١٣١٨ هـ .

مدى تطبيق حكم الله ، فقد شكت طائفة سعد بن أبي وقاص ، فتحرى عمر الأمر وأوفد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها فبعث بوكيله عن العمال محمد بن مسلمة يسأل عن سعد وسيرته في الرعية ، كما سأل عنه جماعة أثنوا عليه ، ولاحظ أن فريقاً ممن شكوه توقفوا فلم يمدحوه ولم يذموه وقال فريق آخر : « إنه لا يقسم بالسوية ولا يعدل في القضية ولا يغزو في السرية » . ولما تحقق عمر بعد مقابلته سعداً وجد زيف هذه المقالة عن سعد[٢٤] .

قال الجاحظ : « من أخلاق الملك : البحث عن سرائر خاصته وعامته ، وإذكاء العيون عليهم خاصة وعلى الرعية عامة ولا يكون شيء أهم ولا أكبر في سياسة وانتظام ملكه من الفحص عن ذلك ومتى غفل عنه فليس له من التسمية بالملك الذي معناه مبالغة في الرعاية بذلك إلا مجرد الذكر فقط »[٢٥] .

يقول ابن الإخوة : « من أعظم خصال الملك وأحدها توقعاً في نفوس الخاصة والعامة : إنصافه من خاصته وحاشيته وأعوانه وتفقدهم في كل ساعة »[٢٦] .

ومن نسخة العهد الذي كتب به الصاحب فخر الدين إبراهيم بن النعمان للظاهر بيبرس قال : « وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأي ، من أصحاب السيوف والأقلام فإذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيباً واجعل عليه في تصرفاته رقيباً . وسل عن أحواله ففي القيامة تكون عنه مسئولاً ، وبما أجرم مطلوباً ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوباً »[٢٧] .

فالحاكم مسئول أمام الله تعالى عن الرعية التي كلف بحمل الأمانة فيها فإن أخلص لها ورعاها فقد أدى الأمانة التي ائتمن عليها ، وإن هو أساء فقد غشها ، ومن الإخلاص للرعية تعيين الأكفاء ومن الإخلاص لها البحث عما فيه راحة أفرادها ، وما يحقق السعادة لها في الدنيا والآخرة .

---

(٢٤) عبقرية عمر : ص ٩٠ .

(٢٥) بدائع السلك في طبائع الملك : ٢ / ٣٨ .

(٢٦) معالم القربة في أحكام الحسبة / ابن الإخوة : ص ٢١٧ مطبعة دار الفنون ، بكمبرج ١٩٣٧ .

(٢٧) صبح الأعشى : ١٠ / ١١٤ .

ويقول الجويني : « كان منصب الإمام القوام على طبقات الأنام مقتضياً أن يتحرى الأَصْلَحَ فالأَصْلَحَ »[٢٨] .

ويقول الأسدي : « ينبغي للملك أن يتخير الرئيس الفاضل لبطانته وتدبير أمر دولته »[٢٩] .

وفي سلوك المالك في تدبير الممالك : « اعلم أنه لابد لمن تقلد الخلافة والملك من وزير على نظم الأمور ومعين على حوادث الدهور يكشف له صواب التدبير ، ألا ترى إلى نبينا ﷺ مع ما خصه الله تعالى به من الإكرام ، وأتاه من الآيات العظام ووعده بإظهار الدين وأيده بالملائكة المقربين وهو مع ذلك موفق للصواب ومؤيد بالرشاد اتخذ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وزيراً فقال : أنت مني بمنزلة هارون من موسى » قال الله تعالى : ﴿ **وَلَقَد آتينَا مُوسَى الكِتَابَ وَجَعلنا مَعَهُ أَخَاهُ هَارون وَزِيراً** »[٣٠] فلو استغنى أحد مما ذكرنا عن المؤازرة والمعاضدة برأيه وتدبيره لاستغنى نبينا محمد وموسى صلوات الله عليهما وسلامه »[٣١] وإن أبا بكر وعمر كانا يلقبان زمن الرسول ﷺ بالوزيرين[٣٢] .

وعلى كل مسئول في الدولة أن يؤدي واجبه على خير وجه ففي كتاب الوزارة : أن على الوزير ثلاثة حقوق بحيث يقوم مقام الملك في مشاهدة ما غاب عنه « أحدها : أن يديم الفحص عن أحوال المملكة حتى يعلم ما غاب كعلمه بالحاضر ويعلم ما خفي كعلمه بالظاهر .. الثاني : أن يعجل مطالعة الملك بها ولا يؤخرها »[٣٣] .

ويقول الأسدي : « ويقال في السياسة : إنه يجب على ولي الأمر أن يتفقد أحوال بطانته ويحثهم على الوفاء بعهد الله وأمانته : وأن لا يستوزر لأمره إلاَّ من يثق بخبره

---

(٢٨) غياث الأمم / الجويني : ص ١٨٥ .

(٢٩) التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار : ص ١٠٤ .

(٣٠) سورة الفرقان آية رقم ٣٥ .

(٣١) سلوك المالك في تدبير الممالك : ص ١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٣٢) الرسول ﷺ / سعيد حوى : ص ٢٠٤ .

(٣٣) الوزارة / الماوردي : ص ١٣٣ الطبعة الأولى ١٩٧٦ .

ودينه وكفاءته وإن أمكنه أن ينظر في جميع أحوال رعاياه كليها وجزئيها فليفعل وإن لم يمكنه فليفوض ويقلد في الأمور ثم يتفقد »[٣٤] .

ويقول الماوردي : « حق عليك أيها الوزير أن تكون لأعوانك مختبراً ولأحوالهم متطلعاً وبها على نفسك وعليهم مستظهراً لأنهم من بين من تسوسه وتستعين بهم لتعلم ما فيهم من فضل ونقص ، وعلم وجهل ، وخير وشر ، وتتحرز من غرور المتشبه وتدليس المتصنع ، فتعطي كل واحد حقه ، ولا تقصر بذي فضل ، ولا تعتمد على ذي جهل ، فقد قيل : من الجهل صحبة ذوي الجهل ، ومن المحال مجادلة ذوي المحال ، وأفرق بين الأخيار والأشرار فإن ذا الخير بيني وذا الشر يهدم »[٣٥] .

وفي كتاب سلوك المالك في تدبير الممالك : أن من سياسة الملك لخاصته : « الثالث : ينبغي أن يدلي العيون عليهم سراً وجهراً ليعرف أخبارهم وأسرارهم »[٣٦] وإن من سياسته للرعية : « الثالث : وينبغي أن لا يغفل عن البحث عنهم بلطيف الأخبار حتى يقف على أسرارهم ... وينبغي أن يعرف أكثر أخلاق رعيته ليؤهل كلاً لما يصلح له من الولايات »[٣٧] .

ومن ذلك ما يعرف عند الفقهاء بتعديل السر ، وهو « أن يتخذ الحاكم رجلاً من أهل العدل والرضا مجمعاً عليه بذلك فيوله المسألة عن الشهود سرّاً فيما بينه وبينه ، ولا يشهره لئلا يصير حكماً مثله فيسأل ذلك الرجل عن الشاهد : من يثق به من أهل مسجده ، وأهل محله ، ولا ينبغي لذلك الرجل أن يقتصر على سؤال واحد خيفة أن يكون بينه وبين الشاهد ضغن ولكن يسأل الاثنين والثلاثة ، ويستسر بذلك ، ولا ينقل للحاكم إلاّ ما اتفق عليه »[٣٨] .

---

(٣٤) التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار : ص ١٥٣ .

(٣٥) الوزارة : ص ١٤٤ .

(٣٦) سلوك المالك في تدبير الممالك / ابن أبي الربيع : ص ١٠٦ .

(٣٧) المرجع السابق : ص ١٠٧ .

(٣٨) (انظر : تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام ١ / ٢٥٨ (لابن مزحون) مطبوع بهامش فتح العلي المالك .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يعين الولاة الأكفاء بحيث يرتب في كل ناحية ولاة وأمراء على مستوى المسئولية وكان يرسم لهم خطة عمل لا يخرجون عنها أهمها : تقوى الله والسهر على مصلحة الرعية وتقدير المسئولية ، وعدم الاهتمام بالدنيا وترك الرعية دون عناية ورعاية ، ولم يكن ذلك ليكون لولا أن عمر بن الخطاب كان يعرف كيف يضع الرجل المناسب في المكان المناسب . وما كان ذلك إلا بمعرفة سابقة بالرجال ، وما يزال يتبع أخبار ولاته ويعرف أعمالهم وقدراتهم[٣٩] . وإن الرعية يصلحها مراقبة الله في تعيين الولاة والقضاة الذين يسوسونها بأمانة الله ويحكمونها بما أمر الله .

وإن تعيين هؤلاء لا يكون إلا بمعرفة الناس بحيث يكون عند المسؤول كل خفي ودقيق ، ويعرف الرعية حق المعرفة كمعرفته إلى أقرب الناس إليه . وقد كان عند عمر بن الخطاب من علم الولاة والعمال كما كان عنده علم أقرب الناس إليه ، وذلك في جميع الأقطار كما قدمناه من علم بما قيل في حق سعد بن أبي وقاص وكان يتحقق من كل ما يرده من معلومات عن أي ناحية من النواحي . وكان يضع الرجل المناسب في المكان المناسب فكان لا يضع في قيادة الجيش إلا من يصلح لذلك ولا يضع للخراج والمال إلا من هو أهل لذلك ، وكان يسأل عن أحوال رجاله ومدى قدرة الواحد منهم لتحمل المسئولية .

وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم ولم يكن هذا إلا بمعرفتهم بالواجب الذي ألقي على عاتقهم حيث أن الخلافة مسئولية وأمانة ولابد من إعطائها الحق الكامل من الرعاية والعمل على ما يقتضيه العدل والإنصاف .

إن إهمال ذوي الطاقات والقدرات يوحي إلى هؤلاء أنهم في وضع مشلول حيث لم يتمكنوا من تقديم أي شيء لخدمة دينهم وبلدهم . ومن هنا تصبح القيادة في وضع لا تستطيع معه تحمل مسئولياتها تجاه المجتمع . ولكن عندما تستطيع القيادة أن تسخر كل طاقات أفراد المجتمع في سبيل تحقيق مصلحة الأمة تكون المسئولية قد توزعت بحيث

---

(٣٩) غياث الأمم/ الجويني : ص ١٨٥ ـ ١٨٧ .

يتحملها كل مواطن وكل فرد يؤدي دوره المناط به بالشكل الذي يتناسب مع قدراته وطاقاته الأمر الذي يعود بفائدة كبيرة في تحسين العلاقة الاجتماعية والروابط الإنسانية والسياسية بين الأفراد والمسئولين .

ثم إن وضع الرجل المناسب في المكان المناسب يعطي المجتمع بكافة أفراده صورة حسنة عن المسئولين في القيادة ، الأمر الذي يؤدي إلى محبة الرأي العام والذي يؤدي بدوره إلى الإخلاص والتعاون بحيث يقوم كل بدوره حسب طاقته وقدرته .

المطلب الثاني : في تجسس الدولة على أهل الريب والمجرمين وتعقبهم والوقوف على حال الرعية :

إن الدولة مكلفة بحماية أفرادها ، والمقيمين فيها ، انطلاقاً من أهداف الإسلام السامية في إقرار المبادىء الإنسانية والسلام في العلاقات الاجتماعية .

وعلى الدولة أن تحقق العدالة الاجتماعية وأن تتعقب المجرمين وتدرأ شرهم وخطرهم وأذاهم ليعيش الناس آمنين من إفسادهم وذلك ليصفو المجتمع من كل كدر قد يعكر حياة الأفراد والجماعات الآمنين .

إن الرعاية الدائمة للمجتمع تؤدي إلى الشعور العام بالراحة والإحساس بأنهم غير منسيين فلا ينفرون من المسئول .

إن رعاية المجتمع وتحقيق حماية الأفراد لابد لها من مراقبة دقيقة تقوم بها الدولة لتهيئة جو من الأمن والاستقرار في المجتمع ، ولابد من وجود أجهزة خاصة لذلك .

وقد اتخذ الرسول ﷺ الأعوان والمساعدين لتحقيق الأمن وحماية المجتمع من خطر المنافقين وأهل الريب والسوء .

قال أبو الدرداء : « ألم يكن فيكم صاحب الوساد وصاحب السر الذي لا يعلمه غيره والذي أجير من الشيطان على لسان النبي ﷺ ؟ أما صاحب الوساد : ابن مسعود ،

وصاحب السر : حذيفة . والذي أجير من الشيطان : عمار »[٤٠] .

وعن أنس رضي الله عنه قال : « إن قيس بن سعد كان يكون بين يدي النبي ﷺ بمنزلة صاحب الشرط من الأمير »[٤١] .

وفي هذا الحديث ـ كما يقول صاحب فتح الباري ـ « تشبيه ما مضى بما حدث بعده لأن صاحب الشرط لم يكن موجوداً في العهد النبوي عند أحد من العمال وإنما حدث في دولة بني أمية فأراد أنس رضي الله عنه تقريب حال قيس بن سعد عند السامعين فشبهه بما يعهدونه »[٤٢] .

وقد اتخذ الرسول ﷺ من المستشارين أبا عبيدة . قال رسول الله ﷺ : « ألا وإن لكل أمة أميناً وإن أمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح »[٤٣] .

وإن كل مسئول يضع المساعدين حسب معرفته بالناس والذين يساعدونه في حمل المسئولية ، باعتبار أن من مسئولية الحاكم تحقق حماية الأمن والنظام .

ولقد كان مجتمع الرسول ﷺ فيه نور النبوة فكان لا يظهر فيه أي تصرف يخالف الدين . وقد كان من يخطىء يأتي إلى الرسول ﷺ ، ويعترف بالخطأ من ذاته . وكما كان الرسول ﷺ على علم بما يقوم به المنافقون وأهل الريب من أعمال ، وذلك بما يصله عنهم مباشرة عن حالهم وما يبيتون للمسلمين من سوء ، وكان حُذيفةُ أمينَ سره كما أسلفنا يعلم سر المنافقين وأسماءهم ثم اتسعت الدولة الإسلامية بعد ذلك وكبرت .

وإن الدولة تمارس سيادتها على المواطنين جميعاً وعلى جميع من هم في نطاق حدودها دون أن يستثنى فرد أو طائفة لأنه لا تمييز بين الأفراد والجماعات داخل حدود الدولة الإسلامية .

---

(٤٠) مسند أحمد بن حنبل : ٦ / ٤٤٩ .

(٤١) صحيح البخاري : ٣ / ٨١ طبعة الشعب . نيل الأوطار : ٨ / ٣٠٥ وسنن الترمذي حديث رقم (٣٨٥٠) ٥ / ٦٩٠ (بزيادة : قال الأنصاري : يعني مما يلي من أموره) .

(٤٢) فتح الباري : ١٣ / ١٣٣ .

(٤٣) سنن الترمذي : ٥ / ٦٦٥ الطبعة الأولى .

وما دامت الدولة تمارس هذه السيادة فإن المطلوب منها تـأمين الأفراد ، وحمـايتهم ، والمحافظة على حرياتهم ، والدفاع عنهم ، ودرء الخطر المحدق بهم .

وقد يكون دفع الخطر عن المواطنين وتحقيق الأمن برد الاعتـداء عنهم أو رد المـارقين عن الدين ودفع أهل البغي والمنحرفين وقطاع الطرق وتعقبهم والتفتيش عنهم ، ومعرفـة أوكارهم ومخططاتهم وإلقاء القبض عليهم .

وقد عني الإسلام بوضع الأحكام التي غايتها صلاح الأمة وأمورها ، وأول مـا اهتم بـه الإسلام صيانة الأعراض والدماء والأموال .

وإن من مهمات الـدولـة الإسلاميـة تحقيق الأمن وحمـايـة الأسرة الـوادعـة ، وتحقيـق السلامة العامة وتنفيذ غايات الشريعة الإسلامية السمحـة ولا يكون ذلـك إلا بتتبع أهل الريب وتعقبهم والتجسس عليهم .

وإذا وقعت الجريمـة ولم يظهر المجرم فعلى الـدولـة أن تتجسس وجـوبـاً حتى يظهر المجرم . وإذا ظن وقوع الجريمة ولو بقرينة كأخبار الثقة فـإنـه يجب التجسس خوفـاً من فوات تداركها .

ففي نهاية المحتاج : « وليس لأحد البحث والتجسس واقتحام الـدور بـالظنون ، نعم إذا غلب على ظنه وقوع معصية ولو بقرينة ظاهرة كإخبار ثقة جاز لـه بل وجب عليـه التجسس إن فات تداركها كقتل وزنا وإلا فلا »[٤٤] .

فليس للمحتسب أن يتجسس على المسلمين والـذميين لأن التجسس في الإسـلام حرام لقوله تعالى : ﴿ **وَلاَ تَجَسَّسُوا** ﴾[٤٥] . فالآية قد نهت عن التجسس نهياً عامـاً فيـدخل في ذلـك كل أنـواع التجسس سـواء أكان ذلـك من الحـاكم أم من المحكـوم ، لأن الخطـاب للجميـع . أمـا إن غلب على الظن استمرار قـوم بـالمحظـورات لأمـارة دلت وآثـار ظهرت فذلك كما يقول أبو يعلى ضربان :

---

(٤٤) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج : ٨ / ٤٥ .

(٤٥) سورة الحجرات : آية ١٢ .

الأول : « أن يكون في ترك التجسس انتهاك حرمة يفوت استدراكها مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلى برجل ليقتله ، أو بامرأة ليزني بها ، فيجوز له في مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث حذراً من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات »(٤٦) .

وهكذا لو عرف ذلك قوم من المتطوعة جاز لهم الإقدام على الكشف والإنكار كالذي كان من شأن « المغيرة بن شعبة » وذلك أنه كانت تختلف إليه بالبصرة امرأة من بني هلال يقال لها : « أم جميل بنت محجن بن الأفقم وكان لها زوجاً من ثقيف يقال له الحجاج ابن عبيد ، فبلغ ذلك « أبا بكرة بن مسروح وسهل بن معبد ونافع بن الحرث وزياد بن عبيد » فرصدوه حتى دخلت عليه هجموا عليها وكان من أمرهم في الشهادة عليه عند عمر ما هو مشهور ولم ينكر عليهم عمر هجومهم وإن كان حدهم عند قصور الشهادة(٤٧) .

الثاني : ما كان دون ذلك في الريبة فلا يجوز التجسس عليه ولا كشف الأستار عنه(٤٨) .

ومن هنا فالتجسس على المسلمين حرام إلا إذا اقتضيت الضرورة ذلك كتتبع أهل الريب لأمارات تدل على ذلك ويكون في ترك التجسس انتهاك حرمة أو قتل نفس أو حدوث زنا فإن ذلك يجيز التجسس ولو بأمارة دالة عليه أو خبر صادق من ثقة . وأما ما كان دون ذلك من الريب فلا يجوز كشف الأسرار عنه فعن معاوية بن أبي سفيان قال : « قال رسول الله ﷺ : إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم »(٤٩) .

ولذا لا يجوز للدولة أن تتجسس على الحياة الخاصة لأفراد المجتمع من رجال الفكر والسياسة في البلد بحجة حماية الأمن والنظام ، فتطلع على خصوصيات الأفراد بغية

---

(٤٦) الأحكام السلطانية لأبي يعلى : ص ٢٨٠ الطبعة الأولى ١٩٣٨ م / ١٣٥٦ هـ ، والأحكام السلطانية للماوردي : ص ٢٥٣ الطبعة الثانية .

(٤٧) الأحكام السلطانية لأبي يعلى . ص ٢٨٠ الطبعة الأولى .

(٤٨) الأحكام السلطانية لأبي يعلى : ٢٨٠ الطبعة الأولى ، والأحكام السلطانية للماوردي . ص ٢٥٣ الطبعة الثانية .

(٤٩) سنن أبي داوود : ٢ / ٧٥٠ وسنن البيهقي : ٨ / ٣٣٣ .

الحصول على معلومات خاصة بوجهة نظر سياسة معينة . أو أن يكون هدفها من ذلك استعمالها وسيلة للتهديد أو التأثير على مجرى الانتخابات النيابية مثلاً أو غير ذلك .

ومثل هذا التجسس الذي لا ينطوي على علة معينة أو يكون بسبب ريبة معينة اقتضت التجسس فإنه لا يجوز ، وهو المقصود بما رواه أبو داود عن الرسول ﷺ : « أن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم »[٥٠] .

كما لا يجوز أن تقوم الدولة بالتجسس على الأفراد أو الجماعات الذين عرف عنهم الستر ولا يجوز كشف ما خفي عن الأعين من الأسرار الخاصة .

وقد أتى ابن مسعود فقيل له : « هذا فلان تقطر لحيته خمراً ، فقال : إنا قد نهينا عن التجسس ولكن أن يظهر لنا شيء نأخذ به »[٥١] .

ومن التجسس على ما قاله الأوزاعي : الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون فهو حرام ، فيشمل ذلك التسمع والاستنصات إلى سرائر الناس ، سواء أكان ذلك من باب الفضول من الأشخاص أم كان من المسئولين ما لم تكن هناك ريبة وأمارة دالة على ارتكاب محظور[٥٢] .

وقد ذكر الغزالي شروطاً بها يجوز للمسئول التجسس منها : الشرط الثالث « أن يكون المنكر ظاهراً للمتجسس بغير التجسس »[٥٣] . فكل من أغلق بابه وستر عورته لا يجوز أن يتجسس عليه إلا أن يظهر بالدار ظهوراً يعرفه من هو خارج الدار كأصوات المزامير والأوتار ، أو سماع طمطمة ، أو ارتفاع الأصوات بحيث جاوزت حيطان الدار ، فمن سمع ذلك من المسئولين فله دخول الدار لأن التجسس هو طلب الأمارات المعروفة ، وهو المنهي عنه ، فإذا حصلت الأمارة المعروفة دون طلب عندها يجوز العمل بمقتضاها ولذا لا يجوز اقتحام الدور بالظنون . نظراً لحرمة المساكن في الإسلام وضرورة المحافظة

---

(٥٠) سنن أبي داوود : ٢ / ٥٧٠ وسنن البيهقي : ٨ / ٣٣٣ .

(٥١) سنن البيهقي : ٨ / ٣٣٤ وسنن أبي داوود : ٢ / ٥٧١ .

(٥٢) تفسير روح المعاني : ٢٦ / ١٥٨ .

(٥٣) إحياء علوم الدين : ٢ / ٣٢٠ دار إحياء الكتب العربية .

على ما ستره الله تعالى فيها . أما في حالة ظهور الفساد فيجب دفع الضرر والمفسدة ويجوز عندها التجسس(٥٤) .

ويقول الجويني : « إن المتعلقين بضبط الأحوال على حكم الاستصواب في كل باب ، يرون ردع أصحاب التهم قبل إلمامهم بالهنات والسيئات ، والشرع لا يرخص في ذلك ، والذي انتزعت من الشرع ما يقرب سبل تحصيل الغرض في هذا . فمن آداب الدين أن لا يقف الإنسان في مواقف التهم فالوجه أن ينهى الإمام من يتصدى لها عن ذلك على جزم وبت فإن عاد عاقبه على مخالفة أمر سلطانه واستجرائه على والي زمامه فيكون هذا تطرقاً إلى الردع على موجب الشرع »(٥٥) .

ومن هنا كان للإمام أن ينصب موظفاً كالمحتسب مثلاً ويعطي هذا الموظف الصلاحية كما يقول ابن الإخوة : « أن يمنع الناس من مواقف الريب ومظنات التهم »(٥٦) .

وقد توكل إلى المحتسب مهمة تأديب المارقين على الآداب العامة كالمعتدين على راحة المواطنين والمتلصصين على العورات أو الجالسين في الطرقات ، الذين يتأذى بهم المواطنون(٥٧) .

ولملاحقة أهل الريب وتتبعهم فإن للإمام وضع العيون عليهم . يقول الجويني : « إن نبع في الناس داعي الضلالة وغلب على الظن أنه لا ينكف عن دعوته وشر غائلته فالوجه : أن يمنعه وينهاه ويتوعده ... ثم يكل به موثوقاً به حيث لا يشعر به ولا يراه ، فإن عاد إلى ما عنه نهاه بالغ في تعزيره ، وراعى حد الشرع وتحراه ثم يثني عليه الوعيد والتهديد ، ويبالغ في مراقبته من حيث لا يشعر ويرشح مجهولين يجلسون إليه على هيئات متفاوتات ويعتزون إلى مذهبه ويسترشدونه ويتدرجون إلى التعلم والتلقي

---

(٥٤) إحياء علوم الدين : ٢ / ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٥٥) غياث الأمم / الجويني : ص ١٧١ .

(٥٦) معالم القربة في أحكام الحسبة / ابن الأخوة : ص ٣٠ مطبعة دار الفنون بكمبرج سنة ١٩٣٧ م .

(٥٧) نهاية الرتبة في طلب الحسبة / الشيزري : ص ١٤ مطبعة لجنة التأليف والترجمة . القاهرة ١٩٤٦ م .

منه ، فإن أبدى شيئاً أطلعوا السلطان عليه ، فيتسارع إلى تأديبه ، والتنكيل به »[٥٨] .

وإن من التجسس الذي لابد منه للوقوف على حال الرعية ، ودفع الشر عنهم ، ليطمئن الناس وتنتظم الأمور وتصفو الحياة ويأمن المقيم والمسافر من كل خطر وظلم ، ويعرف المظلوم والمحتاج ، ويقف المسئول على دقائق الأمور فيما يتعلق بأحوال الرعية ، فمن ذلك سهر عمر بن الخطاب حيث كان يعس بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم بيديه[٥٩] .

وفي ذات ليلة خرج عمر بن الخطاب ليصطحب عبد الرحمن بن عوف ولما سأل عبد الرحمن : « ما جاء بك في هذه الساعة ياأمير المؤمنين قال : رفقة نزلت ، ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق فلنحرسهم »[٦٠] .

ومن ذلك ما قاله أسلم : « خرجت ليلة مع عمر إلى حرة وأقم حتى إذا كنا بصرار ، إذا بنار فقال : ياأسلم هاهنا ركب قد قصر بهم الليل ، فانطلق بنا إليهم ، فأتيناهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوب على النار وصبيانها يتضاغون ، فقال عمر : السلام عليكم ياأصحاب الضوء ، قالت : وعليك السلام . قال : أدنو ؟ قالت : ادن أو دع . فدنا فقال : مابالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل والبرد ، قال : فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ قالت : من الجوع . فقال : وأي شيء على النار ؟ قالت : ماء أعللهم به حتى يناموا والله بيننا وبين عمر ، فبكى عمر ورجع يهرول إلى دار الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق وجراب وشحم ، وقال : ياأسلم احمله على ظهري ، فقلت : أنا أحمله عنك فقال : أنت تحمل وزري يوم القيامة ؟ فحمله على ظهره وانطلقنا إلى المرأة فألقى عن ظهره وأخرج من الدقيق في القدر وألقى الشحم وجعل ينفخ تحت القدر والدخان يتخلل لحيته ساعة ، ثم أنزلها عن النار وقال : أتيني بصفحة فأتى بها فغرفها ثم تركها بين يدي الصبيان وقال : كلوا ، فأكلوا حتى شبعوا والمرأة تدعو له وهي لا تعرفه فلم يزل عندهم حتى نام الصغار ثم

---

(٥٨) غياث الأمم / الجويني : ص ١٦٩ .

(٥٩) تاريخ الأمم والملوك : ٥ / ٢٠ الطبعة الأولى / المطبعة الحسينية .

(٦٠) المصدر السابق : نفس الصفحة .

أوصلهم بنفقة وانصرف ثم أقبل علي فقال : ياأسلم الجوع الذي أسهرهم[٦١] .

وفي الطبري قـالت المرأة لـه : « جـزاك الله خيراً أنت أولى بهـذا الأمر من أمير المؤمنين ، فيقـول : قـولي خيراً إنـك إذا جئت أمير المـؤنين وجـدتني هنـاك إن شـاء الله »[٦٢] .

وكان عمر يتعهد الفقراء ويرعاهم وكان يهدف من طوافه بـالليل في النـاس مصلحة الأمة وراحتها ، ومن ذلك : تعهده لعجوز عمياء مقعدة حيث كان يـأتيها بما يصلحها دون أن يعلم به أحد[٦٣] .

وكان ابن الخطـاب يصطحب عبـد الرحمن بن عوف ويحرس المـدينـة ويصلي طـوال الليل وفي ليلة من الليالي التي كان يحرس بها بعض التجار القادمين إلى المـدينـة وعنـدما سمع بكاء صبي في أحد البيوت المجاورة واستفسر من أمه عن ذلك فقال مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة من البكاء ؟ فقالت : ياعبد الله إني أشغله عن الطعام فيأبى ذلك . قال : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للمفطوم . قال : وكم عمر ابنك ؟ قالت : كذا وكـذا شهراً . فقـال ويحـك لا تعجليـه عن الفطـام . فلما صلى الصبح وهـو لا يستبين للنـاس قراءته من البكاء قال : بؤساً لعمر . كم قتل من أولاد المسلمين ثم أمر مناديـه فنـادى ، لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام »[٦٤] .

ومن أروع الأمثلة على سهر الإمام لمصلحة الأمة والوقوف على حـال الرعيـة ومعرفـة المظلـوم والمحتـاج وتلبيـة مطـالب المـواطنين مـا رواه أسلم عن عمر بن الخطـاب قـال : « خرجت ليلة مع عمر إلى ظاهر المدينة فلاح لنا بيت شعر فقصدنـاه ، فـإذا فيـه امرأة تمخض وتبكي . فسألها عمر عن حـالهـا فقـالت : أنـا امرأة عربيـة ، وليس عنـدي شيء ، فبكى عمر وعاد يهرول إلى بيته فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب هل لك في أجر سـاقـه الله إليـك ؟ وأخبرهـا الخبر . فقـالت : نعم ، فحمل على ظهره دقيقـاً وشحماً

(٦١) البداية والنهاية لابن كثير : ٧ / ١٣٦ تاريخ الأمم والملوك : ٥ / ٢١ .

(٦٢) تاريخ الأمم والملوك / الطبري : ٥ / ٢١ .

(٦٣) البداية والنهاية / ابن كثير : ٧ / ١٣٥ .

(٦٤) البداية والنهاية / ابن كثير : ٧ / ١٣٥ ـ ١٣٦ .

وحملت أم كلثوم ما يصلح للولادة وجاءوا فدخلت أم كلثوم على المرأة ، وجلس عمر مع زوجها ـ وهو لا يعرفه ـ يتحدث ـ فوضعت المرأة غلاماً فقالت أم كلثوم : يـاأمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام ، فلما سمع الرجل قولها استعظم ذلك وأخذ يعتذر إلى عمر فقال عمر : لا بأس عليك ثم أوصلهم بنفقة وما يصلحهم وانصرف »[٦٥] .

فالدولة لا تقوم بالتجسس إلا بما يحقق صالح المجتمع وذلك كتتبع أهل الريب والضلالة ووضع العيون عليهم حفظاً للأمن والنظام وتأميناً لراحة المواطنين .

أو تقوم بالتجسس للوقوف على حال الرعية ومعرفة الفقراء والمحتاجين لمد يد العون والمساعدة بعد معرفتهم على وجه الحقيقة .

ولذا كان عمر بن الخطاب يطوف الليل ليعرف حال الرعية حتى إذا ما رأى خللاً تداركه وكان يقول : « لو ضاعت شاة بالفرات لخشيت أن أسأل عنها يوم القيامة »[٦٦] .

وأما غير ذلك من كشف الأسرار فهو ممنوع « فعن عبد الرحمن بن عوف أنه حرس مع عمر بن الخطاب ليلة بالمدينة فبينما هم يمشون شب لهم سراج في بيت فانطلقوا يؤمونه حتى إذا دنوا منه إذ باب مجاف على قوم لهم فيه أصوات مرتفعة ولغط فقال عمر رضي الله عنه وأخذ بيد عبد الرحمن فقال : أتدري بيت من هذا ؟ قلت : لا . قال : هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شرب فما ترى . قال عبد الرحمن : أرى قد أتينا ما نهى الله عنه ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ فقد تجسسنا فانصرف عنهم عمر رضي الله عنه وتركهم »[٦٧] .

المطلب الثالث : التجسس على العدو :

التجسس على الحربيين جائز شرعاً ، بل مفروض على إمام المسلمين في حالة قيام حرب بين المسلمين وغيرهم ، لأن التخطيط السليم في المعركة يتوقف على معرفة أسرار

---

(٦٥) المرجع السابق : ٧ / ١٣٦ .

(٦٦) معالم القربة في طلب الحسبة / ابن الإخوة : ص ٢١٦ طبعة كمبرج ١٩٣٧ .

(٦٧) سنن البيهقي : ٨ / ٣٣٣ .

العدو وتحركاته وكشف مخططاته ، وقال الحافظ في حديث صلح الحديبية الطويل : « فيه استجاب تقديم الطلائع ، والعيون بين يدي الجيش ، والأخذ بالحزم في أمر العدو لئلا ينالوا غرة بالمسلمين »(٦٨) .

فالتجسس على العدو عمل مشروع لحماية الدولة من الاعتداء ولتكون الدولة على اطلاع تام بتحركات الأعداء ومخططاتهم وما يبيتونه ضد المسلمين .

وعلى المسلمين أن لا يقفوا مكتوفي الأيدي يتخطفهم الناس بل عليهم الحذر والانتباه واليقظة ومعرفة الأعداء ومخططاتهم قبل أن يبدأوا بتنفيذها ، وهذا أمر استعملته الدول في القديم والحديث ، وقد أشارت المادة رقم (٢٤) من لائحة لاهاي إلى مشروعية الوسائل اللازمة للحصول على معلومات عن العدو وعن أراضيه(٦٩) .

ومن الأمور الهامة لدى كل دولة إرسال الجواسيس والانتباه وأخذ الحذر ، ومعرفة تحصينات الأعداء ومواقع كتائبه وعدته وعتاده ، وإن هذه الأمور من الحزم ، والحازم يحذر عدوه على كل حال . يحذر المواثبة إن قرب والغارة إن بعد والكمين إن انكشف والاستطراد إن ولى والمكر إن رآه وحيداً(٧٠) .

وإن التجسس ضرورة من ضرورات الحرب وكثيراً ما تلجأ إليه الدول ، وقد كان رسول الله ﷺ يستعمل الجواسيس في الحرب من الصحابة فإنهم رضي الله عنهم قد ذهبوا للتجسس وفي الطلائع في مواضع كثيرة . كما مر ذكره ، ومن الصحابة الذين بعثهم الرسول ﷺ للتجسس والاستكشاف : حذيفة ونعيم بن مسعود وعبد الله بن أنيس وخوات بن جبير وعمرو بن أمية وسالم بن عمير وبسبسة(٧١) .

والذين يتجسسون على العدو مجاهدون أبطال ، اختاروا أن يخدموا وطنهم ودينهم في أصعب ميدان ، بل تتجاوز خدمتهم ميدان القتال ولهذا بذلت الدول الحديثة محاولات

---

(٦٨) لامع الدراري على جامع البخاري : ٧ / ٢٢٨ .

(٦٩) القانون الدولي الحديث : د . أبو هيف : ص ٨٤٥ الطبعة السابعة .

(٧٠) عيون الأخبار : ١ / ١١٢ .

(٧١) لامع الدراري على جامع البخاري للكنكوهي : ٧ / ٢٢٩ .

للتفرقة بين الجاسوس المحترف الذي يجمع المعلومات يتكسب من بيعها . وبين الجندي المخلص الذي يجمع المعلومات إخلاصاً لوطنه ، فبينما الجاسوس المحترف مجرم همه أن يكسب المادة ، وهدفه تحقيق أغراض شخصية نجد أن الجاسوس الذي يتجسس لوطنه على العدو يفيد دولته بجهوده ومثله مثل الجندي في ميدان القتال ولكن محاولات الدول الحديثة في التفرقة بين الجاسوس المحترف المجرم والجاسوس الجندي المخلص قد باءت بالفشل[٧٢] .

ومن ضرورات بقاء الدولة وحمايتها أن لا يغفل الحاكم عن بث الجواسيس على أعدائه ورصد تحركاتهم ومعرفة نواياهم وأسرارهم مع الحذر الدائم لأن العدو يتحين له غفلة ليتمكن منه في غرة ولذلك يجب أن لايستهين القائد بالعدو مهما كان ضعيفاً .

ومن الحذر عدم الاستهانة بقوة العدو ، يقول صاحب عيون الأخبار :

« خرجت خارجة بخراسان على قتيبة بن مسلم فأهمه ذلك ، فقيل له : ما يهمك منه وجه إليهم وكيعا بن سود ، فإنه يكفيكهم فقال : لا ، إن وكيعاً رجل به كبر يحتقر أعداءه ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه ، فيجد عدوه منه غرَّة »[٧٣] .

وتتقدم وسائل التجسس بتقدم الأمم يكون طريق حصول الدولة على المعلومات المتعلقة بالمنشآت الحربية أو الصناعية الرئيسية ، واكتشاف التحركات العسكرية - وهذا أمر لابد منه ، ويسبق وقوع هجوم مباغت - أو يكون بواسطة الأقمار الصناعية والتصوير الجوي واستخدام التكنولوجيا المتقدمة .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالاستعداد فقال : **﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قُوةٍ وَمِن رِبَاطِ الخَيْلِ تُرهبونَ به عَدُوَّ الله وَعَدُوَكُم وآخرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾**[٧٤] .

---

(٧٢) قانون الحرب لعبد العزيز جميع ورفقاه : ص ١٧٥ .

(٧٣) عيون الأخبار : ١ / ١١١ .

(٧٤) سورة الأنفال : آية ٦٠ .

وإن التجسس على العدو ومعرفة المعلومات عنه مبكراً يمكن المسلمين من التخطيط السليم وهو من أسباب القوة . وهو مظهر من مظاهر اليقظة والحذر والتأهب الدائم .

فالمعرفة المبكرة عن العدو وإمكاناته العسكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية والمعنوية ، ومواطن القوة والضعف في حصونه ومخططاته كل ذلك من أسباب قوة المسلمين وتوفير المعرفة السابقة لهم لتجنب المفاجأة والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُم** ﴾(٧٥) .

وعن عامر الجهني قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** « ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي ، ألا أن القوة الرمي »(٧٦) .

ومما كتب من إنشاء القاضي الفاضل رحمه الله تعالى مما يكتب لصاحب سيف أو قلم : « وتفقد الأسطول المقيم بالميناء تفقداً يستوعب أسباب إصلاحه وأذك العيون على سواحله ، فلم يخل أمر العدو من طارق ليل ، وخاطف نهار ، وذدهم عن بغتات هجومهم بما يبلغهم عنك من دوام التيقظ والاستظهار . واستنهض الرجال في نوائب الحزم وحوادثها وصرفهم على موجبات التجددات وبواعثها »(٧٧) .

وإن التجسس على العدو عمل جهادي ينال فاعله من الأجر كما ينال المرابط في سبيل الله تعالى : « حيث يبذل روحه في سبيل الله وأجره على الله كبير . وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : من مات مرابطاً في سبيل الله أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل ، وأجري عليه رزقه وأمن من الفتان ، وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع »(٧٨) .

وهؤلاء جنود أقوياء مجاهدون ، إذا كان هدفهم خالصاً لله تعالى ، فإن ماتوا ، فهم شهداء

---

(٧٥) سورة النساء : آية ٧١ .

(٧٦) أبو داوود بشرح عون المعبود : ٧ / ١٩١ .

(٧٧) صبح الأعشى : ١٠ / ٤٤٩ .

(٧٨) سنن ابن ماجه : ٢ / ٩٢٤ حديث رقم (٢٧٦٧) .

أبرار : كما يقول تعالى : ﴿ **الَّذينَ آمَنُوا يقاتِلونَ في سَبِيلِ اللهِ** ﴾[٧٩] .

ويقول الله سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ **فليقاتِلْ في سَبِيلِ اللهِ الَّذينَ يَشْرُونَ الحياةَ الدُّنيا بالآخِرَةِ وَمن يُقاتِلْ في سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً** ﴾[٨٠] .

ويقول الله تعالى : ﴿ **والَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عرَّفَها لَهُمْ** ﴾[٨١] .

☆ ☆ ☆

---

(٧٩) سورة النساء : آية ٧٦ .

(٨٠) سورة النساء : آية ٧٤ .

(٨١) سورة محمد (ﷺ) : آية ٤ ـ ٦

المبحث الثاني

التجسس غير المشروع

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول : التجسس المؤدي إلى الوقوف على العورات :

إن التجسس المؤدي إلى فضح العورات لا تسمح به الشريعة الإسلامية بحال من الأحوال ، بل نهت عنه . فتجسس المسلم على أخيه المسلم حرام بالإجماع ، كما أن التجسس على الذميين حرام أيضاً وذلك لقول الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إثمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعضُكُم بَعْضَاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيهِ مَيْتَاً فَكَرِهتُمُوه واتقُوا اللهَ إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ** ﴾[1] .

ففي هذه الآية الكريمة النهي صراحة عن التجسس وتتبع عورات المسلمين والبحث عن ذلك وعن معايبهم والكشف عما ستره الله تعالى ، وتناول الذميين بحرمة التجسس عليهم أيضاً . وعده بعض العلماء من الكبائر[2] .

وقد نهى الله عن التجسس نهياً عاماً . ويدخل في ذلك أنواع التجسس سواء أكان ذلك لحب الاستطلاع أم لكشف العورات أم لخدمة جهة من الجهات ويشمل الحاكم والمحكوم لأن الخطاب للجميع .

وأخرج أبو داود عن أبي برزة الأسلمي قال : خطبنا رسول الله ﷺ قال : « يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته »[3] .

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٢ .

(٢) تفسير الآلوسي : ٢٦ / ١٥٧ .

(٣) سنن أبي داوود : ٢ / ٥٦٨ ، الجامع لأحكام القرآن الكريم : ١٦ / ٣٣٢ .

كما ورد عن النبي ﷺ قوله : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً »[٤] .

كما روي عن النبي ﷺ قوله : « إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم »[٥] .

وقد ورد النهي والتحذير عن التهمة بلا سبب موجب لها ، وأن كل ما لم تعرف له إمارة صحيحة وسبب ظاهر كان حراماً واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظن الفساد به والخيانة محرم بخلاف من اشتهره الناس بتعاطي الريب والمجاهرة بالخبائث »[٦] .

والتجسس المؤدي إلى فضح العورات حرام ، وأن كل مسلم عليه أن يأخذ بما ظهر ، ولذلك يفهم من معنى الآية الكريمة ومجموعة الأحاديث أنها تؤدي إلى أن على المسلمين أن يأخذوا بما ظهر ولا يتبعوا عورات إخوانهم المسلمين ويبحثوا عن عيوبهم سواء أكانوا أحاداً أم جماعات .

وقد عد بعض الفقهاء الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون من التجسس وهو حرام[٧] .

ولا يجوز التجسس ولا تتبع عورات المسلمين سواء أسبق ذلك ظن السوء أم لا . وقد قرن الله نهيه عن التجسس مع نهيه عن الظن بالناس ، والغيبة وهي مما لا يرضاه الخلق والدين لما في ذلك من كشف عورات سترها الله تعالى ، وكان الأولى أن يحافظ عليها ، وأن تحترم كل أسرة من أسر المجتمع .

---

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي باب البر والصلة رقم (٢٥٦٣) جـ ٤ / ١٩٨٥ الطبعة الأولى ، صحيح البخاري بشرح فتح الباري رقم (٦٠٦٦) جـ ١٠ / ٤٨٤ وسنن البيهقي : ٨ / ٣٣٣ .

(٥) سنن أبي داوود : ٢ / ٥٧٠ ، وسنن البيهقي : ٨ / ٣٣٣ .

(٦) تفسير القرطبي : ١٦ / ٣٣٢ .

(٧) روح المعاني : ٢٦ / ١٥٨ .

وتتبع عورات الناس ليس من مكارم الأخلاق ، وإن حب الاستطلاع على أسرار الناس ليس من شيم المسلمين ولذلك يكف عنه كل إنسان سوي عنده ضمير حي ، ومراقبة لله تعالى . وإن مثل هذه الأعمال تعد من سفاسف الأمور ومحقرات الأعمال .

ومن توجيهات الإسلام المحافظة على عورات الناس وسترها قول الرسول ﷺ : « من ستر عورة مؤمن فكأنما استحيا موؤدة من قبرها »[٨] .

فلا يجوز التجسس ولو من مسئول ما لم تظهر الشبهة أو خبر الثقة ، أو أن تكون هناك حرمة يفوت تداركها كالزنا والقتل ، فيجوز في مثل هذه الحالة التجسس حذراً من فوات مالا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات .

ولا يجوز الاستنصات على سرائر الناس سواء أكان من باب الفضول أم من المسئولين ، إلا في حالة وجود أمارة دالة على ارتكاب محظور[٩] .

وقد روى عمر بن الخطاب أنه دخل على قوم يتعاقرون على شراب في أخصاص فقال : قد نهيتكم عن المعاقرة فعاقرتم ، ونهيتكم عن الإيقاد في الإخصاص فأوقدتم ؟ فقالوا : ياأمير المؤمنين قد نهاك الله عن التجسس فتجسست ، ونهاك عن الدخول بغير إذن فدخلت فقال عمر : هاتان بهاتين وانصرف »[١٠] .

كما أن في قصة عمر رضي الله عنه وعبد الرحمن بن عوف التي رواها البيهقي في السنن الكبرى وقد تقدمت في هذا البحث تدل على أنه لا يجوز تتبع عورات المسلمين ، وأن يأخذ الناس بما ظهر دون التجسس أما التجسس ابتداء فإنه لا يجوز .

وعن مولى لعقبة بن عامر قال : قلت لعقبة بن عامر : إن لنا جيراناً يشربون الخمر . قال : استر عليهم . قال ما أستر عليهم ، أريد أن اذهب أجيء بالشرط عليهم قال : فقال له عقبة : ويحك مهلاً عليهم ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : من رأى عورة

---

(٨) سنن أبي داوود : ٢ / ٥٧١ الطبعة الأولى .

(٩) روح المعاني : ٢٦ / ١٥٨ .

(١٠) الأحكام السلطانية للماوردي : ص ٢٥٣ الطبعة الثانية .

فسترها كان كمن استحيا موؤدة من قبرها[١١] .

ولذلك لا يجوز التجسس على الناس والنظر إلى عوراتهم أو الاستماع إلى أسرارهم سواء أكان ذلك من أحاد الناس تطفلاً أم من المسئولين ولأي سبب من الأسباب كما أنه لا يجوز من جماعات الناس لخدمة جهة من الجهات ، وقد أمر الله بغض النظر عن العورات الظاهرة ونهى عن التجسس وأن التغليظ الوارد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة متجهة إلى أحاد الناس وجماعاتها ويشمل الحاكم والمحكوم .

وإن من خرج عن الآداب العامة والأخلاق الفاضلة فإنه يعزر من قبل الإمام . وقد اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز للشخص أن يقتص من حقه من أحد دون السلطان[١٢] إلا أن لصاحب البيت دفع الشر عن نفسه وماله وذلك لوجوب دفع الضرر كدفع الصائل ، فمن أريدت نفسه أوحرمته أو ماله ولو قل فله دفعه بأسهل ما يظهر اندفاعه به ولو لم يندفع بالخيف له أن يدفعه بالثقل ولو بقطع عضو من أعضائه فإن لم يندفع إلا بالقتل قتله على اختلاف بين الفقهاء بضرورة الأخذ بالأخف فالأخف ، وإن دمه هدر[١٣] .

ونظراً لحرمة المساكن ، وحرمة عورات المسلمين فإن من نظر إلى عورة مسلم من شق باب أو ثقب أو نحوه فإن لصاحب البيت رميه بحصاة أو حديدة ، إلا أن الفقهاء اختلفوا في طريقة دفعه وضمانه لعين الناظر على النحو التالي :

الرأي الأول : إن من اطلع في بيت إنسان من ثقب أو شق باب أو نحوه فإنه يجوز لصاحب البيت دفعه وإن لم يندفع بالشيء الخفيف جاز دفعه بالثقيل ، ولو رماه صاحب البيت بحصاة أو طعنه بعود فقلع عينه أو أصيبت نفسه فهو هدر .

---

(١١) مسند أحمد بن حنبل : ٤ / ١٥٨ .

(١٢) فتح الباري ١٢ / ٢١٦ .

(١٣) الهداية ٤ / ١٦٤ ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج ٨ / ٣١ مع الحواشي الطبعة الأخيرة . منتهى الإرادات ٢ / ٤٩٣ ، المغني والشرح الكبير ١٠ / ٣٥١ ، الخرشي علي خليل ٨ / ١١٢ ، شرح الزرقاني على مختصر خليل ٨ / ١٠٩ ، دار الفكر بيروت . البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٨ / ٣٤٤ ط ٢ مصورة .

قال بذلك الشافعية[١٤] والحنفية[١٥] والحنابلة[١٦] وبعض المالكية[١٧] .

الرأي الثـاني : إن من اطلع من بيت إنسـان من ثقب أو شق بـاب أو نحوه فرمـاه صاحب البيت بحصاة أو طعنه بعود فقلع عينه أو أصيبت نفسه فإنـه يضمن قـال بـذلـك المالكية[١٨] وبعض الحنفية[١٩] .

الأدلة

أدلة الرأي الأول :

استدلوا بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه أبو هريرة : لو أن امرأ اطلع عليـك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح[٢٠] .

واستدلوا بحديث رسول الله ﷺ : من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حل لهم أن يفقئوا عينه ففقئوا عينه فلا دية له ولا قصاص »[٢١] .

واستـدلوا بحـديث أنس رضي الله عنـه : « أن رجلاً اطلـع في بعض حجر النبي ﷺ فقام إليه بمشقص أو مشاقص وجعل يختله ليطعنه »[٢٢] .

وجه الاستدلال :

في الأدلة السابقـة جواز رمي من يتجسس لـدفع أذاه ولو لم ينـدفع بـالشيء الخفيف جاز دفعه بالأقوى ، وإن أصيبت نفسه أو بعضه فهو هدر .

---

(١٤) روضة الطالبين ١٠ / ١٩١ ، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج مع الحواشي ٨ / ٣٠ .

(١٥) الفتاوى الخيرية ٢ / ١٩٧ ، الفتاوي الهندية ٦ / ٨٩ .

(١٦) المغنى على مختصر الخرقي ١٠ / ٣٥٥ مطبوع مع الشرح الكبير ، منتهى الإرادات ٢ / ٤٩٤ .

(١٧) شرح منح الجليل ٤ / ٥٦١ .

(١٨) شرح منح الجليل ٤ / ٥٦٠ .

(١٩) حاشية الطحطاوي على الدر المختار ٤ / ٢٦٧ .

(٢٠) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ١٢ / ٢٤٣ / حديث رقم (٦٩٠٢) .

(٢١) أبو داوود ٢ / ٦٣٥ ، ابن الجارود في المنتقى ص ٢٦٧ ، الترغيب والترهيب ٣ / ٦٨٨ .

(٢٢) صحيح البخاري بفتح الباري ١٢ / ٢٤٣ حديث رقم : (٦٩٠٠) .

ولقد هم رسول الله ﷺ أن يطعن من تطلع عليه من جحر في بابه عليه الصلاة والسلام دون علمه وما كان الرسول يفعل ما لا يجوز أن يفعله أو يؤدي إلى ما لا يجوز[٢٣] .

وهو ما يفهم من حديث سهل بن سعد الساعدي : « أن رجلاً اطلع في جحر في باب رسول الله ﷺ ، ومع رسول الله مدي يحك به رأسه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينيك . قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإذن من البصر »(*) .

وإن في هذا الحديث نصاً على أنه لا حرج على من قتل بحديدة أو عود من تطلع من جحر أو كوة أو ثقب عمداً دون شبهة ، ويظهر من النص أنه يحق له أن يدفعه بمثل هذا أو يحذفه بحصاة أو يضربه بعود فإنه لا ضمان عليه سواء فقأ عينه أو أصاب طرفه أو نفسه وليس مع النص قياس[٢٤] .

وعند الحنابلة[٢٥] لا يجب تقديم الإنذار ، واختاره ابن حجر العسقلاني وقال : « وهو الصحيح لقوله في الحديث : يختله[٢٦] ليطعنه »[٢٧] .

أدلة الرأي الثاني :

استدل بعض الحنفية لهذا الرأي بحديث : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله إلا بإحدى ثلاث نفر : النفس بالنفس ، والثيب الزاني ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[٢٨] .

---

(٢٣) فتح الباري ١٢ / ٢٤٥ ، تكلمة المجموع ١٨ / ٣٧ .

(☆) صحيح البخاري بفتح الباري ١٢ / ٢٤٣ حديث رقم (٦٩٠١) .

(٢٤) فتح الباري ١٢ / ٢٤٥ ، المغني على مختصر الخرقي ١٠ / ٣٥٦ .

(٢٥) منتهى الإرادات ٢ / ٤٩٤ .

(٢٦) يختله : الختل : الإصابة على غفلة دون إنذار وختله : خدعه والتخاتل التخادع (مختار الصحاح ص ١٦٩) .

(٢٧) فتح الباري ١٢ / ٢٤٥ .

(٢٨) سنن أبي داوود ٢ / ٤٧٩ ، سنن الدارمي ٢ / ١٣٨ ، سنن الترمذي ٤ / ١٠ ، الجامع الكبير للسيوطي ١ / ٩٢٣ .

وجه الاستدلال بهذا الحديث :

الحديث يقتضي عدم سقوط عصمته ، كما لو نظر من الباب المفتوح أو دخل بيته ونظر فيه(٢٩) .

واستدلوا(٣٠) بقوله ﷺ : « في العين نصف الدية »(٣١) .

إن الحديث عام ، ولأن مجرد النظر لا يبيح الجناية عليه كما لو نظر من الباب المفتوح . وكما لو دخل بيته ونظر فيه ، ونال من امرأته ما دون الفرج لم يجز قلع عينه(٣٢) .

وقالوا (٣٣) بأنه لو نظر إنسان لعورة آخر بغير إذنه فلا يستبيح فقء عينه ، فالنظر إليه في بيته أولى أن لا يستباح به فقء عينه ولا سقوط ضمانها عمن فقأها ، وكذا إذا كان المنظور في بيته وتجسس الناظر إلى ذلك قصداً فإنه أولى أن لا يستباح به فقء العين(٣٤) .

وقد وجهوا حديث أبي هريرة بأن المقصود به هو التغليط والإرهاب والزجر عن التطلع على العورات والسرائر ، وأن الرسول ﷺ رماه لينبهه على أنه فطن إليه أو ليدفعه عن ذلك غير قاصد فقء عينه ، وأما لو انفقأت عينه خطأ فالجناح منتف وهو الذي قصد منه من نفي الجناح في الحديث . وأما الضمان فلا ذكر له ، ولذلك لايجوز قصد العين ، وإن عليه الضمان إذا قصدها ، وإن عليه أن يقدم الإنذار ويدفعه بالأسهل ولا يلجأ إلى قلع العين سواء قصد الناظر التطلع على العورات أم لم يقصده(٣٥) .

---

(٢٩) حاشية الطحطاوي ٤ / ٢٦٧ .

(٣٠) حاشية الطحطاوي ٤ / ٢٦٧ .

(٣١) الحديث في سنن أبي داوود كما يلي : (قضى رسول الله ﷺ في العين القائمة السادة لمكانها بثلث الدية) ٢ / ٩٤٦ .

(٣٢) حاشية الطحطاوي على الدر المختار ٤ / ٢٦٧ .

(٣٣) شرح منح الجليل ٤ / ٥٦١ .

(٣٤) شرح منح الجليل على مختصر خليل ٤ / ٥٦١ .

(٣٥) شرح منح الجليل على مختصر خليل ٤ / ٥٦١ .

ومن هنا نلاحظ تأكيد حرمة كشف الأسرار والنظر إلى العورات فعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما رجل كشف ستراً ، فأدخل بصره قبل أن يؤذن له ، فقد أتى حدّاً ، ولا يحل له أن يأتيه ، ولو أن رجلاً فقأ عينه لهدرت ، ولو أن رجلاً مر على باب لا ستر له فرأى عورة أهله ، فلا خطيئة عليه ، إنما الخطيئة على أهل البيت »[٣٦] .

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ « سئل عن الاستئذان في البيوت فقال : من دخلت عينه قبل أن يستأذن ويسلم فلا إذن له ، وقد عصى ربه »[٣٧] .

ومن هنا أوجب الإسلام الاستئذان في دخول البيوت ، قال الألوسي« فالإذن واجب على خلق الله أجمعين »[٣٨] .

وعن عمر بن الحارث قال : حدثني عبد الله بن سالم عن محمد بن الوليد قال : حدثنا يزيد بن شريح أن أبا حي المؤذن حدثه أن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لامرىء مسلم أن ينظر إلى جوف بيت حتى يستأذن ، فإن فعل فقد دخل ، ولا يؤم قوماً فيخص نفسه بدعوة دونهم حتى ينصرف ، ولا يصلي وهو حاقن حتى يتخفف »[٣٩] .

وعن أنس بن مالك أن أعرابياً أتى بيت رسول الله ﷺ فألقم عينه خصاص الباب ، فأخذ سهماً أو عوداً محدداً فتوخى ليفقأ عين الأعرابي فذهب فقال : أما أنك لو ثبت لفقأت عينك »[٤٠] .

وفي رواية أخرى : « عن أنس قال : كان النبي ﷺ قائماً يصلي ، فاطلع رجل في

---

(٣٦) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد ١٧ / ٣٤٢ ، ط ١ / ١٣٧٣ ، الترغيب والترهيب ٣ / ٦٣٥ .

(٣٧) الترغيب والترهيب ٣ / ٦٨٩ ، ومثله في الأدب المفرد ص ٣٧٤ رقم (١٠٨٩) في رواية أبي هريرة ومثله في أبي داوود ٢ / ٦٣٥ .

(٣٨) تفسير روح المعاني ١٨ / ٢١٦ .

(٣٩) الأدب المفرد / البخاري : ص ٣٧٥ رقم (١٠٩٣) ، الترغيب والترهيب ٣ / ٦٩١ .

(٤٠) الأدب المفرد / للبخاري ص ٣٧٤ حديث رقم (١٠٩١) .

بيته فأخذ سهماً من كنانته فسدد نحو عينيه »[٤١] .

والرسول ﷺ قدوة للمسلمين وقد بيّن كيفية الدخول والاستئذان على البيوت فعن عبد الله بن بسر صاحب النبي ﷺ : إن النبي ﷺ إذا أتى باباً يريد أن يستأذن لم يستقبله ، جاء يميناً و شمالاً فإن أذن له ، وإلا انصرف »[٤٢] .

فلا يجوز أن يستقبل المستأذن الباب بل يتنحى حتى لا تقع عينه على ما لا يجوز أن يطلع عليه ، و لهذا يقول عمر بن الخطاب : « من ملأ عينه من قاعة بيت قبل أن يؤذن له فقد فسق »[٤٣] . ويتضح مما سبق أن الرأي الأول هو الصواب والله أعلم .

وأما مسترق السمع الذي يقف على الباب يستمع الأخبار ففيه وجهان :

الأول : أنه يلحق بالنظر إلى العورات قياساً على حصول الضرر في كل من التطلع إلى العورات أو الاستماع إليها .

الثاني : أنه لا يلحق بالنظر إلى العورات لأن النظر إلى العورات فيه ضرر أشد من الضرر الحاصل في الاستماع إليها . واختاره صاحب فتح الباري وقال : « وهو الصحيح ، لأن شرط القياس المساواة أو أولوية المقيس وهنا بالعكس »[٤٤] .

والتجسس على عورات الناس حرام سواء أكان بالتطلع أم بالاستنصات والاستماع ، وسواء أكان ذلك من الأفراد والجماعات أم من الحاكم وذلك لورود النهي عن التجسس صراحة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة كما مر آنفاً .

ومن هنا فلا يجوز التجسس إلا لشبهة دالة على ريبة أو جناية لا يعرف فاعلها ، فيجوز التحري والتجسس على أهل الريب لمعرفة الجاني ، ومن هذا عمل رجال المخابرات عموماً لمعرفة الخطرين على الأمن لوضع الضوابط التي تدفع شرهم .

---

(٤١) الأدب المفرد / البخاري ص ٣٦٧ حديث رقم (١٠٦٩) .

(٤٢) الأدب المفرد / البخاري ص ٣٧٠ حديث رقم (١٠٧٨) .

(٤٣) الأدب المفرد / البخاري ص ٣٧٤ حديث رقم (١٠٩٢) .

(٤٤) فتح الباري ١٢ / ٢٤٥ .

كما يجوز سؤال الأسرة وتحريها عن شخص معين تقدم لخطبة فتاة لهم ، وذلك لمعرفة مكانته الاجتماعية وسلوكه وأخلاقه ، فمن حق ولي الأمر أن يبحث عن هذا الشخص الذي تقدم للمصاهرة لمعرفته على حقيقته .

وأما التجسس دون سبب فإنه حرام ومفاسده الاجتماعية كثيرة وكما يقول العقاد : « لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة ، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات ، ومنها الأسرار »[٤٥] .

وقد بيّن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الدولة تأخذ بالظاهر وأن مَنْ أعلن خلقاً حسناً لا يظن به إلا الخير ، والله أعلم بالسرائر[٤٦] .

ويقول الغزالي : « فلا ينبغي أن يسترق السمع على دار غيره ليسمع صوت الأوتار ، ولا يستنشق ليدرك رائحة الخمر ، ولا أن يمس ما في ثوبه ليعرف شكل المزمار ، ولا أن يستخبر من جيرانه ليخبروه بما يجري في داره ، نعم لو أخبره عدلان ابتداء من غير استخبار بأن فلاناً يشرب الخمر في داره ، أو بأن في داره خمراً أعده للشرب فله إذ ذاك أن يدخل داره ، ولا يلزمه الاستئذان ويكون تخطى ملكه بالدخول للتوصل إلى دفع المنكر ، وتقبل شهادة العدل الواحد »[٤٧] .

وفي حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول بعض المالكية : « يشترط أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر عالماً بها ، ويشترط ظهور المنكر من غير التجسس ولا استراق سمع ، ولا استنشاق ريح ، ولا بحث عما أخفي بيد أو ثوب أو حانوت فإنه حرام »[٤٨] .

وقال ابن الجوزي فيما ينقله المقدسي : « لا ينبغي له أن يسترق السمع على دار

---

(٤٥) عبقرية عمر ص ٩٧ .

(٤٦) يقول عمر رضي الله عنه (أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فإنه من أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً (انظر تاريخ الأمم والملوك ـ الطبعة الأولى ـ المطبعة الحسينية ٥ / ٢٦ ط) .

(٤٧) إحياء علوم الدين ٢ / ٣٢٤ .

(٤٨) الخرشي على سيدي خليل ٣ / ١١٠ دار صادر / بيروت .

غيره ، ليسمع صوت الأوتار ، ولا يتعرض للشم ليدرك رائحة الخمر ، ولا يمس ما قد ستر بثوب ليعرف شكل المزمار ولا يستخبر جيرانه ليخبروه بما جرى ، بل لو أخبره عدلان ابتداء أن فلاناً يشرب الخمر فله إذ ذاك أن يدخل وينكر »[٤٩] .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « من تحلم بحلم ولم يره كلف أن يعقد بين شعيرتين ، ولن يفعل ، ومن استمع إلى حديث قوم صب في أذنه الآنك[٥٠] يوم القيامة ، ومن صور صورة عذب ، أو كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ »[٥١] .

وعن سعيد المقبري يقول : « مررت على ابن عمر ومعه رجل يتحدث فقمت إليهما فلطم في صدري فقال : إذا وجدت اثنين يتحدثان فلا تقم معهما ، ولا تجلس معهما ، حتى تستأذنهما . فقلت أصلحك الله ياأبا عبد الرحمن : إنما رجوت أن أسمع منكما خيراً »[٥٢] .

المطلب الثاني : التجسس لحساب العدو :

هذه فئة تتجاوز في عملهاكل عرف وخلق ، وقد سكت صوت ضميرها ، وجرت وراء زخارف الدنيا وعرضها الزائل تشتري عرضاً دنيوياً بدين ووطن غاليين .

والتجسس لحساب العدو ذو خطورة بالغة على البلاد إذ أنه يعيش في كنف المسلمين ، ويطلع على ما لا يطلع عليه غيره ، فخطره عظيم لأنه ليس مكشوفاً للمسلمين .

ومثل هؤلاء خارجون على طاعة الله ، وهم كثيرون في صفوف المسلمين ، ولم يغفل عنهم المسلمون في يوم من الأيام . وقد أمر الله بالاستعداد للعدو ولمثل هؤلاء الأعداء

---

(٤٩) الآداب الشرعية والمنح المرعية / المقدسي ١ / ٣٢٠ ، الطبعة الأولى - مطبعة المنار ١٣٤٩ هـ .

(٥٠) الآنك : بمد الهمزة وضم النون وهو الرصاص المذاب الخالص . انظر : المصباح المنير ص ٢٦ ومختار الصحاح ص ٢٩ .

(٥١) الترغيب والترهيب / المنذري ٣ / ٦٩٢ مكتبة الجمهورية العربية / مصر ١٩٧١ . الأدب المفرد / للبخاري ص ٣٩٧ حديث رقم (١١٥٩) ط٢ ١٣٧٩ .

(٥٢) الأدب المفرد / البخاري ص ٤٠٠ حديث رقم (١١٦٧) ط٢ ١٣٨٩ هـ .

وغيرهم قال تعالى : ﴿ **وَأَعِدّوا لَهم ما استَطَعْتُم من قُوَّةٍ ومن رِباط الخيلِ تُرهبون بِه عَدوَّ الله وَعدُوَكُم وآخرينَ من دُونِهم لاَ تَعلمونَهم اللهُ يَعلمهُمْ** ﴾(٥٣) وإن إعداد الدولة للعدة فيه إضعاف لهؤلاء ، وإرهاب لهم ، وهم أعداء الإسلام في كل زمان ومكان ، ذلكم المنافقون الذين يظهرون مالا يبطنون ، ويسرون مالا يعلنون .

ولهذا فإن على الدولة أن تتفحص مواطنيها لتعلم الفاسدين فتتوقاهم ، فتبعدهم عن مواطن المسئولية ، وتتكتم على كل من تشك في أمره ، وتلقي القبض على أعوان العدو .

وهؤلاء هم المخذلون والمرجفون ، الذين يهمهم هزيمة المسلمين ونصرة العدو ولا يتوانون بإبلاغه بأنباء المسلمين وخططهم ، مع ما نهى القرآن الكريم عن موالاة الكفار بقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا لاَ تَتخِذُوا اليهودَ والنصارى أولياء بعضهم أولياءُ بعضٍ ومَن يتولَّهم مِنْكُم فإنَّه مِنْهم إنَّ الله لاَ يَهْدي القَومَ الظَالِمين** ﴾(٥٤) .

وقد نهى الرسول ﷺ المسلمين من أن يخذلوا بعضهم بعضاً يقول الرسول ﷺ : « ما من امرىء يخذل امرأ مسلماً في موضع تنتهك فيه حرمته ، وينتقص فيه من عرضه إلاَّ خذله الله تعالى في موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرىء ينصر امرأ مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل في موطن يحب فيه نصرته »(٥٥) .

وقد جعل الله ما يعلمه الإنسان من حديث أخيه الإنسان أمانة من الأمانات عليه ألاَّ يخون هذه الأمانة يقول تعالى : ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا الله والرَّسولَ وتَخُونُوا أَماناتِكُم وَأَنْتُم تَعْلَمون** ﴾(٥٦) . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

---

(٥٣) سورة الأنفال آية (٦٠) .

(٥٤) سورة المائدة آية (٥١) .

(٥٥) سنن أبي داوود ٢ / ٥٦٩ .

(٥٦) سورة الأنفال آية (٢٧) .

ويقول الرسول ﷺ فيما يرويه جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا حدّث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة »[٥٧] والأمانة لا يجوز إضاعتها بإشاعتها .

ولا يجوز الاتصال بالعدو وإعطاؤه معلومات عن المسلمين لأن في ذلك خيانة لله وللرسول وللمؤمنين ، وهذا أمر له عقوبة في الشريعة الإسلامية وسنأتي عليه عند الكلام على عقوبة الجاسوس والوقاية من التجسس .

المطلب الثالث : التجسس المزدوج :

التجسس لحساب دولتين مختلفتين هو أخطر أنواع التجسس وأضرها وهو ما يعرف بالتجسس المزدوج .

وإن الفئة التي تقوم به من أخطر الفئات ، والقائمون بمثل هذا العمل محترفون إما رغبة في التجسس ، أي أنهم يتجسسون من أجل التجسس ويمارسونه هواية ويجدون في ذلك اللذة والراحة النفسية ، وقد يكون لهثاً وراء مغانم ومطامع مادية يبيعون الأخبار لمن يدفع لهم الثمن ، وقد يصدقون وقد يكذبون ، وقد يصدقون مع دولة ويخدعون أخرى[٥٨] .

وإن من يقوم بهذا العمل إنما يكون مغامراً محباً للإضرار بالناس ، فهو يزود الدولتين بالمعلومات وقد ينقل لإحدى الدولتين أسراراً هامة ويزود الأخرى بمعلومات كاذبة وقد يزود الدولتين بأسرار هامة وذلك ركضاً وراء الأجر ، ويبيع الأسرار إلى أي من الدولتين دون تمييز .

ومثل هذا يبيع الأسرار التي يحصل عليها باعتبارها مهنة مفضلة ، ولا يميز بين الأطراف المتنازعة إلا فيما يخص الثمن الذي يحصل عليه ، فقد امتهن الجاسوسية دون الميل إلى دولة دون أخرى[٥٩] .

---

(٥٧) سنن أبي داوود ٢ / ٥٦٦ .

(٥٨) صبح الأعشى ١٠ / ٢١٤ ، المجلة العسكرية الأردنية عدد ٤٣ آب ١٩٦٥ .

(٥٩) الجاسوسية الأميريكية / وندروثولي / ترجمة وليم خوري ط٢ ص ٦ .

وقد حذّر عبد الحميد الكاتب في رسالته إلى أحد قواد مروان بن محمد من هذا فقال له : « اعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك ، وربما كانوا لك وعليك ، فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه »(٦٠) .

وهذا الجاسوس المحترف الذي يبيع الأسرار ويعمل لكلا الدولتين غالباً ما يكون جامد الإحساس ، بارد العاطفة لا يعترف بعقيدة ولا حب عنده لوطن ، وله عدة وجوه .

وإن الأخبار التي يأتي بها هؤلاء تؤخذ مع الحذر الشديد لأنه لا يعتمد عليهم ، حيث يعطون المعلومات لمن يدفع الثمن الأعلى ، وقد يعطونها كذباً ويختلقونها اختلاقاً ، ولذلك لابد من الحيطة والحذر في أخذ الأخبار عنهم .

يقول الهرثمي : « ذكروا عن بعض الحكماء في الحرب أنه كان يصيّر جاسوس عدوه جاسوساً له ، على أن يصدقه ويصدق عنه ، ويعطيه عن ذلك أكثر مما يعطيه عدوه(٦١) » . ولا يكون هذا إلا مع الحيطة والحذر .

والتجسس المزدوج لا يقره عرف ولا قانون ، ولا تستطيع دولة من الدول أن تعتمد على هؤلاء إلا بمقدار ما تغدق عليهم من الأموال ، كما فعلت المخابرات الأميركية حيث استعملت رجلاً من برلين وهو جاسوس مزدوج يعمل لحساب حكومة ألمانيا الشرقية ويزودها بمعلومات كاذبة ، وفي نفس الوقت ينقل إلى الحلفاء أسرارها الهامة(٦٢) .

ولكن المسلم ولاؤه لا يكون إلاَّ لله رب العالمين وإذا ما أعطى الولاء إلى غير المسلمين فإنما يكون منافقاً له عقوبة صارمة . لأن الإيمان مكانه واحد في قلب المؤمن والعداوة والبغضاء ، والصداقة ، والود ، والكراهة لا تجتمع في قلب واحد في زمان واحد لجهة واحدة(٦٣) .

---

(٦٠) صبح الأعشى ١٠ / ٢١٤ .

(٦١) مختصر سياسة الحروب ص ٢٤ .

(٦٢) الجاسوسية الأميريكية ص ٦ .

(٦٣) تفسير الفخر الرازي ٨ / ١٣٥ .

المبحث الثالث

في عقوبة الجاسوس

التجسس على المسلمين إما أن يكون مسلماً أو معاهداً أو حربياً وسنتكلم عن كل في المطالب التالية :

المطلب الأول : في عقوبة الجاسوس المسلم :

للفقهاء في عقوبة الجاسوس المسلم ثلاثة آراء :

الرأي الأول :

إن المسلم إذا صار عيناً للكفار يقتل .

وهو مذهب مالك رضي الله عنه وأحد الوجهين في مذهب أحمد بن حنبل وبعض أصحابه[1] .

الرأي الثاني :

إن المسلم إذا صار عيناً للكفار يقتل في حالة تكرار التجسس ، واتخاذه عادة وبه قال عبد الملك بن الماجشون من المالكية[2] .

الرأي الثالث :

إن المسلم إذا صار عيناً للكفار لا يقتل وإنما يعزره الإمام بما يراه : من ضرب أو

---

(١) مواهب الجليل ٣ / ٣٥٧ ، زاد المعاد ٢ / ١٨٩ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ الخرشي على خليل ٣ / ١١٩ ، عمدة القاري ١٤ / ٢٩٧ ، شرح مسلم ١٢ / ٦٧ ، اختلاف الفقهاء ص ١٧٣ ، طبعة شخت . الشرح الكبير على مختصر خليل ٢ / ١٨٢ ، مطبوع بهامش حاشية الدسوقي .

(٢) تبصرة الحكام ٢ / ١٩٤ ، مطبوع من فتح العلي المالك . مواهب الجليل ٣ / ٣٥٧ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ ، زاد المعاد ٣ / ٢٥٩ ، مواهب الجليل ٣ / ٣٥٧ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ ، زاد المعاد ٣ / ٢٥٩ ، عمدة القاري ١٤ / ٢٩٧ ، شرح مسلم ١٢ / ٦٧ .

حبس . وهو مذهب الشافعية والحنفية وظاهر مذهب أحمد بن حنبل وبعض المالكية والأوزاعي وابن قيم الجوزية[٣] .

الأدلة

أدلة الرأي الأول :

مصدر الاستدلال لهذا الرأي يعود لقصة حاطب بن أبي بلتعة[٤] رضي الله عنه التالي : « عن علي رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير بن العوام والمقداد بن الأسود قال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ[٥]فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا ، فإذا نحن بالظعينة[٦] ، فقلنا : أخرجي الكتاب . فقالت : ما معي من كتاب . فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لتلقينّ الثياب . فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : ياحاطب ما هذا ؟ قال : يارسول الله لا تعجل علي ، إني كنت امرءاً ملصقاً في

---

(٣) الأم ٤ / ١٦٦ ، المهذب ٢ / ٢٤٢ ، شرح مسلم ١٢ / ٦٧ ، الخراج ص ٢٠٦ ، شرح السير الكبير ٥ / ٢٠٤٠ ، زاد المعاد ٢ / ١٨٩ ، تبصرة الحكام ٢ / ١٩٤ ، مطبوع مع فتح العلي المالك . تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ ، فقه الأوزاعي ٢ / ٤٠٧ ، اختلاف الفقهاء ص ١٧٣ ، طبعة شخت .

(٤) حاطب بن أبي بلتعة : يمني له حلف بمكة في بني أسد ، شهد بدراً والحديبية ، وهو صحابي جليل ، نزل فيه قول الله تعالى ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا ...** ﴾ وقيل إنه لما سمع خطاب الله له بالإيمان غشي عليه من شدة الفرح . عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : أن عبداً لحاطب جاء إلى رسول الله ﷺ يشكو حاطباً إليه فقال : يارسول الله ليدخل حاطب النار فقال رسول الله ﷺ : كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدراً والحديبية (أخرجه الترمذي . انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ ص ٦٤ الطبعة الأولى ١٩٥٣) .

(٥) روضة خاخ : مكان بين مكة والمدينة .

(٦) الظعينة : المرأة في الهودج . ولا يقال ظعينة إلا وهي كذلك لأنها تظعن بارتحال الزوج ، وقيل أصلها : الهودج وسميت بها لأنها تكون فيه . (مختار الصحاح ص ٤٠٤ ، المصباح المنير ٣٨٥) والظعينة المقصودة هنا هي : أم سارة مولاة لقريش أو لعمران بن صيفي ، كما أنها مولاة لبعض بني عبد المطلب بن مناف ، كانت تغني بمكة وقدمت المدينة ، وأعلنت إسلامها ثم ارتدت عن الإسلام ، ووضع لها حاطب بن أبي بلتعة عشرة دنانير ، وكساها برداً وطلب لها حفظ الكتاب ما استطاعت ، وجعلته في إزارها ، أو في ذوائب شعرها ، وأمرها حاطب أن لا تمر بالطريق فإن به حرساً ، فسلكت غير الطريق المعتاد (انظر : السيرة الحلبية ٣ / ١٠ ، ١١ . عمدة القاري ١٤ / ٢٥٤) .

قريش ولم أكن من أنفسها ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم ، وأموالهم ، فأحببت أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : لقد صدقكم . فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله أن يكون اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم »(٧) .

وجه الاستدلال :

استدل أصحاب الرأي الأول بهذا الحديث على أن المسلم إذا صار عينا للكفار يقتل .

ويفهم من نص الحديث أن العلة في عدم قتل حاطب رضي الله عنه : كونه من أهل بدر ، لا كونه مسلماً فقط .

ولذلك لم يقل رسول الله ﷺ : لا يحل قتله إنه مسلم . بل قال : « وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم » .

وهذه العلة لا توجد في غير حاطب . فلو كان الإسلام مانعاً من قتله لم يعلل بأخص منه ، لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير .

وعلى ذلك يكون : عدم قتل الجاسوس المسلم خاصاً بأهل بدر فقط ، وأما ما عداهم من المسلمين فيقتل من تجسس منهم لصالح العدو ، لإضراره بالمسلمين وسعيه بالفساد في الأرض ، وهو بعمله هذا أضر من المحاربين(٨) .

ولذلك عده ابن القاسم وسحنون بأنه كالزنديق ولا تقبل توبته وتضرب عنقه ، ويؤيده ابن رشد بقوله : هذا قول صحيح(٩) .

---

(٧) صحيح البخاري ٤ / ٧٢ ـ ٧٣ ، طبعة الشعب ، أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ٣١٠ ، ٣١١ ، حديث رقم (ب ١٠٨) ، سنن البيهقي ٩ / ١٤٦ ، البخاري بشرح عمدة القاري ١٤ / ٢٥٤ ، عيون الأثر ١ / ٢٤٩ .

(٨) زاد المعاد ٢ / ٧٦ ، الخرشي على خليل ٣ / ١١٩ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ ، تفسير الألوسي ٢٨ / ٦٦ .

(٩) تبصرة الحكام ٢ / ١٩٤ ، عمدة القاري ١٤ / ٢٩٧ ، مختصر الخرشي ٣ / ١١٩ ، التاج الإكليل لمختصر خليل ٣ / ٣٥٧ ، (هامش مواهب الجليل) .

أدلة الرأي الثاني :

استدل صاحب هذا الرأي بحديث حاطب المتقدم .

ووجه الاستدلال بهذا الحديث : أن حاطب بن أبي بلتعة أخذ في أول فعله ، ولم يتكرر منه التجسس فلم يقتل لهذا السبب .

فلا يكون المرء جاسوساً حقيقة إلا إذا اتخذ التجسس عادة ومهنة له ، وفي هذه الحالة فقط ، فإن عرف بذلك تكون عقوبته القتل ، وإن لم يعرف بذلك عزر ، وضرب ونكل ، وذلك إن كانت فلتة عارضة دون قصد كما حصل من حاطب[١٠] .

أدلة الرأي الثالث :

استدل أصحاب هذا الرأي بما يلي :

استدلوا[١١] بقصة حاطب بن أبي بلتعة في الحديث المتقدم .

وجه الاستدلال بهذا الحديث :

لو أن عمل حاطب يستوجب القتل كفراً أو حداً لما تركه رسول الله ﷺ ، ولقتله ، وانتماؤه إلى أهل بدر لا يمنع من ذلك ، فلو كان مستوجباً القتل بدرياً كان أم غير بدري لقتله الرسول ﷺ ، وكذلك لو لزمه القتل حداً [١٢] .

ولذا يؤخذ من قصة حاطب أن المسلم إذا تجسس للكفار على المسلمين كأن يكتب إليهم بعورات المسلمين وأقر بذلك ، فإنه لا يقتل ، ولكن أمره إلى الإمام وله أن يعاقبه عقوبة موجعة تعزيراً .

واستدلوا بما رواه فرات بن حيان رضي الله عنه أن النبي ﷺ : « أمر بقتله وكان

---

(١٠) تبصرة الحكام ٢ / ١٩٤ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ ، شرح مسلم ١٢ / ٦٧ .

(١١) المهذب ١ / ٢٤٢ ، الأم ٤ / ١٦٦ ، زاد المعاد ٣ / ٢٥٩ ، طبعة ١٩٧٠ ، شرح السير الكبير ٥ / ٢٠٤٠ ، المجموع ١٨ / ١٢٢ .

(١٢) أحكام القرآن الكريم ٥ / ٣٢٦ ، شرح السير الكبير ٥ / ٢٠٤١ ، الأم ٤ / ١٦٦ ، الخراج ص ٢٠٦ ، عمدة القاري ٤ / ٢٥٧ ، المهذب ٢ / ٢٤٢ .

عيناً لأبي سفيان ، فمر بمجلس الأنصار فقال : إني مسلم ، فذهبوا به إلى رسول الله ﷺ فقالوا : إنه يزعم أنه مسلم ، فقال : إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان »[١٣] .

وجه الاستدلال بهذا الحديث :

حديث فرات دليل على أنه لا يجوز قتل المسلم إذا تجسس لصالح العدو حيث رفع رسول الله ﷺ عنه القتل بعدما أعلن إسلامه . فقد تركه رسول الله ﷺ بعد أن سمع عنه أنه مسلم وسماه مؤمناً .

وقد سماه الله مؤمناً كما سمى حاطباً مؤمناً أيضاً : قال تعالى في حق فرات : ﴿ **يَاأَيُّها الَّذين آمنوا لاَ تَخُونوا ..** ﴾[١٤] وقال تعالى في حق حاطب بن أبي بلتعة ﴿ **يَاأَيُّها الَّذين آمنوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي ...** ﴾[١٥] وقيل إن حاطباً لما سمع قول الله فيه غشي عليه من الفرح بخطاب الإيمان . ولهذا قالوا : للإمام أن يقرر العقوبة بما يراه مناسباً ورادعاً له ولغيره ، ولا تصل هذه العقوبة إلى القتل[١٦] .

كما استدلوا بقوله ﷺ : « لا يحل دم امرىء مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس . والثيب الزاني . والمارق من الدين التارك للجماعة »[١٧] .

وجه الاستدلال بهذا الحديث :

استدل أصحاب الرأي الثالث بهذا الحديث على عدم جواز قتل الجاسوس المسلم بأن هذا الحديث يدل على أنه لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام إلا أن يقتل أو يزني

---

(١٣) مسند أحمد بن حنبل ٤ / ٢٣٦ ، أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ٣١٣ . نيل الأوطار ٨ / ٩ ، (والحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . انظر المستدرك ٢ / ١١٥) .

(١٤) سورة الأنفال : آية ٢٧ .

(١٥) سورة الممتحنة : آية ١ .

(١٦) اختلاف الفقهاء ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ، أحكام القرآن ٥ / ٣٢٦ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ .

(١٧) سنن الدارمي ٢ / ١٣٨ .

بعد إحصان ، أو يكفركفراً بيناً بعد إيمان ثم يثبت على الكفر .

وليست الدلالة على عورة المسلمين أو تأييد الكافرين وإبلاغهم أن المسلمين يريدون منهم غرة ليحذروها بكفر بيّن يستوجب القتل ، كما كان من حاطب ، ومثله ، لم يترك ما به حكمنا بإسلامه فلا نخرجه من الإسلام ، ما لم يترك ما به دخل فيه ، لأن الذي حمله على مثل هذا العمل هو الطمع لا خبث الاعتقاد .

فالجاسوس المسلم إن تجسس للعدو طمعاً أو لأي سبب عارض فلا يخرجه تجسسه عن الإيمان إذا كان اعتقاده سليماً كما كان حاطب حين قصد اتخاذ اليد[١٨] .

إن كل ما حكم به رسول الله ﷺ على حاطب وغيره عام حتى يأتي عنه دلالة على أنه أراد به خاصاً ، أو عن جماعة من المسلمين الذين لا يمكن أن يجهلوا له سنة ، أو يكون ذلك موجوداً في كتاب الله ، وقد حكم رسول الله ﷺ بعدم قتل حاطب ، وهذا الحكم عام ، ولا مخصص له[١٩] .

إن العقوبات غير الحدود ، فأما الحدود فلا تعطل بحال ، وأما العقوبات فاللإمام تركها على الاجتهاد ، وله تعزيره بما يراه مناسباً ، ويؤكد الشافعي رحمه الله تعالى أن للإمام العفو عنه إذا كان من ذوي الهيئة كما يفهم من قصة حاطب رضي الله عنه ، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « تجافوا » وقيل في الحديث ما لم يكن حداً فإن كان هذا من الرجل ذي الهيئة بجهالة كما كان الأمر من حاطب بجهالة ، وكان غير متهم فإنه يتجافى له وإن كان من غير ذي الهيئة كان للإمام تعزيره[٢٠] .

والحديث الشريف روته السيدة عائشة رضي الله عنها : « أن رسول الله ﷺ قال : أقيلوا[٢١] ذوي الهيئات[٢٢] عثراتهم[٢٣] إلا الحدود »[٢٤] .

---

(١٨) الأم ٤ / ١٦٦ ، شرح السير الكبير ٥ / ٢٠٤١ ، تفسير القرطبي ١٨ / ٥٣ ، عمدة القاري ١٤ / ٢٥٧ .

(١٩) الأم ٤ / ١٦٧ .

(٢٠) الأم ٤ / ١٦٧ ، اختلاف الفقهاء ص ١٧٣ .

(٢١) أقيلوا : أمر من الإقالة بمعنى اعفوا .

(٢٢) الهيئات : الحالة التي يكون عليها الإنسان من الأخلاق الحميدة فيستحب التجافي فيها .

(٢٣) عثراتهم : زلاتهم التي يتوجب فيها التعزير .

(٢٤) مسند أحمد بن حنبل ٦ / ١٨١ ، سنن أبي داوود باب الحدود ٢ / ٤٤٦ ، سنن البيهقي ٩ / ١٤٧ (بلفظ تجافوا) .

وفيه كما قال الطبري : « إذا ظهر للإمام رجل من أهل الستر أنه قد كاتب عدواً من المشركين ينذره بما أسره المسلمون فيهم من عزم ، ولم يكن معروفاً بالغش للإسلام وأهله ، وكان ذلك من فعله هفوة وزلة من غير أن يكون لها أخوات يجوز العفو عنه كما فعل رسول الله ﷺ بحاطب عن جرمه بعدما اطلع عليه من فعله »[٢٥] .

كما أقام عمر بن الخطاب حد الجلد على قدامة بن مظعون لما شرب الخمر ، وهو بدري ، مع كون عمر بن الخطاب هو المخاطب بقصة حاطب ، حيث قال له الرسول ﷺ : « أنه شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطلع أهل بدر فقال : افعلوا ما شئتم » . « فلو كان شهود بدر يمنع من إقامة الحد لما أقام عمر بن الخطاب الحد على قدامة بن مظعون » . وقد شهد بدراً وعمر معني بقصة حاطب وهو أحرص الناس طاعة لرسول الله ﷺ[٢٦] .

الترجيح

إذا لم يكن للمتجسس المسلم تأويل معقول ، أو عذر مقبول ، بحيث قام بعمله خدمة للأعداء وموالاة للكفار ، وكراهية للمسلمين وحقداً عليهم ، ومحبة للأعداء وإخلاصاً لهم ، واستهتاراً بحق المسلمين ومصيرهم فإنه يجوز للإمام أن يأمر بقتله تعزيراً ليكون عبرة لغيره . وذلك إذا رأى الإمام أن هذا الشخص ميئوس منه وأنه في حكم المرتد ما لم يحدث توبة صادقة وتكون هذه منه زلة عارضة فإنه كالمارق من الدين المفارق للجماعة .

وحيث إن عمله يضر بالمسلمين ضرراً فادحاً ، وإن كل ما فيه ضرر يزال ، والتخلص منه أولى من أن يفسد غيره ويضر بالصالح العام . وإذا لم يتخلص منه إلا بالقتل فإنه يأمر بقتله .

والجاسوس يضر بمصلحة الأمة وقد يحدث القتل بسببه لكثير من المسلمين ، ولذلك فإن أمره إلى الإمام وللإمام أن يأمر بقتله تعزيراً ، لأن قتله هنا عقوبة من العقوبات التعزيرية والأمر فيها يكون موكولاً إلى الإمام صاحب السلطة الشرعية فله أن يتركه

---

(٢٥) عمدة القاري ١٤ / ٢٥٧ .

(٢٦) فتح الباري ٨ / ١٢٠ .

بـالتوبـة ويكتفي بتعـزيره بمـا هـو أخف من القتـل كالجلـد والسجن على حسب جرمـه لاعتبارات يراها الإمام ويقدرها سياسة .

وقـد عفـا رسول الله ﷺ عن قتل حـاطب مـع أنـه يستحـق القتـل ، وعلل رسول الله ﷺ سبب عدم قتله بأنه شهـد بـدراً ولـذا رغب رسول الله ﷺ عـدم قتلـه لمصلحـة رآها وقدرها بعد أن نظر إلى حالة حاطب وصدقـه ومـا قـدمـه للإسلام من جهود فرأى المصلحة في تركه دون أدنى عقوبة ، وإن كثيراً من الناس من تؤثر فيهم الكلمة أو السؤال والإشارة إلى الذنب أكثر مما يؤثر السنان . ولو كان حاطب يستحق القتل حداً ما تركـه رسول الله ﷺ لأن الحدود لا تعطل بحال .

والذين يقولون بعدم جواز قتل الجاسوس يقولون بجواز قتل الفرد الداعي للبـدعـة ، وقتل من لا يزول فسـاده وشره إلا بـالقتـل ، فـأولى أن يقـولـوا بجـواز قتـل الجـاسـوس المسلم ، إذ إن ضرره أشد وجرمه أخطر خاصة في هذا العصر الذي أصبح فيـه للجـاسوس خطورة عظيمـة لسرعـة نقل الأخبـار ، وإفسـاد الخطـط ، ودقـة النقل وسرعـة التحليـل بالآلات الألكترونية .

ونظراً لما يترتب على عمل الجـاسوس من أضرار على المسلمين ومصـالحهم العـامـة ، لمـا يتمتع به هذا الجاسوس المؤتمن في نظر المخططين فيطلع على ما خفي على أدهى جواسيس العدو ، من خطط حربية ومراكز استراتيجية ويعمل بحرية تامة ويرى بكل وضوح فإنه لابد وأن تكون العقوبة رادعة ومساوية للجرم الـذي اقترفـه ، وتقـدير ذلـك إلى الإمـام الذي يتولى الولاية العامة بإقامة العقوبات حداً وتعزيراً ، وإن أمر الجـاسوس إلى الإمـام فإن رأى العفو والتأديب الخفيف فله ذلك وإن رأى تعزيره بما هو أشـد فلـه ذلـك فـإن تأديب ذي الهيئة أخف من تـأديب أهل البـذاءة والسفـاهـة وهو هنـا تـأديب استصلاح وزجر ويختلف بحسب اختلاف الذنب .

وإن المسلم الذي يخبر الكفـار بـأخبـار المسلمين لا يعقل أن يكون مسلمـاً صـادقـاً في إيمانه ، فالمسلم لا يقوم بهذا العمل في مقابل هـذه الخطورة الكبيرة على الوطن والـدين . وفي هذا موالاة للكفار ، وإهمال للمصلحة العامة للمسلمين ، وعدم تقدير للمسئولية ، وإذا

ما رجع هذا عن ذنبه وتاب إلى الله وكان ذنبه زلة عارضة كالذي كان من حاطب حيث ما لبث أن أكدها بالإيمان والصدق في العقيدة فإنه يعفى عنه .

فمن أخبر الأعداء بخطط المسلمين وأنهم أرادوا بالعدو مكيدة فإن ذلك لا يخرجه عن دينه إذا كان ما فعله زلة عارضة مع اعتقاد سليم . أما إذا استمر على ذلك وكان يخبر العدو حقداً على المسلمين وموالاة للكفار وحباً لهم فهو مرتد كافر يجب قتله واجتثاثه من المجتمع .

وإن بعض الفقهاء يترفق بالجاسوس المسلم فيرتب له عقوبة أخف من عقوبة الجاسوس غير المسلم لسبب إسلامه ولكن خيانة المسلم أشد ضرراً على المسلمين من الجواسيس الأجانب ، ولابد من وضع عقوبة رادعة تناسبه فتؤدبه وتردع ضعفاء النفوس ويسلم الوطن والدين من الخطر .

وقد عزر رسول الله ﷺ بالهجر في حق الثلاثة الذين تخلفوا عنه في تبوك ، كما عزر بالنفي للمخنثين حيث أمر بإخراجهم من المدينة .

ولذا تكون العقوبة على فعل محرم أو ترك واجب ، وتختلف باختلاف الجرائم ، كبرها وصغرها وتبعاً لحال المجرم وظروفه .

المطلب الثاني : في عقوبة الجاسوس غير المسلم :

الجاسوس من غير المسلمين إما أن يكون ذمياً أو مستأمناً أو محارباً وسنتكلم عن عقوبة كل فيما يلي :

عقوبة الجاسوس الذمي[٢٧] :

للفقهاء في عقوبة الجاسوس الذمي الذي يتجسس على عورات المسلمين لصالح الأعداء أو يؤوى عيونهم ثلاثة آراء :

---

(٢٧) الذمي : الذمة في اللغة : الأمان والعهد (انظر مختار الصحاح : ص ٢١٠) وأهل الذمة هم : المعاهدون من النصارى واليهود وغيرهم ممن يقيم في دار الإسلام بمقتضى عقد ذمة يعقد معهم وهو عقد أبدي يسري عليه وعلى ذريته من بعده وبهذا العقد يصبح مواطناً له الحقوق وعليه الواجبات (انظر الزوائد في فقه الإمام أحمد / محمد =

الرأي الأول : ينتقض عهده ويخرج من ذمته ويخير فيه الإمام بين القتل أو الصلب أو الاسترقاق . وبه قال مالك رضي الله عنه وأصحابه والأوزاعي والإمام أحمد في الراجح عنده وأبو يوسف[٢٨] والشيعة الزيدية والإمامية[٢٩] .

الرأي الثاني : إن الجاسوس الذمي لا يقتل ولا ينتقض عهده بالتجسس إلا أن يكون شرط عليه ذلك . قال بذلك أكثر الشافعية وهو الرأي المرجوح عند الحنابلة[٣٠] .

الرأي الثالث : إن الجاسوس الذمي إذا تجسس للعدو على المسلمين لا يقتل ولا ينتقض عهده ، شرط عليه ذلك أم لا . ولكنه يوجع عقوبة في كلا الحالتين ، وبه قال الحنفيّة إلاّ أبا يوسف فإنه قال يقتل ، وقال به بعض الشافعية[٣١] .

الأدلة

أدلة الرأي الأول :

استدل أصحاب هذا الرأي على أن الجاسوس الذمي الذي يتجسس على عورات

= عبد الله آل حسين ص ٣٥٥ ، العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي د . مصطفى شحاته الحسيني ص ٨٢ ، وأحكام أهل الذمة ٢ / ٢٢ ، وأحكام الذميين والمستأمنين ص ٢٤٠ ، وغياث الأمم ص ١٦٣ ، بدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٤) .

(٢٨) مواهب الجليل لشرح مختصر خليل ٣ / ٣٥٧ ، والتاج الإكليل لمختصر خليل ٣ / ٣٥٧ ، مطبوع مع مواهب الجليل والشرح الكبير على مختصر خليل ٢ / ٢٠٥ ، مطبوع مع حاشية الدسوقي وفقه الأوزاعي ٢ / ٤٠٦ ، وأحكام أهل الذمة ٢ / ٨٠٠ ، والأحكام السلطانية لأبي يعلى ص ١٥٩ ، والخراج لأبي يوسف ٢٠٦ وفتح الباري ٦ / ١٦٩ وعمدة القاري ١٤ / ٢٩٧ ، شرح النووي ١٢ / ٦٧ ، ونيل الأوطار ٨ / ١٠ ، والتنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع ص ١٢٢ / المطبعة السلفية واختلاف الفقهاء للطبري ص ٥٨ .

(٢٩) البحر الزخام / أحمد بن يحي المرتضى ٦ / ٤٦٦ ، النهاية للطوسي ص ٥٩٣ .

(٣٠) مواهب الصمد في حل ألفاظ الزبد / ابن حجازي الفشني ص ٣٤٩ مطبوع مع غاية البيان ، غاية البيان على زبد الشيخ أحمد بن رسلان / شمس الدين الرملي : ص ٣٤٩ وروضة الطالبين ١٠ / ٣٢٩ والميزان الشعراني الكبرى ٢ / ١٩٠ ، الأم ٤ / ١١٨ وكفاية الأخيار ٢ / ١٣٥ وأحكام أهل الذمة / ابن القيم الجوزية ٢ / ٨٠٠ ـ ٨٠٦ وتكملة المجموع ١٨ / ٢٠٥ وشرح مسلم ١٢ / ٦٧ والمهذب ٢ / ٢٥٧ وإعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين / السيد البكري ٤ / ٢٠٨ .

(٣١) شرح السير الكبير ٥ / ٢٠٤١ وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٧٧ وأحكام أهل الذمة ٢ / ٨٠٧ ـ ٨٠٨ وأحكام الذميين والمستأمنين ص ٢٤٢ وروضة الطالبين ١٠ / ٣٢٩ والميزان الشعراني الكبرى ٢ / ١٩٠ وتكملة المجموع ١٨ / ٢٠٨ وبدائع الصنائع ٩ / ٤٣٣٤ .

المسلمين لصالح الأعداء أو يؤوي عيونهم وأنه ينتقض عهده ، ويخرج من ذمته ويخير فيه الإمام بين القتل أو الصلب أو الاسترقاق بحديث فرات بن حيان[٣٢] رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر بقتله وكان عيناً لأبي سفيان فمر بمجلس الأنصار فقال : إني مسلم ، فذهبوا به إلى رسول الله فقالوا : إنه يزعم أنه مسلم فقال : إن منكم رجالاً نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان[٣٣] .

وجه الاستدلال بهذا الحديث :

إن رسول الله ﷺ أراد قتل فرات بن حيان بل أمر بقتله باعتباره عيناً لأبي سفيان . وكان يعيش في كنف المسلمين ويعتبر من رعايا الدولة الإسلامية ويعمل جاسوساً لعدوهم ، فلما عرف ﷺ أمره ، أمر بقتله ، من أجل جاسوسيته ولولا أنه أقلع عن عمله المشين ، وأعلن أنه مسلم لكان مصيره القتل . لكن الرسول ﷺ صدقه ووكله إلى إيمانه . فالمانع من قتله هو قوله : إنه مسلم وفي ذلك دليل على جواز قتل الجاسوس الذمي[٣٤] .

وقالوا : إنه قد شرط على أهل الذمة أن لا يؤووا جاسوساً في كنائسهم ، ومنازلهم بالشروط التي اشترطها عمر بن الخطاب المعروفة بالشروط العمرية على أهل الشام عندما فتحها أبو عبيدة واعترفوا بهذه الشروط .

والجاسوس عين المشركين وأعداء المسلمين فإن فعل ذلك أهل الذمة أو آووه في كنائسهم ومنازلهم انتقض بذلك عهدهم ، وحل دمهم ، وأموالهم ، فالصلح نافذ على ما أنفذه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى يوم القيامة . وإن من شروطهم أن لا يعينوا

---

(٣٢) فرات بن حيان : صحابي جليل وهو عجلي سكن الكوفة وكان قد غزا مع رسول الله ﷺ إلى أن قبض ، فنزل الكوفة وبقي فيها حتى مات .
عون المعبود : ٧ / ٣١٤ .

(٣٣) أبو داوود بشرح عون المعبود ٧ / ٣١٣ وورد في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي ٩ / ٣٨١ الطبعة الثانية دار الكتاب بيروت : (عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ قال : إني لأعطي أقواماً أتألفهم وَأكِلُ قوماً إلى ما عندهم أو إلى ما جعل الله في قلوبهم منهم فرات بن حيان) .

(٣٤) عون المعبود : ٧ / ٣١٤ والجامع لأحكام القرآن الكريم : ١٨ / ٣د ، ومختصر الخرشي على خليل : ٣ / ١١٩ وحاشية أبي داوود : ٣ / ٢ دار الكتاب العربي بيروت .

كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ، ولا يشترط ذلك عليهم بل يكتفي بشرط عمر رضي الله عنه . فإن وجد في أرض الإسلام ذمياً كاتب أهل الشرك بعورات المسلمين يقتل ليكون نكالاً لغيره وفيه نقض للعهد الذي عليهم[٣٥] .

يلزم أهل الذمة ترك ما فيه ضرر المسلمين أو آحادهم في مال أو نفس وهي ثمانية ، ذكرها أبو يعلى في الأحكام السلطانية : « الاجتماع على قتال المسلمين ، وأن لا يزني بسلمة ولا يصيبها باسم نكاح ، ولا يفتن مسلماً عن دينه ، ولا يقطع عليه الطريق ، ولا يؤوي للمشركين جاسوساً ولا يعاون على المسلمين بدلالة أعني لا يكاتب المشركين بأخبار المسلمين ، ولا يقتل مسلماً ولا مسلمة ، فإن فعلوا ذلك أو شيئاً منه نقض العهد في إحدى الروايتين »[٣٦] .

قال ابن القاسم : ينتقض عهده بهذه الثمانية أشياء وهي : « أن يجمعوا على قتال المسلمين أو يزني أحدهم بمسلمة أو يصيبها باسم نكاح أو يفتن مسلماً عن دينه أو يقطع عليه الطريق أو يؤوي للمشركين جاسوساً أو يعين على المسلمين بدلالة فيكاتب المشركين بأخبار المسلمين أو يقتل مسلماً أو مسلمة عمداً ولا فرق بين أن تشرط عليه أم لم تشرط »[٣٧] .

فالشروط التي أقرّها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أهل الذمة في ظاهرها أنه متى انتقض شيء منها انتقض عهده وحلّ دمه[٣٨] .

وإن كل ما فيه ضرر على المسلمين يجب دفعه بكل ممكن ولو بالقتل[٣٩] .

ومن شرائط أهل الذمة الامتناع عن مجاهرة المسلمين بأكل لحم الخنزير وشرب الخمر وأكل الربا ونكاح المحرمات في شريعة الإسلام ، فمتى فعلوا شيئاً من ذلك فقد خرجوا من

---

(٣٥) أحكام أهل الذمة : ٢ / ٧١٤ ، ٨٠١ ، الخراج : ص ١٥٩ ، والعدة شرح العمدة ص ٦١٩ الطبعة الثانية .

(٣٦) الأحكام السلطانية لأبي يعلى : ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣٧) الميزان الشعراني الكبرى ٢ / ١٩٠ الطبعة الرابعة .

(٣٨) العدة شرح العمدة / المقدسي : ص ٦١٩ .

(٣٩) البحر الزخار / أحمد بن يحي المرتضى : ٦ / ٤٦٦ .

الذمة وتجري عليهم أحكام الحربيين[٤٠] .

ومادام انتقض عهده بالتجسس فالإمام مخيّر فيه ويعتبر كأسير المحاربين ، لأن نقض العهد يوجب الرجوع للأصل من التخيير بين المنّ والفداء والقتل والصلب والاسترقاق ، وهذا موكول إلى أمر الإمام[٤١] .

أدلة الرأي الثاني :

إن دم الكافر مباح بدون العهد . والعهد عقد من العقود يجب الوفاء به . فإن لم يف أحد المتعاقدين بما عاقد عليه فإما أن ينفسخ العقد بذلك أو يتمكن العاقد من فسخه ، وهذا أصل مقرر في عقد البيع والنكاح وغيرهما من العقود .

والحكمة ظاهرة : فإنه التزم العقد بشرط أن يلتزم الطرف الآخر بما التزمه فإن لم يلتزمه الطرف الآخر صار العقد غير ملتزم والحكم المعلق بالشرط لا يثبت كحكم بعينه عند عدم وجود الشرط . فإن لم يشترط الكف عن ذلك في العقد لم ينتقض عهده لبقاء ما يقضي العقد من التزام أداء الجزية ، والتزام أحكام المسلمين والكف عن قتالهم[٤٢] .

ولابد من شرط إمام العصر إذ أن شرط عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أهل الشام كان في عصره ، ولا يتعداه إلى كل عصر من العصور ، فلم تكن هذه الشروط شاملة للأمة إلى يوم القيامة ولذلك لا يسري الحكم على من جاء بعدهم ما لم يعلموا اشتراطها عليهم .

ولذا فإن عقد الذمة لا ينتقض بالتجسس ما لم يشترط انتقاضه به ، فإذا شرط انتقاض العهد بالتجسس انتقض وإلا فلا . وشرطه عليهم يقتضي النقض إذا ارتكبها[٤٣] .

---

(٤٠) النهاية / الطوسي : ص ٢٩٢ .

(٤١) حاشية الدسوقي : ٢ / ٢٠٥ .

(٤٢) أحكام أهل الذمة : ٢ / ٧٩٣ .

(٤٣) الميزان الشعراني الكبرى : ٢ / ١٩٠ وأحكام أهل الذمة : ٢ / ٧١٤ وحاشية ابن عابدين ٣ / ٢٧٨ .

فإذا لم يشترط الكف عن التجسس وكل ما فيه ضرر على المسلمين في العقد لم ينتقض عهدهم . وذلك لبقاء ما يقتضي استمرار العقد من دفع الجزية والتزام الأحكام والكف عن القتال .

أما لو شرط عليهم الكف عن ذلك في العقد ففيه وجهان :

أحدهما : إنه لا ينتقض به العهد لأنه لا ينتقض بـه العهـد من غير شرط فلا ينتقض به مع الشرط كإظهار الخمر والخنزير .

الثاني : إنه ينتقض به العهد لما يلي :

١ ـ روي أن نصرانياً استكره امرأة مسلمـة على الزنـا فرُفع إلى أبي عبيـدة بن الجراح فقال : ما على هذا صالحناكم وضرب عنقه .

٢ ـ لأن عقوبة هذه الأفعال تستوفى عليه من غير شرط ، فوجب أن يكون لشرطهـا تأثير ولا تأثير إلا أن تكون ناقضة للعهد[٤٤] .

ولـذلـك لا ينتقض العهـد عنـد بعض الشـافعيـة إلا بـالامتنـاع عن دفع الجـزيـة أو الامتناع عن التزام أحكام المسلمين أو قتـالهم لأن ذلـك ينـافي الأمـان من الجـانبين الـذي يقتضيه عقد الذمة[٤٥] .

أدلة الرأي الثالث :

استدل[٤٦] الفريق الثالث بحديث حاطب بن أبي بلتعة المتقدم الذي رواه علي بن أبي طـالب ، ونزل فيـه قـول الله تعـالى : ﴿ **يَـاأَيُّهَـا الَّـذِين آمَنُـوا لاَ تَتَّخِـذُوا عَـدُوِّي وَعَدُوَّكُم أَوْلِياء** ﴾[٤٧] .

---

(٤٤) المهذب : ٢ / ٢٥٧ وكفاية الأخيار : ٢ / ١٣٥ .

(٤٥) الميزان الشعراني الكبرى : ٢ / ١٩٠ وكفاية الأخيـار : ٢ / ١٣٥ ط . الثـانيـة ١٩٣٧ وروضـة الطـالبين ١٠ / ٣٢٩ والمهذب : ٢ / ٢٥٧ .

(٤٦) المبسوط : ١٠ / ٨٦ .

(٤٧) سورة الممتحنة : الآية الأولى .

وجه الاستدلال :

إن حاطب بن أبي بلتعة بتجسسه على المسلمين وهو مسلم لم يكن فعله هذا ناقضاً لإيمانه حيث سماه الله مؤمناً بقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّها الَّذين آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُم أَوْلِياء** ﴾ وكذلك إذا فعله ذمي لا يكون ناقضاً لأمانة(٤٨) .

واستدل هذا الفريق أيضاً بحديث أبي لبابة بن المنذر المتقدم وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ **ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول** ﴾(٤٩) وقصته فيما أخبر به بني قريظة معروفة حيث استشاروه فأشار بأصبعه على حلقه يخبرهم : أنهم لو نزلوا على حكم رسول الله ﷺ قتلهم ، ومع ذلك سماه مؤمناً . فلم يكن فعله هذا ناقضاً لإيمانه فإن كان إيمان المؤمن لا ينتقض ، ولا يزول بالتجسس فكذلك لا يزول به أمان الذمي . ولا ينتقض عهده شرط عليه ذلك بالعقد أم لم يشرط(٥٠) .

إن فعل ما فيه ضرر على المسلمين معصية من المعاصي ارتكبها الذمي وهي دون الكفر في القبح والحرمة ثم بقيت الذمة مع الكفر فبقاؤها مع المعصية أولى(٥١) .

إن الذمي لو قطع الطريق وأخذ المال لم يكن فعله نقضاً لعهده ، وإن كان قطع الطريق محاربة لله ورسوله بالنص(٥٢) . وكذلك لا ينتقض عهده بالتجسس وهذا أولى(٥٣) .

إذا شرط على أهل الذمة ترك التجسس بالعقد فإن العهد لا ينتقض ، إذا فعلوه . لأنه لو لم يشترط وفعله الذمي فإنه لا ينتقض به عهده كإظهار الخمر والخنزير مع استمرار دفع الجزية والتزام أحكام المسلمين . وإن المعتبر بشرطها عليهم هو تركها ، والامتناع عن

---

(٤٨) المبسوط : نفس الصفحة .

(٤٩) سورة الأنفال : آية ٢٧ .

(٥٠) المبسوط : نفس الموضع .

(٥١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع : ٩ / ٤٣٣٤ مطبعة الأهرام القاهرة ٧٢ ١٩ .

(٥٢) قوله تعالى ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ﴾ . (المائدة : آية ٣٣) .

(٥٣) شرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤١ .

مثل هذه الأفعال وليس المقصود انتقاض العهد بفعلها ومثلها لا يخل بمقصود العقد[٥٤]

وإن الكافر يعطى الأمان ويصير ذمة للمسلمين فإن وقف من هذا الذمي أنه يخبر المشركين بعورة المسلمين ويؤوي عيونهم لم يكن هذا منه نقضاً للعهد ولكنه يعاقب على هذا ويحبس[٥٥] .

وأمر هذا الإمام فإن رأى الإمام إيقاع العقوبة عليه فعل ، بما يحقق مصلحة المسلمين فالإمام نصب ناظراً ، ومن النظر حفظ قوة المسلمين أولاً . فيتصرف الحاكم سياسة بما يحقق المصلحة العامة ويدفع الضرر عن المسلمين فللإمام إيقاع العقوبة عليهم إن رأى ذلك[٥٦] .

الترجيح :

التجسس جريمة من الجرائم ولا علاقة بينه وبين أمان الذمي .

فالذمي صار مواطناً في المجتمع المسلم وتسري عليه الأحكام كما تسري على المسلمين ، ويعاقب بالعقوبة المقررة لجريمة التجسس كما يعاقب بالعقوبات المقررة لغيرها .

ولا ينتقض عهد الذمي نتيجة لذنبه سواء أكان الذنب كبيراً أم صغيراً ، بل يعاقب بما قررته الشريعة الإسلامية من عقوبات .

والعقوبة التي تنتظر الجاسوس غير مقدرة شرعاً وإنما هي من العقوبات التي توضع على جرائم التعزير بالنسبة للمسلمين أو على الجرائم السياسية وجرائم أمن الدولة بالنسبة لغيرهم . ويفوض تقدير هذه العقوبة إلى الإمام حسب ما يراه مناسباً في تحقيق المصلحة العامة . ودرء المفسدة عن المجتمع المسلم أمر يقدر عقوبته الإمام سياسة .

وإذا كان للإمام تقدير عقوبة التعزير للجرائم التي ليس فيها حد مقدر شرعاً بالنسبة

---

(٥٤) تكملة المجموع : ١٨ / ٢٠٥ وروضة الطالبين : ١٠ / ٣٢٩ ونقله ابن القيم الجوزية في أحكام أهل الذمة : ٢ / ٨٠٧ - ٨٠٨ وشرح منهاج الطالبين ٤ / ٢٣٦ ، دار الكتب العربية / عيسى البابي الحلبي / مصر .

(٥٥) المبسوط : ١٠ / ٨٥ - ٨٦ .

(٥٦) المرجع السابق : ١٠ / ٨٦ .

للمسلمين ومنها عقوبة التجسس ، وأن التعزير قد يصل إلى حد القتل للمسلمين فلذلك للإمام أن يقتل الجاسوس الذمي عقوبة له على جرمه ودفعاً للضرر سياسة وإدارة من الحاكم لتحقيق الأمن وحفظ مصلحة الأمة .

ولذلك يقتل الجاسوس الذمي سياسة شرعية سواء أشرط عليه ذلك في العقد أم لم يشرط . لأنه لا يعقل إذا لم يشرط عليه هذا العقد أن معناه أنه يجوز أن يتجسس على المسلمين وينقل أخبارهم إلى عدوهم ويضعهم موضع المهزوم بدل أن يكونوا منتصرين .

وإن إيقاع هذه العقوبة على الجاسوس الذمي الذي عرض المجتمع المسلم والبلاد الإسلامية للخطر لا تعني أن المسلمين نقضوا عهدهم حتى ولو لم يشترط ذلك عليهم في عهدهم .

وإذا كانت عقوبة المسلم قد تصل إلى حد القتل فإنه يجوز للإمام أن يقتل الجاسوس الذمي سياسة شرعية حيث إن التعزير يكون في حق المسلمين دون غيرهم ، ولذلك للإمام قتل الجاسوس الذمي إن رأى ذلك مناسباً حسب ظروف الجريمة وجسامتها وخطورتها على الإسلام والمسلمين .

وإن فرات بن حيان رضي الله عنه قد استحق القتل ولم يأمر الرسول ﷺ بقتله إلا بسبب جاسوسيته ولولا أنه أقلع عن عمله واعتنق الإسلام وأعلن ذلك وحسن إسلامه وتاب عن فعلته لكان مصيره القتل ، وهذا مصير كل جاسوس .

☆ ☆ ☆

عقوبة الجاسوس المستأمن[٥٧]

إن الدولة الإسلامية لابد أن تكون ساهرة متيقظة في مراقبة أعدائها ، وأعوانهم ، في كل لحظة وحين ، في السلم وفي الحرب .

ولذا لابد من معرفة ومراقبة الداخلين إليها والخارجين منها من رعايا الدول المجاورة خاصة الدول المحاربة أو التي يحتمل أن تكون في حالة حرب مع المسلمين مستقبلاً .

وقد بين الفقهاء أن المستأمن لو دخل دار الإسلام بأمان لمدة محددة وكان قد شرط عليه عدم القيام بالتجسس على عورات المسلمين أو الدلالة على عوراتهم بالمكاتبة أو غيرها فإنه ينتقض عهده بذلك بالاتفاق[٥٨] .

وذلك لأن المعلق بالشرط يكون معدوماً قبل وجود الشرط ، وقد علق أمان المستأمن بشرط ألا يكون عيناً فإذا ظهر أنه عين كان حربياً لا أمان له فيقتل ، وينتقض أمانه ، وحكمه للإمام وهو كالأسير الحربي[٥٩] .

---

(٥٧) المستأمن : استأمنه : طلب الأمان . والمستأمن بكسر الميم هو : الطالب للأمان ، ويصح بالفتح اسم مفعول والتاء للصيرورة : أي صار آمناً . انظر المصباح المنير ص ٥٢٢ ومختار الصحاح : ص ٢٧ .

والأصل في الأمان : قوله ﷺ : ذمة المؤمنين واحدة ويسعى بها أدناهم (انظر النسائي في كتاب القسامة باب ١٠ صفحة ٧١٤ الطبعة الهندية وأبو داوود باب الأمانة رقم ١١) .

وهذا الأمان يكون مؤقتاً بمدة معلومة قصيرة أو طويلة كتابة أو نطقاً . وهو يختلف عن أمان الذمة إذ هو (عقد مؤبد ويعتبر صاحبه مواطناً أصيلاً تابعاً للدولة الإسلامية بمقابل الجنسية في الوقت الحاضر) ويتعلق الأمان بكل لفظ : صريحاً أو كتابة أو رسالة أو إشارة . وإذا انعقد أصبح ملزماً وللمستأمن أن يعمل بمقتضاه ويحق له أن يدخل دار الإسلام آمناً ، ولا يجوز التعرض له بسوء ، وكل مسلم يرعى هذا الأمان ويعمل بمقتضاه .

(العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي : ص ٩٧ وأحكام الذميين والمستأمنين للدكتور عبد الكريم زيدان : ص ٢٤٠ وشرح السير الكبير : ١ / ٢٤٢ والزوائد في فقه الإمام أحمد / محمد بن عبد الله آل حسين : ص ٢٥٥ وبدائع الصنائع ٩ / ٤٣٢٧ ، ٤٣٣٤) .

(٥٨) عمدة القاريء ١٤ / ٢٩٧ وعون المعبود : ٧ / ٣١٥ وفتح الباري : ٦ / ١٦٩ وشرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤٢ .

(٥٩) شرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤٢ .

وإذا نقض العهد فإنه لا يستحق تبليغ المأمن لأنه نقض عهده وفعل ما فيه ضرر على المسلمين وهو أشبه ما لو قاتلهم .

أما لو دخل مستأمن دار الإسلام بأمان لمدة محددة ولم يشرط عليه عدم القيام بالتجسس فقد اختلف العلماء في ذلك كما يلي :

الرأي الأول :

إن من دخل دار الإسلام بأمان لمدة محددة ثم يتبين أنه جاسوس ينقل أخبار المسلمين إلى العدو فإنه يقتل إلا أن يرى الإمام استرقاقه وينتقض أمانه بالتجسس . قال بذلك أبو يوسف والأوزاعي والحنابلة والمالكية[٦٠] .

الرأي الثاني :

إن المستأمن إذا كاتب العدو أو خرج بنفسه يخبرهم بعورة المسلمين ، عوقب عقوبة منكلة ويحبس ولم يقتل ولا ينتقض عهده . قال بذلك الحنفية[٦١] والشافعية[٦٢] .

الأدلة

أدلة الرأي الأول :

استدل أصحاب الرأي الأول على أن الجاسوس المستأمن إذا نقل أخبار المسلمين إلى عدوهم أنه يقتل إلا أن يرى الإمام استرقاقه وينتقض أمانه بالتجسس بما يلي :

إن الأمان لا يقتضي التجسس ، بل يقتضي الامتناع عنه ، فإن فعله المستأمن

---

(٦٠) اختلاف الفقهاء : ص ٥٨ ـ ٥٩ وأحكام أهل الذمة : ٢ / ٨٠٩ والأحكام السلطانية لأبي يعلى : ص ١٦١ الطبعة الثانية . الشرح الكبير على مختصر خليل ٣ / ١١٩ وفقه الأوزاعي : ٢ / ٤٠٦ ومواهب الجليل : ٣ / ٣٥٧ والتاج الإكليل لمختصر خليل : ٣ / ٣٥٧ ، مطبوع بهامش مواهب الجليل .

(٦١) المبسوط : ١٠ / ٨٦ ، شرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤٣ ، حاشية ابن عابدين : ٣ / ٣٧٧ .

(٦٢) روضة الطالبين : ١٠ / ٣٢٩ ، الأم : ٤ / ١٦٧ ، الميزان الشعراني الكبرى : ٢ / ١٩٠ ، نهاية المحتاج بشرح المنهاج : ٨ / ٩٩ ، الأحكام السلطانية للماوردي : ص ١٤٦ ط : ٣ ، ١٩٧٣ ، نيل الأوطار : ٨ / ١٠ ، المجموع : ١٨ / ٢٠٥ .

انتقض أمانه ، وإن الأمان الذي دخل به المستأمن بلاد المسلمين لا يتضمن كونه عيناً ، ولا يستلزمه ولو لم نجعله ناقضاً للعهد بهذا رجع إلى الاستخفاف بالمسلمين وضياع هيبتهم ولذلك يرى مالك رحمه الله وأصحابه نقض العهد بالتجسس ويصير حكمه حكم الأسير من أهل الحرب ويخير فيه الإمام(٦٣) .

وقد اختلفت الرواية عن أحمد رحمه الله فقد نص في مسائل سب الله وسب الرسول ﷺ على انتقاض العهد مع القتل وكذلك فيمن تجسس على المسلمين أو زنى بمسلمة على انتقاض عهده وقتله في غير موضع . وقياساً على ما قالته الحنابلة في الجاسوس الذمي فإنهم يقولون في المستأمن نفس القول ، لأن أمان المستأمن ليس بأقوى من أمان الذمي(٦٤) .

وما دام التجسس ينقض العهد فيخير فيه الإمام بين القتل والاسترقاق والمن بلاعوض والفداء كالأسير الحربي لأنه لا عهد ولا عقد يبقى مع النقض فأشبه اللص الحربي(٦٥) .

يلزم المستأمن ترك ما فيه ضرر على المسلمين وآحادهم في مال أو نفس وهي ثمانية أشياء ذكرها أبو يعلى منها : « ولا يؤوي للمشركين عيناً أعني جاسوساً ، ولا يعاون على المسلمين بدلالة ، ولا يقتل مسلماً ولا مسلمة ... »(٦٦) .

ولذلك يرى الإمام الأوزاعي أنه ينبذ إليه على سواء أي يعلم بسحب الأمان منه وأمره إلى الإمام إن أراد قتله أو صلبه حيث نقض عهده وخرج من ذمته(٦٧) .

---

(٦٣) الخرشي على مختصر خليل : ٣ / ١١٩ ، حاشية الدسوقي على شرح الكبير : ٢ / ١٨٢ ، عون المعبود : ٧ / ٣١٦ ، فتح الباري : ٦ / ١٦٩ وأحكام الذميين والمستأمنين / عبد الكريم زيدان : ص ٢٤٣ .

(٦٤) أحكام أهل الذمة : ٢ / ٨٠٠ ، ط : ٤ ، المغني : ٩ / ٣٥٢ ، ط : ١ .

(٦٥) المصدران السابقان : نفس الموضع .

(٦٦) الأحكام السلطانية / لأبي يعلى : ص ١٥٨ ـ ١٦١ الطبعة الثانية .

(٦٧) اختلاف الفقهاء : ص ٥٨ طبعة شخت .

أدلة الرأي الثاني :

استدل أصحاب الرأي الثاني على أن الجاسوس المستأمن يعاقب عقوبة منكلة ويحبس ولم يقتل ولم ينقض عهده بما يلي :

استدل الحنفية لهذا الرأي بحديث حاطب بن أبي بلتعة وحديث أبي لبابة بن المنذر السابقين وما نزل بهما من القرآن الكريم حيث أنه لو فعله مسلم لم يكن به ناقضاً لإيمانه فإذا فعله مستأمن فلا يكون ناقضاً لأمانه أيضاً[٦٨] .

فلو تجسس المستأمن على المسلمين فإنه لا يصير بذلك ناقضاً لأمانه بمنزلة ما لو قطع الطريق وأخذ المال فإنه لا يكون ناقضاً للعهد مع أن ذلك محاربة لله ولرسوله نصاً فهذا أولى . إلا أنه ارتكب مالا يحل له وقصد بفعله إلحاق الضرر بالمسلمين ولذا فإنه يعاقب في جميع ذلك[٦٩] .

الترجيح :

من الملاحظ أن التجسس جريمة مخلة بأمن الدولة وتهدد مصيرها ومصير الأمة وكيانها .

والمستأمن يدخل دار الإسلام بغرض التجاره أو غيرها ، والأمان الذي يعطى له يعني حمايته وحرمة دمه وصيانه شخصه طيلة مدة إقامته في البلاد الإسلامية .

والمستأمن ليس مواطناً مقيماً في الدولة الإسلامية بل أعطى الأمان وهو ما يقابل تأشيرة الدخول الدالة على الأمان والموافقة على وجوده في البلاد لمدة معينة . إن الشرط الضمني لدخول المستأمن أرض الإسلام يتضمن ترك كل ما فيه ضررعلى أمن الدولة وسلامتها وسلامة المواطنين وآحادهم من مال أو نفس أو غيره سواء شرط عليه ذلك في العقد أو لم يشترط لأن المسلمين لم يسمحوا له بدخول بلادهم وهم يعلمون أنه سيضرهم أو يضر آحادهم ، فكيف إذا شرط عليه ذلك في العقد ؟ فيكون جرمه أكبر وذنبه أعظم .

---

(٦٨) المبسوط للسرخسي : ١٠ / ٨٦ .

(٦٩) شرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤٢ .

وعقوبة التجسس عقوبة على جريمة لم تقدر شرعاً وأمر تقديرها إلى الإمام . فللإمام أن يسحب الأمان منه عقوبة له ، ويأمره بمغادرة البلاد ، وله أن يأمر بسجنه أو ضربه للاستفادة منه ، لعله يدلي ببعض المعلومات عن الشبكة التي يعمل معها ، وله أن يأمر بقتله .

ويتصرف الإمام حسب الظروف المحيطة به وحسب جسامة الجرم وخطورته ، وتصرفه إدارة وسياسة إسلامية فلعله إن أبقاه حياً يخدمه في الحصول على معلومات عن العدو ، أو يبادل به الأسرى المسلمين أو يبادل به بعض الجواسيس من المجاهدين المسلمين الذين قبض عليهم في دار الحرب .

وعقوبة القتل أشد العقوبات الرادعة التي تواجه جواسيس الأعداء ، فللإمام استخدامها في مصلحة المسلمين .

ولا يجوز التسامح والتهاون في إيقاع أشد العقوبات في حق هؤلاء حيث إن التهاون فيه يؤدي إلى ضياع حقوق المسلمين وهيبتهم أمام الدول وإغراء العدو بهم وتجرئه عليهم ، ولو خففت العقوبة لتجولوا في البلاد الإسلامية يخدمون الأعداء مستغلين تسامح المسلمين ، حيث يجدون العقوبة هينة في مقابل الأخبار المهمة التي يحصلون عليها لبلدهم ، عدا المكافآت التي تشجعهم على التضحية في نقل الأخبار .

عقوبة الجاسوس الحربي

اتفق الفقهاء ـ ما عدا الهادوية ـ على قتل الجاسوس الكافر الحربي[٧٠] .

الأدلة

استدلوا بالحديث التالي :

عن أبي سلمة بن الأكوع قال : غزونا مع رسول الله ﷺ هوازن فبينما نحن نتضحى

---

(٧٠) شرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤٣ والخراج : ص ٢٠٦ وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير : ٢ / ١٨٢ وتفسير القرطبي : ١٨ / ٥٣ وفتح الباري : ٦ / ١٦٩ ونيل الأوطار : ٨ / ١٠ وشرح مسلم : ١٢ / ٦٧ وعون المعبود : ٧ / ٣١٤ وعمدة القارى : ١٤ / ٢٩٧ والخرشي على خليل : ٣ / ١١٩ ، مواهب الجليل ٣ / ٣٥٧ .

مع رسول الله ﷺ إذ جاء رجل على جمل أحمر فأناخه ثم انتزع طلقاً من حقبة فقيد به الجمل ، ثم تقدم يتغدَّى مع القوم ، وجعل ينظر وفينا ضعفة ورقة في الظهر ، وبعضنا مشاه إذ خرج يشتد ، فأتى جمله فأطلق قيده ثم أناخه وقعد عليه فأثاره ، فاشتد به الجمل ، فأتبعه رجل على ناقة ورقاء ، قال سلمة : وخرجت أشتد فكنت عند ورك الناقة ثم تقدمت حتى كنت عند ورك الجمل ، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل ، فأنخته فلما وضع ركبته على الأرض ، اخترطت سيفي فضربت رأس الرجل فندر ، ثم جئت بالجمل أقوده عليه رحله وسلاحه فاستقبلني رسول الله ﷺ ، والناس معه ، فقال : من قتل الرجل ؟ قالوا : ابن الأكوع ، قال : له سلبه أجمع(٧١) .

وجه الاستدلال بهذا الحديث :

إن الباعث على قتله أنه اطلع على عورة المسلمين وبادر ليعلم أصحابه ، فيغتنموا غرة المسلمين ، وكان في قتله مصلحة المسلمين وقال النووي : « وفيه قتل الجاسوس الحربي وهو بإتفاق »(٧٢) .

لا يستحق الحربي تبليغ المأمن لأن دخول مثله فيه خطر على المسلمين وضرر بمصلحتهم العامة وقد قال رسول الله ﷺ : « لا ضرر ولا ضرار »(٧٣) . ولذلك يقتل جاسوس الكفار الذي ينقل أخبار المسلمين للعدو ويضر بمصالحهم ، وهو أشبه ما لو قاتلهم ، وهو جاسوس حربي قدرنا عليه في بلادنا ولذا يخير فيه الإمام بين القتل والاسترقاق والمن والفداء(٧٤) .

وإني أقول بما قال به الأئمة من أن الجاسوس الكافر الحربي الذي يطلع على عورات المسلمين وينقلها إلى العدو يستحق القتل عقوبة ، ويؤيد ذلك حديث رسول الله ﷺ

---

(٧١) صحيح مسلم بشرح النووي : ١٢ / ٦٥ البخاري بشرح عمدة القاري : ١٤ / ٢٩٧ أبي داوود بشرح عون المعبود : ٧ / ٣١٦ ومسند أحمد ترتيب الفتح الرباني : وسنن البيهقي : ٩ / ١٤٧ ونيل الأوطار : ٨ / ١٠ البخاري : ٤ / ٨٤ ط . الشعب .

(٧٢) فتح الباري : ٦ / ١٦٩ وعمدة القاري : ١٤ / ٢٩٧ وشرح مسلم : ١٢ / ٦٧ .

(٧٣) ابن ماجه رقم (٢٣٤١) ٢ / ٧٨٤ ومسند أحمد بن حنبل : ١ / ٣١٣ .

(٧٤) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج : ٨ / ٧٧ .

الذي رواه سلمة بن الأكوع والذي مر ذكره ، والدال : على أن الرسول ﷺ أمر بقتل جاسوس الكفار كما في رواية البخاري وأحمد وأبي داود ومسلم .

فالجاسوس الحربي الذي يطلع على عورات المسلمين لا بأس بقتله . وإن كان من الفقهاء من يقول باسترقاقه وجعله فيئاً للمسلمين فإن الاسترقاق لا يدفع إذايته .

قال الإمام محمد : إنه يصلب إلا أن تكون امرأة لأنها عورة وستر العورة أولى[٧٥] .

أما الهادوية فإنهم يرون قتل جاسوس الكفار والبغاة إذا كان قد قتل أو حصل القتل بسببه ، وكانت الحرب قائمة ، وإذا اختل شيء من ذلك حبس فقط . ووجهة نظرهم في هذا أنه إذا لم يقتل أو يحصل القتل بسببه يكون كأسير الحرب فالإمام مخير فيه بين القتل والاسترقاق والمن والفداء[٧٦] .

وأرى أنه لا راد لشر الجاسوس الحربي إلا القتل وهذه عقوبة تقابل الذنب الذي ارتكبه في حق المسلمين ، ولذا توضع عليه العقوبة التي تقررها الدولة للتجسس ، وهي عادة عند كثير من الدول عقوبة الإعدام . فالجاسوس عقوبته الإعدام ولا يعامل معاملة أسرى الحرب لما تنطوي عليه الأعمال التي يقوم بها من تهديد خطير لسلامة الدولة وكيانها .

وإن الدلالة على عورات المسلمين حرب على الدين الإسلامي ولذا لابد أن تكون العقوبة صارمة وهي القتل لهذا الجرم الخطير حيث أن جرم الجاسوس أشد خطورة من جرم الحربي في ميدان القتال .

وإن استرقاق الجاسوس لا يزيل فساده وأذاه عن المسلمين ولا يدرأ شره عنهم .

كما أن نكاية الجاسوس الحربي في الحرب أشد من نكاية المقاتلين أنفسهم في ميدان القتال وعمله يفوق خطورة المقاتلين في المعركة ولذا فإن في قتله سلامة المسلمين وعدم إلحاق الضرر بهم ، والعدالة تقتضي قتل هذا الجاسوس حيث سبب القتل لكثير من

---

(٧٥) شرح السير الكبير : ٥ / ٢٠٤٣ وحاشية الدسوقي : ٢ / ١٨٢ والمغني ح ٩ / ٢٢٠ الطبعة الأولى .

(٧٦) نيل الأوطار : ٨ / ١٠ والمجموع : ٨ / ١٢٥ .

المسلمين وأضر بهم .

وإن حصول الدولة على أسرار الدولة المحاربة بواسطة الجواسيس ، جعل الدول الحديثة تنزل بالجواسيس أشد العقوبات وأقساها وهو الإعدام شنقاً أو رمياً بالرصاص دون محاكمة إذا ما ثبت عليه التجسس(٧٧) .

ويعتبر التجسس من أخطر وسائل القتال في القديم والحديث وجرم الجاسوس من أخطر الجرائم المخلة بأمن الدولة ومن هنا ينظر إليه القانون الدولي الحديث بنظرة غير نظرته للحربي في ميدان القتال ويوقع في حقه الإعدام كما تقتضيه قوانين الدول . ودخول الحربي دار الإسلام يضر بمصالحهم فإن كان جاسوساً يقتل وعلى الإمام أن يعمل ما فيه نكاية بالعدو ويحقق للمصلحة العامة للمسلمين .

☆ ☆ ☆

(٧٧) العلاقات الدولية والنظم القضائية : ص ١٣٤ .

الفصل الثاني

في مكافحة التجسس

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في توعية المجتمع من خطر التجسس . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في النهي عن مكاشفة الأعداء ونقل الأخبار لهم .

المطلب الثاني : في تماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات .

المبحث الثاني : في حماية الثغور من التجسس . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في فضل الرباط في سبيل الله تعالى .

المطلب الثاني : في شحن الثغور بالجيش وإذكاء الروح القتالية فيهم .

المبحث الثالث : في سرية التحركات العسكرية . وفيه مطلبان :

المطلب الأول : في تطهير الجيش من المخذلين والتكتم في خططه وحركته .

المطلب الثاني : في الحيل لكسب المعركة .

الفصل الثاني

في مكافحة التجسس

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : في توعية المجتمع من خطر التجسس :

اهتمت الدول القديمة والحديثة كما تقدم بالتجسس للحصول على المعلومات وتحليل ما يصدر من نشرات ومطبوعات أو جمع المعلومات من خلال هذه النشرات بطرق علنية أو سرية بواسطة أجهزة التجسس الخاصة وقد تستخدم لهذه الغاية الأجهزة المتقدمة كالأقمار الصناعية وطائرات الاستكشاف وطائرات التجسس ومختلف الأجهزة والآلات المتطورة المخصصة لهذه الغاية .

ونتيجة لما يترتب على تسرب المعلومات من خطورة فإن الدول تعنى بالحفاظ على أسرارها ، وتعمل جاهدة على مقاومة محاولات العدو للحصول على الأسرار الخاصة بها وبمنشآتها الحربية كما تعمل على حرمان العدو من أن ينال منها بما قد يشيعه عنها خاصة ما يتعلق بمبادئها أو يستهدف التأثير على معنويات شعبها .

وإن أهم الركائز الأساسية في مقاومة جواسيس الأعداء وحرمانهم من الحصول على المعلومات أن تتخذ الدولة الإسلامية الإجراءات الوقائية الدائمة لتوعية أفراد المجتمع من خطر جواسيس الأعداء الذين قد ينفذون إلى صفوف المسلمين .

ولذا فإن الإسلام قد حذر من موالاة الأعداء من الكفار وأعوانهم ، ونبه إلى عدم معاونتهم والإخلاص لهم أو إفشاء الأسرار عندهم ، أو إعطائها للمنافقين كل ذلك يفيد في يقظة المجتمع وحذره الأمر الذي سنتطرق له في هذا المبحث إن شاء الله ضمن المطالب التالية :

المطلب الأول : النهي عن مكاشفة الأعداء ونقل الأخبار لهم :

تقضي التعاليم الإسلامية بأن يكون المؤمن حذراً فطناً يقظاً ، وكل هذا يدعو إلى كتمان الأسرار ، التي جعلها الله سبحانه وتعالى أمانة من الأمانات يجب المحافظة عليها . يقول تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ والرَّسول وتخونُوا أماناتِكم وأنتُم تَعلَمون** ﴾[١] .

فقد نهى الله المسلمين جميعاً عن مكاشفة الأعداء ، والمشكوك فيهم من المنافقين وغيرهم ، من ضعفاء النفوس خاصة في أوقات الحرب والأزمات . ويشمل ذلك عدم مكاشفتهم بالأسرار الخاصة التي تضر بمصلحة المسلمين العامة في دينهم ودنياهم .

وإن إفشاء الأخبار إلى العدو أو إعطائها إلى من قد يوصلها إليه من المنافقين والجواسيس وغيرهم ، إنما تدل على معنى الإهمال ، وعدم تقدير للموقف وهي تدل على النفاق ، وفيها خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين[٢] .

فعلى المسلم أن لا يخون المسلمين أو أولياء أمورهم خاصة ما يتعلق بالشئون السياسية والحربية[٣] وقد نبّه الله سبحانه وتعالى إلى ذلك ، في كتابه الكريم قال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّها الَّذين آمَنُوا لاَ تَتَّخذُوا عَدوِّى وَعَدوَّكم أولياء تُلقُون إليهم بالمودَّة وَقَد كَفرُوا بِمَا جَاءَكم مِن الحَقِّ** ﴾[٤] .

ففي هذه الآية كما يقول القاسمي نهي لأصحاب النبي ﷺ ولكل مسلم عن موالاة المشركين المحاربين لله ولرسوله ، لأن في موالاتهم الفتنة بالدين وأهل الإسلام[٥] .

ولا تجوز موالاة الكفار ، وإظهار عورة المسلمين لهم أو الدلالة على ذلك . وعلى المسلم أن يخلص لله رب العالمين ولا يحب غير المسلمين فالإيمان مكانه القلب ولا يجتمع فيه حب

---

(١) سورة الأنفال آية ٢٧ .

(٢) تفسير المنار ٥ / ٤٧٠ ، الطبعة الرابعة .

(٣) تفسير المنار ٩ / ٥١٣ ، الطبعة الرابعة .

(٤) سورة الممتحنة آية رقم (١) .

(٥) تفسير القاسمي ١٦ / ٥٧٥٨ الطبعة الأولى - مطبعة عيسى الحلبي / مصر .

لله ورسوله مع حب العدو والولاء له[٦] .

فالمسلم لا يخون المسلمين بل يصفو لهم ويصدق في إيمانه ولا يبتغي عند العدو عرضاً زائلاً لأن ذلك ليس من شأن الأوفياء الذين لم تغرهم الحياة الدنيا ، بل هذا من شأن المنافقين في كل ملة ، فشأن المنافق أن يخدع ، ويكذب ، ويكيد ، ويغش ، ويخون من أجل نعيم مادي أو من أجل غرض دنيوي ، ولكن المؤمن لا يخون مهما كانت الأسباب حتى أن الخوف على المال أو الولد لا يبيح له إظهار الكفر ، لأن ذلك لا يكون بمنزلة الخوف على النفس لأن الله نهى المؤمنين عن مثل ما فعل حاطب بن أبي بلتعة مع خوفه على أهله وماله[٧] .

ويكثر المنافقون عادة في طور ابتلاء الأمة وضعفها ، وقوة أعدائها ، حيث إن هؤلاء طلاب منافع ، ولو فيما يضر أمتهم ، والناس أجمعين .

وهؤلاء يلتمسون المنافع من الأقوياء ، ولو كان إلتماسها مقترناً بالذل والصغار ، ولاشك أن من والى العدو ، سيصغر ، وأن العدو يعلم لو أن في مثل هؤلاء خيراً ما خانوا أمتهم ، ومن ثم يعيش هؤلاء ولا أحد يثق بهم ، حتى ولا من قدموا أنفسهم لموالاته[٨] .

وقد نهى الله عن موالاة الكفار والإخلاص لهم في كثير من المواقع والمناسبات يقول الله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الكَافِرِينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ المُؤمِنِينَ** ﴾[٩] لأن في موالاة الكفار الذلة وضياع المصلحة العامة ، فلا يجوز كشف الأسرار لهم الأمر الذي يمكنهم من التسلط على البلاد الإسلامية وعلى رقاب المسلمين .

والمسلم لا يجوز له أن يلتجيء إلى عدو الله بحال من الأحوال ، أو يغتر بهم وبقوتهم ، ولا أن يرهب شوكتهم أو يركن إليهم ويواليهم ويقدم لهم الخدمات بتوصيل

---

(٦) تفسير الفخر الرازي ٨ / ١٣٥ .

(٧) أحكام القرآن للجصاص ٥ / ٣٢٦ .

(٨) تفسير المنار ٥ / ٤٧٠ .

(٩) سورة النساء آية ١٤٤ .

الأخبار إليهم وإذاعة الأسرار عندهم ، لأن في ذلك إعانة للكفر على الإيمان .

ومن هنا يبتعد المسلم ويحرص علىألاَّ يكشف أسرار المسلمين للأعداء حتى ولو كان في ذلك تحقيق مصلحة شخصية ، كما لا تجوز موالاتهم مهما كانت المصلحة المترتبة على ذلك من مال أو تجارة أو حماية لولد يقول الله تعالى : ﴿ **لا تجد قوماً يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يُوادُّون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءَهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كَتب في قُلوبِهم الإيمان وأيّدهم بروحٍ منه ويدخلهم جنّات تَجري من تَحتها الأنهار خالدين فيها رضي اللهُ عنهم ورضوا عنهأولئك حزبُ الله ألاَ إنَّ حزب الله هُم المفلحون** ﴾[١٠] .

ولذلك فالمؤمن لا يوالي الكافرين ولا يصاحبهم ، ولا يخلص لهم مهما كانت الصلة التي تربطه بهم ، فلا يجتمع الإيمان بالله وموالاة الكفار أعداء المسلمين ، مهما كانت درجة قرابتهم ، ومهما كانت المصالح التي تربطه معهم . ومن هنا كان التجسس خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين .

فالمؤمن يعرف دوره في بناء المجتمع المسلم وهو إن عمل فإنما يعمل لصالحه ولا يصاحب ولا يثق إلا بالمؤمنين يقول الله تعالى : ﴿ **إنَّما وَليُّكم اللهُ وَرَسُولُه والَّذين آمنوا الَّذينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤتُونَ الزَّكاةَ وهم راكِعونَ * وَمَن يتولَّ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذينَ آمنُوا فإنَّ حِزبَ الله هم الغَالِبُونَ * يَا أَيُّها الَّذينَ آمنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينكُم هُزُواً ولَعِباً مِنَ الَّذينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قبلِكُم والكفارَ أولياءَ واتقُوا اللهَ إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ** ﴾[١١] .

وإن للفرد في المجتمع دوره الهام الحاسم في تطبيق أو هدم الأمن ، وذلك لأنه باعتبار موقعه في المجتمع يعرف من الأسرار الهامة للدولة والكثير من المعلومات ، التي لو أدلى بها إلى العدو ، فقد يكون سبباً في إلحاق الضرر بالدولة ، وقد يعرض كيانها للتهديد ، وربما لفقدان هيبتها بين الدول الأخرى[١٢] .

---

(١٠) سورة المجادلة آية (٢٢) .

(١١) سورة المائدة آية ٥٥ ـ ٥٧ .

(١٢) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج ص ١١٨ .

والمسلم لا يقدم مصلحته الخاصة على المصلحة العامة ، ولا يتخذ من الأعداء أعواناً ، لأن الله تعالى نهاه عن ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾[١٣] .

وتعني هذه الآية كما يقول القاسمي : « لا تصافوهم ، ولا تعاشروهم مصافاة الأحباب ومعاشرتهم »[١٤] .

وهؤلاء أعداء المسلمين ، وهم متفقون على أعداء المسلمين يوالون بعضهم بعضاً ويتحدون ضد المسلمين ، ولذلك فعلى المؤمنين أن يكونوا يداً واحدة على عدوهم وبعضهم لبعض أولياء[١٥] .

وفي هذه الآية تغليظ في وجوب مجانبة المخالفين في الدين واعتزالهم ، وقد خونهم الله فلا نأمنهم ، وأقصاهم فلا ندنيهم ومن ذلك قصة عمر مع أبي موسى الأشعري في كاتبه النصراني حيث نهاه عن أن يتخذ كاتباً له من النصارى رغم حاجته له .

ولذلك لا يجوز اتخاذ اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله وكما يقول الطبري : « إنه من اتخذ نصيراً ، وحليفاً ، ووليـاً من دون الله ورسوله والمؤمنين ، فإنه منهم في التحزب على الله وعلى رسوله والمؤمنين ، وإن الله ورسوله منه بريئان »[١٦] .

ولاشك أن الخيانة في إعطاء المعلومات إلى العدو سبب من أسباب ثباته في وجه المسلمين في الحرب خاصة .

وتؤخذ العبرة من خيانة بعض المنافقين لرسول الله ﷺ أثناء محاصرة « ثقيف » في حصونها ، فإن ثبات ثقيف في حصونها كان نتيجة خيانة بعض المنافقين أمثال (عيينة

---

(١٣) سورة المائدة آية ٥١ .

(١٤) تفسير القاسمي ٦ / ٢٠٢٤ الطبعة الأولى / مطبعة عيسى البابي الحلبي .

(١٥) تفسير الطبري ١٠ / ٣٩٩ دار المعارف / مصر . تفسير القاسمي ٦ / ٢٠٢٥ ط ١ .

(١٦) تفسير الطبري ١٠ / ٣٩٨ ، دار المعارف بمصر .

بن حصن) « فقد أشار عيينة أن يأتي ثقيفاً في حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له رسول الله ﷺ في ذلك ، فأتاهم فدخل في حصنهم ، فقال لهم : تمسكوا في حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبيد ، ولاتعطوا بأيديكم ولا تتأثروا ، ولما رجع إلى رسول الله ﷺ قال له : « ما قلت ياعيينة » . قال : أمرتهم بالإسلام ، ودعوتهم إليه ، وحذرتهم النار ، ودللتهم على الجنة ، فقال له الرسول ﷺ : كذبت إنما قلت لهم كذا .. وقص عليه ما قاله لهم ، فقال : صدقت يارسول الله ، أتوب إلى الله وإليك من ذلك »[١٧] .

وقد ظهر في عهد الرسول ﷺ جواسيس للأعداء من المنافقين واليهود ، يلتمسون الخبر عن المسلمين وأسرارهم ، وينقلون ذلك إلى أعدائهم وكثيراً ما كان الرسول ﷺ يعفو عنهم لمصلحة خاصة أو سبب معين مع علمه ما لخطورتهم على الإسلام والمسلمين ، وهم في المجتمع الإسلامي بمثابة ما يعبر عنه في العصر الحديث « بالرتل الخامس »[١٨] .

ولقد حذر الإسلام من هؤلاء وخطرهم كما أوجب ضرورة الاستعداد في كل وقت . فقال تعالى : ﴿ **يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُم** ﴾[١٩] .

فالتيقظ والاحتراز من العدو ضروري حتى لا يتمكن العدو من المسلمين . وقد يكون الحذر باعداد الآلات والجيش كما يكون بالحزم ومراقبة أعوان العدو ، واليقظة والانتباه ، وعدم اطلاع العدو أو أعوانه على أسرار المسلمين ومخططاتهم[٢٠] .

ويؤكد الله سبحانه وتعالى النهي عن موالاة الكفار أو إفشاء الأسرار لأعوانهم من المنافقين في الداخل بقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخذُوا الكَافِرينَ أَولِيَاءَ مِن دُونِ المُؤمِنينَ أَتُرِيدُون أَن تَجعَلُوا للهِ عَلَيكُمْ سُلْطَاناً مُبيناً * إنَّ المُنَافِقِينَ في الدَّرْكِ الأَسفَلِ مِنَ النَّارَ ولن تَجِدَ لَهُم نَصيراً** ﴾[٢١] .

---

(١٧) السيرة الحلبية ٣ / ٨١ .

(١٨) الرسول القائد / محمود شيت خطاب ص ٣١٥ .

(١٩) سورة النساء / آية ٧١ .

(٢٠) تفسير القاسمي ٥ / ١٣٩٢ .

(٢١) سورة النساء ١٤٤ ـ ١٤٥ .

فهذا نهي عن موالاة الكفرة ، ومصاحبتهم ومصادقتهم ومناصحتهم وإسرار المودة لهم ، وإفشاء أحوال المؤمنين الباطنة إليهم ، وإن المنافقين أخبث من الكفرة ، إذ أنهم أظهروا إسلامهم خداعاً للمسلمين ، وهم بإظهارهم الإسلام يتمكنون من الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون بها الكفار وبذلك تتضاعف المحنة على المؤمنين[٢٢] .

وقد بيّن الرسول ﷺ أن الحديث الذي يتحدث به الإنسان ويسمعه بقية المؤمنين إنما هو أمانة لا يجوز أن يفشي منه بشيء يقول صلى الله عليه وسلم : « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله تعالى فلا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يخاف »[٢٣] .

وقد قيل في المثل : « كشف الأسرار من شيم الأشرار »[٢٤] .

والفرد في المجتمع المسلم خلية حية فيه ، وهو معني بسلامة المجتمع ، ومعني بالنصح والنصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ومكلف بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإن رأى منكراً أشار إليه ، وإن رأى انحرافاً لم يسكت عنه .

وجمع المؤمنين إخوة متحابون ، يذكرون بعضهم بالخير ، ولا يفشون للدولة سراً لما يشكله ذلك من مخاطر على مصير الأمة بأكملها . فهم وحدة واحدة لا يستطيع الغريب أن يتدخل فيهم ، ويخرق صفوفهم ، ويشتت شملهم ويجعلهم شيعاً وأحزاباً . وبهذا يقول الله تعالى : ﴿ **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم** ﴾[٢٥] .

ويقول الله تعالى : ﴿ **المؤمِنُونَ والمؤمِنَات بعضُهُم أَولِيَاء بعضٍ يَأمُرُونَ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُقيمُون الصَّلاَةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَاةَ ويُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[٢٦] .

---

(٢٢) تفسير القاسمي ٥ / ١٦٢١ ـ ١٦٢٢ ط ١ .

(٢٣) الفتح الكبير / السيوطي ١ / ٤٤١ ، مطبعة مصطفى الحلبي / مصر .

(٢٤) الوزارة / الماوردي ص ١٣١ .

(٢٥) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٢٦) سورة التوبة آية ٧١ .

ويقول ﷺ في وصفهم : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٢٧] .

كما بين الرسول ﷺ للمسلمين كيفية مواجهة الأعداء والتكتم عليهم خلال غزواته في سبيل الله ، كما كان الصحابة رضي الله عنهم على وعي كامل للمواقف وخطورتها خاصة أثناء الحرب ، فعرفوا كيف يواجهون العدو . وكيف يكتمون الأسرار عنه .

فالمسلمون يتصفون بالحذر دائماً . قال رسول الله ﷺ : المؤمن كيس فطن[٢٨] .

كما دعا الإسلام إلى الصبر والهدوء أثناء المحن ، ومواجهة الأمور الصعبة ، وعدم الإرجاف لما في ذلك من أهمية وتأثير على المعنويات .

ولذلك فالصبر على مقاتلة الأعداء قد يكون صبراً على الشدة أثناء المعركة ، ويكون بالصبر ومسك اللسان عن الكلام والصمت في الوقت المناسب .

ولذا يقول رسول الله ﷺ فيما يتعلق بضرورة مسك اللسان عن كل قول ليس فيه مصلحة ، فكيف إن كان فيه مضرة للمسلمين أحادهم أو جماعاتهم يقول : « ياعقبة احرس لسانك ، وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »[٢٩] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[٣٠] وقال ابن مسعود رضي الله عنه : ما من شيء أحق بطول السجن من اللسان[٣١] .

إن صبر المؤمن وثباته يوثر في ثبات إخوانه المؤمنين فيصبر المجتمع على ملاقاة العدو ، ويصبر الجنود في المعركة على الآلام والجراح والشدائد والأهوال خاصة ذوي المسئولية ، وكل ذلك يدعو إلى ثبات بقية المقاتلين في سبيل الله وصمودهم .

---

(٢٧) صحيح مسلم بشرح النووي حديث رقم (٢٥٨٦) ٤ / ١٩٩٩ الطبعة الأولى ١٩٥٥ .

(٢٨) الجامع الصغير بشرح فيض القدير ٦ / ٢٥٦ ، الطبعة الأولى ١٣٥٧ .

(٢٩) مسند أحمد ٤ / ١٤٨ .

(٣٠) أخرجه ابن المبارك في الزهد حديث رقم (٣٦٨) ص ١٢٥ .

(٣١) أخرجه ابن المبارك في الزهد برقم (٣٨٤) ص ١٢٩ .

ولا يجوز غش المسلمين حتى ولو كان ذلك بالإشارة ولأي سبب من الأسباب ، كما حصل مع أبي لبابة ابن المنذر مع بني قريظة في الحديث المتقدم .

وقد نهي المسلم عن الثرثرة والتكلم بما لا يعرفه فيكون قد كذب أو اقترب من الكذب إذا تحدث بكل ما يسمع ، يقول الرسول ﷺ في ذلك : « كفا بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما يسمع »[٣٢] .

وقيل في منثور الحكم : « لسان الجاهل مفتاح حتفه »[٣٣] .

وقد طبق المسلمون بأمانة المحافظة على الأسرار وكتمان الأخبار ملبين حديث الرسول ﷺ : « استعينوا على نجاح الحوائج بكتمانها »[٣٤] .

وقد قيل : « صدور الأحرار قبور الأسرار »[٣٥] .

وفي حفظ السر وصيانته يقول أنس بن مالك رضي الله عنه : « خدمت رسول الله ﷺ يوماً حتى إذا رأيت أني قد فرغت من خدمته قلت : يقيل النبي ﷺ ، فخرجت من عنده ، فإذا غلمة يلعبون . فقمت أنظر إليهم ، إلى لعبهم ، فجاء النبي ﷺ فانتهى إليهم فسلم عليهم . ثم دعاني فبعثني إلى حاجة . فكان في فيء حتى أتيته ، وأبطأت على أمي فقالت : ما حبسك ؟ قلت بعثني النبي ﷺ إلى حاجة . قالت : ما هي ؟ قلت إنه سر للنبي ﷺ . فقالت : احفظ على رسول الله سره . فما حدثت بتلك الحاجة أحداً من الخلق ، فلو كنت محدثاً حدثتك بها »[٣٦] .

وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهي أمانة »[٣٧] .

---

(٣٢) صحيح مسلم بشرح النووي في المقدمة الباب الثالث حديث رقم (٥) جزء ١ / ١٠ أبو داود في الأدب ٨٧ .

(٣٣) الوزارة / الماوردي ص ١٣١ .

(٣٤) كشف الخفاء ١ / ١٣٥ ، الجامع الكبير / السيوطي ١ / ٩٦٢ ط ١ .

(٣٥) الوزارة / الماوردي ص ١٣١ .

(٣٦) الأدب المفرد : البخاري ص ٣٩٥ ، حديث رقم (١١٥٤) ، صحيح البخاري بفتح الباري باب حفظ السر ١١ / ٨٢ ، رقم ٦٢٨٩ .

(٣٧) سنن أبي داوود ٢ / ٥٦٦ .

والأمانة لا يجوز إضاعتها بإشاعتها . وقال صاحب فتح الباري : « ولا يباح إفشاء السر إذا كان على صاحبه منه مضرة »[٣٨] .

وإذا كان لا يجوز إفشاء الأسرار الشخصية لما يترتب عليها من المضرة فإنه لا يجوز إفشاء الأسرار التي تخص الأمة من باب أولى لعموم المضرة التي تشمل كافة مرافق الحياة وجميع أفراد المجتمع المسلم وقد قال رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن عباس ، رضي الله عنه « لا ضرر ولا ضرار »[٣٩] .

كما حث الإسلام على مصاحبة أهل الدين والصلاح وأمر بالابتعاد عن المنافقين والكافرين وعدم مصاحبتهم والوثوق بهم كالوثوق بالمؤمنين ، يقول صلى الله عليه وسلم : « لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي »[٤٠] ويقول صلى الله عليه وسلم : « المتحابون في الله تبارك وتعالى في ظل العرش يوم القيامة »[٤١] .

المطلب الثاني : تماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات :

إن الحرب وإن كانت تتعلق بالجنود المقاتلين في ساحة المعركة في الدرجة الأولى إلا أنه لابد من ارتباط وثيق بين الجيش والأمة . فلا يستطيع الجيش أن يحرز النصر إذا كانت الجبهة الداخلية في المجتمع مهزوزة معنوياً .

فالروح الجهادية للمواطنين عامل من عوامل النصر وإن لم يشتركوا في القتال . فقوة المجتمع ، وإرادة القتال إذا وجدت عند أبنائه تقوي الجيش وهو في أرض المعركة .

والمسلمون معنيون جميعاً بمجاهدة العدو ، بحيث يساهم كل مسلم في المعركة قدر طاقته ، وإمكاناته ، والمجتمع المسلم يقف أمام العدو وحدة واحدة قال تعالى : ﴿ **واعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَميعاً وَلاَ تَفَرَّقوا** ﴾[٤٢] .

---

(٣٨) فتح الباري ١١ / ٨٢ .

(٣٩) ابن ماجه ٢ / ٧٨٤ ، حديث رقم (٢٣٤١) مسند أحمد ١ / ٣١٣ .

(٤٠) أخرجه ابن المبارك في الزهد برقم ٣٦٤ ص ١٢٤ .

(٤١) مسند أحمد بن حنبل ٥ / ٢٣٣ .

(٤٢) سورة آل عمران آية (١٠٣) .

فالروح الجهادية التي يتصف بها الجندي المقاتل تدفعه للقتال والاستبسال في المعركة . هذه الروح يجب أن يتصف بها غير المجاهدين من أفراد المجتمع ، بحيث تظهر عند الشباب الصغار بالحماس والإقبال على القتال ، وعند الكهول تتمثل بإعطائهم النصائح والتوجيهات بالصبر والثبات ، وعند النساء تظهر هذه الروح بصبرهن وثباتهن .

فكل مواطن مسلم يعتقد أن النصر من الله وأن ما يجري في المعركة من قتل وجرح إنما يكون في سبيل الله ، ومن يقتل يكن شهيداً في الجنة ، ومن يعش يعش عزيزاً . يقول تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجالٌ صَدَقُوا مَا عَاهدُوا اللهَ عليهِ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحبَهُ ومنهم من ينتظر وما بدَّلوا تبديلا** ﴾[٤٣] وقال تعالى : ﴿ **قل لَن يُصيبَنا إلاَّ مَا كَتَبَ الله لَنا هُو مولانا وعلى اللهِ فليتوكل المُؤمِنُونَ * قُل هَلْ تَرَبَّصونَ بِنَا إلاَّ إحدَى الحُسنَيَيْنِ** ﴾[٤٤] فالمسلمون وحدة واحدة . يؤمنون برب واحد ويطيعون رسول الله ﷺ ، وهدفهم واحد ، يموتون دفاعاً عن دينهم جميعاً لا يتخلف منهم أحد .

وقد ضربت نساء المسلمين أروع الأمثلة في الصبر على ما أصاب أبناءهن في المعارك ، فالخنساء التي أكثرت من البكاء على أخيها ورثته بالشعر ، وجزعت عليه أشد الجزع في الجاهلية لكنها بعد اعتناقها الإسلام ، وعندما قتل أبناؤها الأربعة في سبيل الله في القادسية حمدت الله على أنهم استشهدوا في سبيله ، وطلبت من ربها أن يجمعها بهم يوم القيامة . وقالت : « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته »[٤٥] .

ونستنتج من قصة الخنساء أثر العقيدة التي حولتها من امرأة سريعة الجزع إلى امرأة صابرة محتسبة ، تعرف ما للجهاد من أجر وما للشهيد من ثواب ، فكانت معنوياتها عالية لا يهمها من قتل في المعركة بقدر ما يهمها أن ينتصر الإسلام ويعلو .

---

(٤٣) سورة الأحزاب آية ٢٣ .

(٤٤) سورة التوبة آية ٥١ ـ ٥٢ .

(٤٥) تاريخ الطبري ٣ / ٥٤٤ أعلام النساء ـ عمر كحالة ١ / ٣١٥ ـ المطبعة الهاشمية دمشق .

وقد تجلى تماسك الجبهة الداخلية ، وظهرت روح الجهاد في نفوس مختلف فئات المجتمع المسلم في بدر عندما استشار رسول الله ﷺ أصحابه فكان مما قاله المقداد بن عمرو : « فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد[٤٦] لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه »[٤٧] .

وقال سعد بن معاذ : « امض يارسول الله لما اردت ، فوالذي بعثك بالحق ، ولو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء »[٤٨] .

وكان المسلمون وحدة واحدة في القتال ممتثلين قول الله : ﴿ **واعتَصِمُوا بحبلِ اللهِ جميعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا** ﴾[٤٩] .

فصار الناس بالإسلام إخواناً متحابين متواصلين ، متعاونين على البر والتقوى . وإن تمسكهم بشرع الله ودينه وكتابه كان حرزاً لهم من الضلالة والتفرق والوقوع في الاختلاف[٥٠] .

وإن المؤمنين وحدة واحدة ، لا يحدثون ما يسبب الفرقة ويبدد الألفة وإن بعضهم أولياء بعض ، وصفاتهم التصديق بالله عز وجل ورسوله وكتابه الكريم ، كما أن بعضهم أنصار وأعوان بعض . ويطيعون الله في كل أمر ، ونتائجهم خيرة في الدنيا والآخرة[٥١] .

وفي المعركة لا يتوانى المسلم عن تلبية نداء الجهاد ، ولا يهاب الموت في سبيل الله ، ففي بدر أخذ الرسول ﷺ يحمس المسلمين ، فعن أنس بن مالك أن الرسول ﷺ قال : « قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض قال يقول : (عمير بن الحمام الأنصاري) :

---

(٤٦) برك الغماد : موضع في أقصى اليمن .

(٤٧) سيرة ابن هشام ٢ / ٦١٥ ط ٢ ١٩٥٥ نهاية الأرب ١٧ / ٧ .

(٤٨) سيرة ابن هشام ٢٢ / ٦١٥ ط ٢ ١٩٥٥ نهاية الأرب ١٧ / ١٧ .

(٤٩) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(٥٠) تفسير القاسمي ٤ / ٩١٥ ـ ٩١٦ .

(٥١) تفسير الطبري ١٤ / ٣٤ ، دار المعارف / مصر . تفسير القاسمي ٨ / ٣٢٠٠ ط ١ .

يارسول الله ، جنة عرضها السموات والأرض ؟ . قال : نعم . قال : بخ بخ [٥٢] فقال رسول الله ﷺ : « ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ » قال : لا والله يارسول الله إلا رجاءة[٥٣] أن أكون من أهلها . قال : « فإنك من أهلها » « فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن . ثم قال : لَئِنْ أنا حييت حتى آكل تمراتي إنها لحياة طويلة قال : فرمى بما كان معه من التمر ، ثم قاتلهم حتى قُتل »[٥٤] .

وعن أبي بكر بن عبد الله بن قيس عن أبيه قال : سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : « الجنة تحت ظلال السيوف » فقام رجل رث الهيئة فقال : ياأبا موسى . آنت سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم . فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأ عليكم السلام ، ثم كسر جفن سيفه فالقاه ، ثم مشى بسيفه إلى العدو ، فضرب به حتى قُتل[٥٥] .

وقد ظهر تماسك الجبهة الداخلية للمسلمين ووقوفهم صفاً واحداً في وجه العدو في كل غزوة من الغزوات ، فكان لا يتخلف عن الجهاد إلا أصحاب الأعذار والمنافقون .

ففي غزوة تبوك جاءت مجموعة من المسلمين إلى الرسول ﷺ وهو يتأهب للغزو ، وطلبوا أن يعطيهم ما يركبونه ، ولما لم يجد ما يحملهم عليه ؛ تولوا عنه وهم يبكون ، وهم الذين سموا بالبكائين وقد ذكرهم الله في القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **لَيسَ على الضُعفاءِ وَلاَ عَلى المَرْضَى وَلاَ على الَّذِينَ لاَ يجِدُون ما يُنفِقُونَ حَرَجٌ إذا نَصَحُوا للهِ ورسُولِهِ مَا عَلى المُحسنينَ مِن سَبِيلٍ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَلاَ عَلى الَّذِينَ إذَا ما أتَوْكَ لِتَحْمِلَهُم قُلتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحمِلُكُم عليهِ تولوا واعيُنُهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ حَزَناً ألاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ** ﴾[٥٦] .

---

(٥٢) بخ بخ ـ بكسر الخاء وإسكانها وهي مبنية على الكسر والتنوين ويخفف في الأكثر أي بخ بسكون الخاء كلمة تقال في موضع الإعجاب والمدح والرضا وتتكرر للمبالغة انظر المصباح المنير ٣٧ مختار الصحاح ص ٤٢ .

(٥٣) رجاءة : بالمد ونصب التاء ، ومعناه والله ما فعلته لشيء إلا رجاء أن أكون من أهلها « انظر هامش صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ٣ / ١٥١٠ » .

(٥٤) صحيح مسلم ٣ / ١٥١٠ ، تحقيق عبد الباقي حديث رقم ١٩٠١ ، باب ثبوت الجنة للشهيد . مسند أحمد ٣ / ١٣٧ .

(٥٥) صحيح مسلم ٣ / ١٥١١ ، تحقيق عبد الباقي حديث رقم ١٩٠٢ .

(٥٦) سورة التوبة آية (٩١ ـ ٩٢) .

وكان المسلمون يحرصون على أن يقتلوا في سبيل الله ويتحمسون لمقاتلة العدو وفي بدر قال « عوف بن الحارث وهو ابن عفراء » : يارسول الله : ما يضحك الرب من عبده ؟ قال رسول الله ﷺ : « غمسة يده في العدو حاسراً فنزع درعاً كانت عليه ، وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل »(٥٧) .

ويحارب الإسلام كل عوامل الضعف ونزعات الخوف والجزع ويغرس في النفوس الشجاعة ورباطة الجأش والصبر وانتظار خير النتائج ببذل النفس في سبيل الله تعالى ، ففي الحديث الذي رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دماً ، اللون لون دم ، والريح ريح المسك »(٥٨) .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها »(٥٩) .

وكل مسلم معني بالجهاد في سبيل الله ، وأن يقدم ما يستطيعه للمشاركة في الغزو في سبيل الله ، وكما تكون مجاهدة الكفار باليد والسلاح وتقديم الأموال فإنها تكون أيضاً باللسان ، ولما كانت الحرب الحديثة لا تعني بجهة معينة أو جزء معين من أجزاء الدولة الإسلامية بحيث يقاتل العدو من يليه من الكفار ، بل أصبحت خاطفة تتناول المسلمين جميعاً في كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية ، وليس أي جزء منها بمنأى عن متناول العدو سواء أكان بعيداً عن ساحة القتال أم كان في المواجهة .

وأصبحت الحرب في الوقت الحاضر لا تكون فقط بين القوات العسكرية في ميدان القتال بل تمتد في عمق الدولة حتى تشمل جميع سكانها وكافة مرافق الحياة فيها ، ولذلك يتحمل المواطن عبئاً ثقيلاً وجزءاً كبيراً من الحرب خاصة من الناحية النفسية والتي تؤثر بدورها على الجندي في المعركة ، فإن ضعف الروح المعنوية للمجتمع ورعبه وخوفه يعد مقدمة لهزيمة الجيش .

---

(٥٧) سيرة ابن هشام ٢ / ١٩٥٥ ، نهاية الأرب ١٧ / ٢٥ .

(٥٨) موطأ مالك ٢ / ٤٦١ ، باب الشهداء في سبيل الله . سنن ابن ماجه ٢ / ٩٣٤ .

(٥٩) صحيح مسلم تحقيق عبد الباقي ٣ / ١٤٩٩ حديث رقم ١٨٨٠ .

وبقدر ما يلتهب الحماس في نفوس أفراد المجتمع بقدر ما يلتهب الحماس أيضاً في نفوس المقاتلين لتأثر الجنود بأفراد المجتمع وإحساسهم بنفس ما يحسون به .

ولقد اهتم رسول الله ﷺ بمعنويات الجنود والمواطنين من أجل أن يحس المسلم بأن عمله الذي يقوم به إنما يعجز عنه غيره من أجل أن يرفع من معنوياته ويجعلها قوية دائماً ، ولا يقلل من قيمة العمل الذي قدمه المسلم للإسلام ويبدو ذلك واضحاً عندما انصرف رسول الله ﷺ من بدر بعد انتصاره على قريش ، ولقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليهم في بدر قال سلمة بن سلامة : « ما الذي تهنئونا به ؟ إنا لقينا عجائز صلعا كالبدن فنحرناها ، فقال رسول الله ﷺ : أي ابن أخي أولئك الملأ »(٦٠) وذلك لكي لا يقلل من قيمة الانتصار الذي حققه المسلمون .

وكذلك فإن أنباء القتال تؤثر على معنويات المجاهدين كما تؤثر على معنويات المواطنين ، فإن انتصر المسلمون في المعركة وعرف أفراد الجيش وكافة وحداتهم العسكرية ذلك الخبر وعرفه المجتمع فإنه يجبر قلوبهم ، وفي الوقت نفسه يؤثر على الكفار بصورة عكسية ، كما تؤثر أنباء الهزيمة على المعنويات بصورة عكسية أيضاً .

فقد حارب الرسول ﷺ الإشاعات التي تؤثر على الجيش واهتم صلى الله عليه وسلم بالمعنويات وأنباء القتال فاهتم بتوصيلها إلى المواطنين بصورتها الحقيقية خوفاً أن يدس العدو أخباراً غير صحيحة . فقد اهتم ﷺ بالبشائر عندما انتصر في غزوة بدر الكبرى فقد بعث عبد الله بن رواحة مبشراً إلى « أهل العالية » ، وهم من كانوا من جهة نجد من المدينة - بما فتح الله على رسوله وعلى المسلمين . وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة - وهم من كان من جهة « تهامة »(٦١) وفي تصرف الرسول ﷺ هذا ما يحارب كل شائعة قد تظهر في المجتمع . وقد اهتم قادة الفتح الإسلامي بالمحافظة على المعنويات ومنع الشائعات . فعندما أصيب النعمان بن مقرن في وقعة نهاوند تناول الراية « نعيم بن مقرن » ورفعها قبل أن تقع على الأرض ثم كتم القائد « نعيم » والمسلمون مصابهم بأميرهم

---

(٦٠) سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩٧ .

(٦١) التراتيب الإدارية ١ / ٣٨٢ ، سيرة ابن هشام ٢ / ٢٩٦ .

حتى لا يهن الناس ويتأثروا بهذا الخبر ، والذي قد يترتب عليه حدوث شائعات يطلقها العدو ، بهدف تثبيط المعنويات[٦٢] .

إن العقيدة الإسلامية الصادقة ترفع من معنويات الأفراد والجماعات وتدعو المسلم لمحاربة كل شائعة قد تظهر لإضعاف روحة المعنوية ، ولذلك فالمسلم لا يستمع إلى ما يطلقه العدو من شائعات بل يرفض ذلك ، ولا يضعف ، قال تعالى : ﴿ **الَّذِينَ قَالَ لَهُم الناسُ إنَّ النَّاسَ قَد جَمَعُوا لَكُم فاخْشَوْهُم فَزَادَهُم إيماناً وقالوا حَسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل** ﴾[٦٣] .

فعندما أرادت قريش بقيادة أبي سفيان أن تشيع في المسلمين شائعة قوتهم بعد « أحد » حيث خرج الرسول ﷺ في طلبهم إلى « حمراء الأسد » وتهدف قريش من ذلك أن تثبط الروح المعنوية للمسلمين ، ليحذروها ويتقوا لقاءها ، ولكن هذه الشائعة رغم انتشارها بين المسلمين فإنها لم تثنهم عن سيرهم حسب ما أمرهم به الرسول ﷺ[٦٤] .

واستطاع الرسول ﷺ أن يرد على هذه الحرب النفسية بحرب نفسية ضد قريش فبعث « معبد الخزاعي » وكان مشركاً وقال لأبي سفيان : إن الرسول ﷺ : قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا من الحنق عليكم ، شيء لم أر مثله قط[٦٥] .

وقد نبه القرآن إلى ضرورة عدم سماع ما يقوله الأعداء أو أعوانهم وبذلك يقول الله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إن تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الَّذينَ أُوتوْا الكتابَ يَرُدوكُم بَعد إيمَانِكُم كَافِرين * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وأَنْتُم تُتْلَى عَليكُم آياتُ اللهِ وَفِيكُم رَسُولُه وَمَنْ يَعتصم بالله فَقَدْ هُدِيَ إلى صِراطٍ مُستقيم** ﴾[٦٦] .

---

(٦٢) تاريخ الطبري ٤ / ١٣٢ دار المعارف / مصر .

(٦٣) سورة آل عمران آية ١٧٣ .

(٦٤) تفسير الطبري ٧ / ٤٠٥ ، دار المعارف مصر ، تفسير القاسمي ٤ / ١٠٣٩ ط ١ .

(٦٥) تفسير الطبري ٧ / ٤٠٧ دار المعارف بمصر .

(٦٦) سورة آل عمران آية (١٠٠ ـ ١٠١) .

إن الكافرين يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله ، ولذلك يسعون بين المؤمنين بالوقيعة والفساد ، وإن المسلمين إذا قبلوا ما يأمرهم به الأعداء من أهل الكتاب وغيرهم وسمعوا إلى ما يلقونه أو يشيعونه فلابد أن يضلوهم عن الحق لأنهم يحملون لهم الغل والغش والحسد[٦٧] .

والمسلم لا يستمع إلى الأراجيف التي يطلقها المنافقون ولا يصغي إليها حتى ولو ظهرت قوة الأعداء فإن ذلك يزيده إيماناً وتصديقاً ويدعوه إلى الثبات ، وبذا يقول الله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا مَا وَعَدَنَا اللهُ ورسولُهُ وَصَدَقَ اللهُ ورَسُولُهُ وَمَا زَادَهُم إلاَّ إيماناً وَتَسْلِيماً** ﴾[٦٨] .

ففي وقت الشدة ، ووسط هذا البلاء ، وعند تزلزل المنافقين ، وبث أراجيفهم فإن المؤمنين بالله يزدادون تصديقاً وإيماناً به سبحانه وتعالى وإن المؤمن لابد وأن يبتلى ويمتحن ولابد من الصبر حتى يأتي نصر الله[٦٩] .

وقد نبّه الله إلى خطورة ما يشيعه المنافقون وأعداء الدين بين المسلمين من شائعات يهدف بها إضعافهم . وبين أنهم يستحقون الطرد من المجتمع لأنهم يريدون إضرار المسلمين وللحاكم التصرف بما تقتضيه مصلحة الأمة ودرء المفسدة عنها قال تعالى : ﴿ **لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ والَّذِينَ في قُلُوبِهِم مَرَضٌ والْمُرْجِفُونَ في الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُنَكَ فِيهَا إلا قَلِيلاً** ﴾[٧٠] ،

والمنافقون يشيعون أخبار السوء ، ويفترونها ، وينشرونها كمجيء عدو ، وانهزام سرية ، وترويج الشائعات التي تخدم العدو وتكسر قلوب المؤمنين[٧١] .

ولكن المسلم يقف موقف الشك من هذه الشائعة ولا يصدقها ففي غزوة أحد نادى

---

(٦٧) تفسير الطبري ٧ / ٦٠ ، دار المعارف / مصر ، تفسير القاسمي ٤ / ٩١١ ط ١ .

(٧٨) سورة الأحزاب آية (٢٢) .

(٦٩) تفسير القاسمي ١٣ / ٤٨٣٧ ط ١ .

(٧٠) سورة الأحزاب آية (٦٠) .

(٧١) تفسير القاسمي ١٣ / ٤٩١٠ ـ ٤٩١١ . ط .

(ابن قمئة) في الناس قائلاً : ألا إن محمداً قد قتل ، فإن هذه الشائعة أثرت في نفوس المسلمين ويئس كثير منهم ، ومنهم من ألقى سلاحه كعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله ومجموعة من المهاجرين والأنصار وفاتهم هدف العدو من ترويج هذه الشائعة ، فمر عليهم أنس بن النضر فقالوا له : قتل رسول الله ﷺ قال : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل . ثم وقف كعب بن مالك منادياً : « يامعشر المسلمين : أبشروا هذا رسول الله ﷺ . ولما عرف المسلمون رسول الله ﷺ أنه على قيد الحياة نهضوا ، وقاتلوا . فأثرت هذه الشائعة في نفوس المسلمين ومعنوياتهم فلم يحتملوا النبأ ، وضاقوا بالأمر فرد خبر وجود النبي ﷺ الثقة إلى نفوسهم وقوى معنوياتهم(٧٢) .

وقد نبه الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى ضرورة رد كل خبر إلى الرسول وإلى أولي الأمر وأن لا يفشوه حتى لا تترتب عليه مفسدة قال تعالى : ﴿ **وإذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الأَمنِ أَو الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَو رَدُّوه إلى الرَّسُولِ وإلى أُولي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذينَ يَسْتَنْبِطُونَه مِنْهُم وَلَولا فَضل اللهِ عَلَيْكُم ورحمتُه لاتبعتُمُ الشَّيْطَانَ إلا قَليلاً** ﴾(٧٣) .

وإن إذاعة وإفشاء الأخبار دون ردها تعود بالمفسدة على المسلمين كما يقول القاسمي لأن مثل هذه الإرجافات لا تنفك عن الكذب الكثير .

وإذا كان الخبر في جانب الأمن قد يزاد فيه زيادات كثيرة فإذا لم توجد هذه الزيادات أورث ذلك شبهة لأن المنافقين يرددون تلك الإرجافات ، فإذا كان في جانب الخوف تشوش الأمر على الضعفاء من المسلمين ووقفوا في حيرة ، الأمر الذي فيه فتنتهم ورعبهم بصورة كبيرة .

وكذلك فإن الإشاعات والأراجيف سبب لتوافر دواعي البحث والاستقصاء وذلك سبب لظهور الأسرار الأمر الذي لا يوافق مصلحة المسلمين .

---

(٧٢) سيرة ابن هشام ٣ / ٨٣ ط ٢ نهاية الأرب ١٧ / ٢٥ .

(٧٣) سورة النساء آية ٨٣ .

ولما كانت العداوة قائمة بين المسلمين والكفار فكل ما فيه أمن للمسلمين فيه الخوف لعدوهم ، فإن أشاع المسلمون ما هم عليه من أمن وقوة وما عند جيوشهم من عدة وآلات حربية فإن المنافقين يرجفون بذلك حتى يصل الخبر في أسرع وقت إلى الكفار بواسطة جواسيسه فيأخذون في التحصن والاستعداد للمسلمين[٧٤] .

ويقول القاسمي حول هذا الموضوع : « إن ذلك الإرجاف كان منشأ للفتن والآفات من كل الوجوه . ولما كان الأمر كذلك ذم الله تلك الإذاعة ، وذلك التشهير ومنعه »[٧٥] .

ومن هنا يجب على المسلمين ترك الأخبار حتى تذاع من أولي الأمر ، لأنهم هم الذين يتولون استنباط هذه الأخبار ، ويعرفون صحيحها من سقيمها ، فيبطلون ما كان منها باطلاً ويصححون ما كان منها صحيحاً . وهؤلاء هم المكلفون بتمييز الأخبار وإظهار الصحيح من الباطل[٧٦] .

وقد حذر الرسول ﷺ الذين يحدثون بما يسمعون وسمي ذلك كذباً لعظم المفسدة المترتبة على ذلك خاصة لهج العامة بكل ما يسمعون من أخبار ، فعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « كفا بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما يسمع »[٧٧] .

ومن هنا نستنتج أن المسلمين في المجتمع المسلم أخوة متحابون ، يكتمون الأسرار على العدو ولا يخونون الله والرسول ولا يسمحون لضعفاء النفوس أن يفرقوا جمعهم .

والمسلم لا يخون ولا يوالي الكفار مهما كان السبب لأن في ذلك خيانة ، وأن الله أحب إليه من نفسه وماله وعشيرته وكل ما يملكه في هذه الحياة الدنيا .

وقد بين الرسول ﷺ أنه لا يجوز مكاشفة الأعداء . كما بين ضرورة التكتم على العدو ، وإن في إفشاء الحديث خيانة للسر خاصة إذا كان هذا الأمر يضر بالمسلمين .

---

(٧٤) تفسير القاسمي ٥ / ١٤١١ ، الطبعة الأولى . تفسير الطبري ٨ / ٥٦٧٠ ، دار المعارف / مصر .

(٧٥) تفسير القاسمي ٥ / ١٤١١ .

(٧٦) تفسير الطبري ٨ / ٥٧١ ـ ٥٧٢ ، دار المعارف / مصر .

(٧٧) صحيح مسلم ١ / ١٠ ، كتاب الأدب حديث رقم ٤٩٩٢ ، باب التشديد في الكذب .

وبهذا تكون الجبهة الداخلية للمسلمين متماسكة قوية تدعم المجاهدين بالشباب القوي بمعنوياته ، والأمهات الصابرات اللاتي لا يجزعن على ما أصاب أبناءهن من جروح أو استشهاد ، لأن المسلمين يعرفون أن من مات مات شهيداً ومن عاش عاش عزيزاً ، وأن الحياة الأخرى خير وأبقى ولذا عرف الصحابة هذا ، فكانوا يتبايعون على القتال في سبيل الله ولا يبالي الواحد منهم في الاستشهاد .

كما أن الوعي ومعرفة العدو وأساليبه وأهدافه تجعل المسلمين دائماً على استعداد كامل لمواجهة عدوهم ، وهم يحبون بعضهم بعضاً وهم يد واحدة على عدوهم ، صادقين في إيمانهم الأمر الذي يرفع من معنوياتهم ، ويحاربون كل شائعة قد تظهر لإضعاف روحهم المعنوية ، بل إن الشدائد والمحن تزيدهم قوة وزيادة في الإيمان .

وإن الوسيلة الناجعة لمحاربة الإشاعات هي اطلاع الناس بصورة مستمرة على المعلومات الدقيقة والصحيحة دون مبالغة أو تهويل ، ليكون أفراد المجتمع المسلم على اطلاع دائم بما يجري حولهم من أعمال ، فلا يوثر في نفوسهم ما يقوله ويروجه المرجفون والجواسيس أو ما يصدر عنهم من إشاعات مغرضة . أو أنباء كاذبة ، حيث إنهم وثقوا بقيادتهم الصادقة ، واطلعوا على الحقيقة بأنفسهم .



المبحث الثاني

في حماية الثغور[١] من التجسس

لم يعرف العرب الحصون أو الاحتماء بالأسوار ، فكانت حصونهم شفرات سيوفهم وظهور خيولهم ، وإن كان عرفها أهل الحيرة لمجاورتهم للفرس ، وأهل الشام لمجاورتهم للروم . وانتشرت بعض الحصون في الجزيرة العربية كحصون خيبر والطائف .

ولما فتح المسلمون البلاد أسسوا فيها المدن المحصنة وبنوا فيها المساجد إلا أن الجيش كان يقيم في هذه المدن المفتوحة ، وغير عمر بن الخطاب هذا الأمر ، فأوصى : أن لا يقيموا داخل هذه المدن بل يبقوا في ضواحيها وذلك لتظل طباعهم نقية صافية ، ولما توسعت الفتوحات الإسلامية اقتضت الضرورة أن تؤسس المدن القوية المحصنة لإقامة الجند مع مراعاة أن تكون هذه المدن مراكز حربية على الحدود مع الدول المعادية ومن هذه المدن البصرة والكوفة[٢] .

وكان يطلق على هذه المراكز الحربية اسم الثغور ، ومنها ما كان في مجاورة الدولة الفارسية ومنها ما كان في مواجهة دولة الروم .

كما كان الهدف من بناء هذه المدن إخماد أي حركة تقوم بها طلائع العدو ، ولتكون نقطة البداية لمراقبة العدو وجواسيسه ، وحماية البلاد الاسلامية مما يلي العدو .

وكان المسلمون يقيمون بالثغور في نهاية كل بقعة يفتحونها ، وذلك لحراسة الحدود ، وكانت تشحن بالجنود ، ويتولى قيادتها أكفأ القادة وذلك لتأمين حدود الدولة الإسلامية .

---

(١) الثغور : جمع ثغر : وهو كل مكان يخيف العدو ، والثغر من البلاد . الموضع الذي يخاف منه هجوم العدو . فهو كالثلمة في الحائط يخاف هجوم السارق منها ، والجمع ثغور . مثل فلس وفلوس . وسمي المقام بالثغر رباطاً لأن الرباط وهو الإقامة بالثغر مقوياً للمسلمين على الكفار ، لأن هؤلاء يربطون خيولهم ، وكل يعد لصاحبه . ولذلك سمي الثغر رباطاً ، وأن لم تكن فيه الخيل وفضله كبير وأجره عظيم (مختار الصحاح ص ٨٤ ، المصباح المنير ص ٨٢ دار المعارف ، بلوغ الأماني في مختصر شرح الفتح الرباني ١٤ / ٨ الطبعة الأولى) .

(٢) عبقرية عمر ص ٩٩ ـ ١٠٠ ، الفن الحربي في صدر الإسلام ص ١٩٨ .

ولما آلت الخلافة إلى الرشيد جعل لهذه الثغور إدارة مستقلة ، وسماها العواصم ، وجعلها تابعة للجيش . وكان هناك ثغور شامية نسبة إلى الشام وثغور جزرية نسبة إلى جزيرة العراق .

وجرت عادة الخلفاء منذ عهد عمر بن الخطاب أن يرسلوا الجنود بعائلاتهم للإقامة بالثغور التي تبنى متاخمة للعدو ، وكان القادة العسكريون في هذه الثغور يرتبون لهؤلاء المتطوعين المرابطين غزوات دائمة على الحدود مع العدو . ومنها دوريات منظمة في وقت الصيف وتسمى بالصوائف وبعضها يكون في فصل الشتاء وتسمى بالشواتي والغرض من الصوائف والشواتي تأمين الحدود المتاخمة للعدو ، وجمع المعلومات عنه وتمرين الجند بصورة مستمرة على القتال بطريقة عملية في أراضي مختلفة ، وأجواء متغيرة ، لتزداد خبرتهم العسكرية[٣] .

المطلب الأول : فضل الرباط في سبيل الله :

للرباط بالثغور فضل كبير فعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال : قال عثمان ابن عفان رضي الله عنه وهو يخطب على المنبر : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها[٤] .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل[٥] .

والحراسات التي تحرس المسلمين من طلائع العدو وجواسيسه وحملاته تمنع الغارة المفاجئة على المسلمين ، وتقضي على جواسيس العدو ، وهو من أعظم الجهاد كما أخبر عنه رسول الله ﷺ .

وفي الرباط في سبيل الله تقوية لمعنويات المسلمين على الكفار وتأمين لهم ، وأمان ،

---

(٣) الفن الحربي في صدر الإسلام ص ٢٠١ عبقرية عمر ١٠٠ ـ ١٠١ .

(٤) الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل : ١٤ / ٨ الطبعة الأولى ، ابن ماجه : ٢ / ٩٢٤ حديث رقم (٢٧٦٦) .

(٥) نيل الأوطار : ٧ / ٢٣٨ ومثله في ابن ماجه : ٢ / ٩٢٥ .

وفيه إضعاف لمعنويات الكفار ، ولذلك يستحب لأهل الثغر التجمع ليسهل إبلاغهم في وقت النفير للجهاد ، ولتراهم عيون العدو فيعلمون كثرتهم فينقلون ذلك لعدوهم ، ولو رآهم جواسيس العدو وهم متفرقون ربما ظن فيهم القلة فيطمع فيهم(٦) وقد كان هذا في العصر الإسلامي الأول وأما اليوم فمن الحكمة التفرق وحفر الخنادق وإخفاء القوة عن أعين الجواسيس حتى لا يصابوا على حين غفلة . أو يراهم جواسيس الأعداء فيكيدوا لهم وذلك لسرعة المواصلات وخفة الحركة في العصر الحديث .

ولما للرباط من فضل عند الله تعالى ، ولما للشهادة في سبيله من معنى في نفوس المؤمنين كانت استجابة المسلمين كبيرة ، وتلبيتهم لدعوة الصحابة عظيمة .

والاهتمام بالفتوحات الإسلامية كان قد بدأ منذ عهد الرسول ﷺ حيث كان يرى ضرورة توطين المسلمين وسلطانهم على حدود الشام فقد دعا ﷺ المسلمين بعد عودتهم من حجة الوداع لتجهيز جيش أسامة بن زيد ، وقد أنفذ أبو بكر الصديق هذا الجيش رغم الصعوبات التي تواجهه .

ثم انطلقت الفتوحات الإسلامية في الشام والعراق ومصر ثم ظهرت ضرورة وجود الجيش في أماكن خاصة في مواجهة العدو .

وقد حث الرسول ﷺ على الرباط في سبيل الله وبين أن له الفضل العظيم والأجر الكبير فعن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : « كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله ، فإنه يجري عليه أجر عمله حتى يبعثه الله »(٧) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « من مات مرابطاً في سبيل الله أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل ، وأجري عليه رزقه ، وأمن من الفتان وبعثه الله يوم القيامة آمناً من الفزع »(٨) .

وعن أنس بن مالك يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : حرس ليلة في سبيل الله

---

(٦) المغني : ٩ / ٢٠٤ ـ ٢٠٧ .

(٧) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد : ٥ / ٢٨٩ .

(٨) ابن ماجه : ٢ / ٩٢٤ حديث رقم (٢٧٦٧) .

أفضل من صيام رجل وقيامه في أهله ألف سنة السنة ثلاثمائة وستون يوماً واليوم كألف سنة »[٩] .

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : تمام الرباط أربعون يوماً ، ومن رابط أربعين يوماً لم يبع ولم يشتر ولم يحدث حدثاً خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[١٠] .

وقد قال الرسول ﷺ : « عينان لا تمسها النار أبدا عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس في سبيل الله »[١١] .

ومن هنا نلاحظ أن المسلمين كانوا يهتمون بالجهاد في سبيل الله ويقبلون على الثغور بنفس طائعة وراضية لرضا رب العالمين ، كما أن المسلمين اهتموا بحماية حدود الدولة الإسلامية من اعتداءات العدو العسكرية وطلائعه الاستكشافية ، ثم رد الاعتداء وإلقاء القبض على الجواسيس فلا يدخل فرد من أفراد العدو إلا ويعرفه المرابطون وإذا شكوا في أمره ألقوا القبض عليه .

المطلب الثاني : شحن الثغور بالجيش وإذكاء الروح القتالية فيهم :

على الإمام أن يبعث في كل طرف من أطراف البلاد الإسلامية جيشاً ويجعلهم بإزاء من يليهم من الكفار ، ويول عليهم رجلاً صالحاً ديناً عاقلاً مجرباً وذلك لحفظ حدود الدولة الإسلامية وحتى لا يخرج عسكر المشركين ويضروا بمن يليهم من المسلمين[١٢] .

والإمام يوجه قواته حسب الضرورة ويبدأ بالأهم فالأهم قال تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفَّار** »[١٣] .

وقد جرت عادة الخلفاء على شحن الثغور بالجيوش ووضع أمراء للثغور بمختلف

---

(٩) ابن ماجه : ٢ / ٩٢٥ .

(١٠) المعجم الكبير للطبراني ٨ / ١٥٧ حديث رقم (٧٦٠٦) الفتح الكبير للسيوطي ٢ / ٣٨ دار الكتب العربية الكبرى .

(١١) الجامع الصغير فيض القدير ٤ / ١٦٨ الطبعة الأولى ١٩٣٨ .

الترمذي بشرح الأحوذي ٥ / ٢٦٩ الطبعة الثانية ١٣٨٤ .

(١٢) الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل : ٣ / ٢٦٢ المكتب الإسلامي دمشق ، المبسوط : ٤ / ١٠ .

(١٣) سورة التوبة آية ١٢٣ .

المناطق ، وتكون هذه الجيوش تكفي لمواجهة من يليهم من الكفـار ، وهؤلاء الأمراء من ذوي الخبرة والمراس ، وعادة يـأخـذون وصـايـا الأمير بـالحـذر والحيطـة وحفر الخنـادق وإعداد العدة وتجهيز الآلات ومن أمراء الثغور خالـد بن الوليـد وضرار بن الأزور وضرار ابن الخطاب والقعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وعتبة بن النهاس[١٤] .

وإن هذه القوات يخرج منها طلائع الاستكشاف حذراً من العدو ولإلقاء القبض على جواسيسه ومن أجل أن لا يمكن الحربيون من دخول دار الإسلام من غيرحـاجـة لأنـه لا يؤمن كيدهم ودخولهم للتجسس أو المكيـدة بـالمسلمين وفي الأوقـات الحرجـة يفتش هؤلاء لمعرفة ما إذا كانوا جواسيس أم لا . وقـد تضع الـدولـة الإسلاميـة نقـاط رصـد لتحركات الأعداء لتفتيش الداخلين والخارجين من الدولة وإليها ، ثم التحقيق معهم ولـذلـك يقول أبو يوسف : « وينبغي للإمام أن تكون لـه مسـالح على المواضع التي تنفـذ إلى بلاد أهل الشرك من الطرق فيفتشون من مر بهم فما كان من خبر من أخبار المسلمين قـد كتب بـه أخذ الذي أصيب معه الكتاب وبعث به إلى الإمام »[١٥] .

فالدولة معنية بالحفاظ على سلامـة شعبهـا ، ووضع الأجهزة الخـاصـة للحيلولـة دون تحقيق العدو لأهدافه ، في تحطيم تماسك الجبهـة الـداخليـة وتقويض روابـط الوحـدة بين أفرادها وجماعاتها ، ولذلـك فـإن الـدولـة تعني بمختلف المؤسسـات والوزارات التي تجعلهـا قادرة على حماية أمنها والحفـاظ على شعبهـا حيث تقوم كل وزارة ومؤسسـة بـدورهـا في الحفاظ على الأمن وحماية الدولة[١٦] .

وقد اتخذت الدولة القوات المسلحة لحمايتها من الاعتداءات العسكرية المحتملة ولـذلـك تضع غالبية الدول معظم ميزانيتها للجيش ، كما اتخذت في جيوشها أجهزة خاصـة بـالأمن العسكري لحمـايـة هـذا الجيش من أعمـال التجسس ومن أجـل أن تسيطر على حـدودهـا وتعرف الخـارجين والـداخلين فقـد حـددت الـدولـة مـداخل لهـا على الموانىء والمطـارات ونقاط الحدود البرية ، لتنظيم عملية الدخول والخروج من الـدولـة وإليهـا فنظمت معظم

---

(١٤) الكامل في التاريخ : ٢ / ٣٩٢ والمغني : ٩ / ٢٠٢ ، عبقرة عمر : ص ٩٩ ـ ١٠٠ .

(١٥) الخراج : ص ٢٠٦ الطبعة الرابعة .

(١٦) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج : ص ١١٨ ـ ١١٩ .

الدول أجهزة خاصة بالأجانب وتحديد مدة إقامتهم حذراً من أعمال التجسس التي قد يقوم بها العدو[١٧] .

ولذلك يجب الحذر من العدو وسوء الظن به ومن رسالة عبد الحميد الكاتب إلى أحد قواد مروان بن محمد يقول : « ... آخذاً بالحزم في سوء الظن معداً للحذر ، محترساً من الغرة كأنك في مسيرك ونزولك أجمع مواقف لعدوك رأي العين تنظر حملاتهم ، وتتخوف كراتهم ، معداً أقوى مكايدك ، وأرهب عتادك ، وانكأ جدك ، وأجد تشميرك ، معظماً أمر عدوك لأعظم ما بلغك حذراً يكاد يفرط لتعد له من الاحتراس عظيماً ، ومن المكيدة قوياً »[١٨] .

كما اهتمت القيادة العسكرية الإسلامية إلى جانب اهتمامها بالحذر والحيطة وشحن الثغور بالجيش ، اهتمت بالجندي وإعداده بما يتناسب والمعركة من تدريب على السلاح وتوجيه معنوي ، وتنمية للقدرات العسكرية بكل ما تحتاجه المعركة ، وبما يتناسب مع حجمها وقوتها .

وقد أعطت البيئة الإسلامية الجيش الإسلامي والمرابطين على الثغور صفات وعادات متميزة فكان الجندي سلياً نظيفاً في فكره ، متواضعاً وصادقاً في طلبه للشهادة وقوياً في بنيته العسكرية[١٩] .

كما يوجه الجنود لحب الله ورسوله والإخلاص في ذلك ، كما تتم تنمية الروح الجهادية في نفسه والغيرة على الدين والعرض والمال ، ويوجه بتدريبات لكي يكون قادراً على التحمل للمشاق والمتاعب في سبيل الله تعالى . يقول الله تعالى : ﴿ **يا أيُّها النَّبيُّ حَرِّضِ المُؤمنينَ على القِتَال إن يَكُن مِنْكُم عِشْرُونَ صَابِرُونَ يغلبُوا مائتين وإن يَكُن مِنكُم مئة يغلبوا ألفاً مِنَ الَّذينَ كَفروا بأَنَّهم قَومٌ لا يَفْقَهُون * الآن خَفَّفَ الله عَنْكُم وعَلِمَ أَنَّ فِيكُم ضَعْفاً فَإنْ يَكُن مَنْكُم مائةٌ صَابرةٌ يَغْلِبُوا مائتين**

---

(١٧) المرجع السابق : ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

(١٨) صبح الأعشى : ١٠ / ٢١٢ ـ ٢١٣ .

(١٩) المدرسة العسكرية ، محمد فرج : ص ٢٠٨ ـ ٢١٢ .

وإن يَكُن مِنْكُم ألفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَينِ بإذنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَابِرينَ ﴾[٢٠] .

ويدرب الشباب حتى يكون الواحد منهم مع صغر سنه يستطيع أن يتحمل المسئولية وقيادة الجيش ، وقد كلف الرسول ﷺ أسامة بن زيد وهو لم يبلغ العشرين من عمره كلفه بقيادة الجيش لحرب الروم في بلاد الشام[٢١] .

وقد ظهرت شخصيات قيادية عظيمة أثناء الفتوحات الإسلامية كخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص ، وعامر بن الجراح ، والنعمان بن مقرن ، والقعقاع بن عمر وغيرهم كثير . وكانت معاني القرآن تذكي فيهم روح الجهاد والإقدام يقول تعالى : ﴿ **مِنَ المُؤمِنينَ رِجالٌ صَدقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عليهِ فَمِنْهُم مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلوا تَبْديلاً * لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ المُنَافِقِينَ إن شَاءَ أَو يَتُوبَ عَليْهِمْ إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾**[٢٢] .

وإن هناك الأجر العظيم الذي يدفع المؤمن إلى بذل روحه في سبيل الله تعالى فإن قتل فإن له الجنة وهو حي فيها وإن المجاهد لا يناله المكروه على أي وجه ، عن مسروق قال : « سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية ﴿ **وَلاَ تَحسَبَنَّ الَذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحيَاءٌ عِنْد رَبهِم يُرْزَقُونَ** ﴾[٢٣] أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت . فقال : هل تشتهون شيئاً ، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : يارب . نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى . فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا »[٢٤] .

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه إلا

---

(٢٠) سورة الأنفال : آية ٦٥ ـ ٦٦ .

(٢١) الطبقات الكبرى : ٢ / ١٣٦ .

(٢٢) سورة الأحزاب : آية ٢٣ ـ ٢٤ .

(٢٣) سورة آل عمران : آية ١٦٩ .

(٢٤) صحيح مسلم : ٣ / ١٥٠٢ ـ ١٥٠٣ حديث رقم (١٨٨٧) باب أرواح الشهداء في الجنة .

جهاد في سبيله وتصديق كلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة »[٢٥] .

ولقد برز في الإسلام شهداء عظام هانت عليهم أنفسهم في سبيل الله منهم حمزة بن عبد المطلب الذي ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والإقدام وحنظلة الغسيل الذي ترك عروسه ليلة الزفاف ليقاتل مع رسول الله ﷺ في صفوف المسلمين في أحد . وجعفر الطيار الذي حرص على أن تبقى الراية مرفوعة في مؤته وكانوا يطبقون القرآن الكريم بقوله : ﴿ **قُل لَن يُصِيبَنَا إلا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَولاَنَا وَعَلى اللهِ فَليَتَوَكَّلِ المؤمنونَ * قُل هَلْ تَربَّصُونَ بِنَا إلاَّ إحدَى الحُسنَيَيْنِ وَنحنُ نَتربَّصُ بِكُم أَنْ يُصيبكُم اللهُ بعذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَربَصُوا إنَّا مَعَكُم مُتَربِّصُونَ** ﴾[٢٦] .

فكانت الآيات القرآنية تلهب في الجنود الحماس وكان الجندي المسلم يحرص على الموت كحرص العدو على الحياة وكان الجنود يتبايعون على الموت في سبيل الله .

وقد جعل الله الجهاد بيعاً وتجارة فقربه إلى النفوس فشبهه بما يتعاطاه الناس من البيع والتجارة والشراء ، ولكنه هنا بيع مخصوص وشراء مخصوص ، إنه بيع مع الله تعالى فالله هو المشتري والعبد هو البائع ولا أحد أصدق من الله في عهده ووعده وقد جعل الجنة ثمناً للنفوس المؤمنة وللأموال الرابحة بحيث إذا بذلت في سبيل الله استحقوا الثمن يقول الله تعالى : ﴿ **إنَّ اللهَ اشتَرَى مِنَ المُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقاً فِي التَوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاستَبْشِرُوا بِبَيْعِكُم الّذي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيم** ﴾[٢٧] .

كما أن المرأة خلف الجيش تذكي الحماس في نفوس أبنائها كما كانت الخنساء في القادسية يقول الطبري : كانت امرأة من النخع لها بنون أربعة شهدوا القادسية فقالت لبنيها : إنكم

---

(٢٥) سحيح مسلم : ٣ / ١٧٩٦ باب فضل الجهاد .

(٢٦) سورة التوبة : آية ٥١ ـ ٥٢ .

(٢٧) سورة التوبة : آية ١١١ .

أسلمتم فلم تبدلوا وهاجرتم ولم تثوبوا ولم تنب بكم البلاد ولم تقحمكم ألسنة ثم جئتم بأمكم عجوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس ، والله إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت خالكم ، انطلقوا فاشهدوا أول القتال وآخره »[٢٨] .

ويؤكد رسول الله ﷺ أن القتل أنواع وذلك ليحث المسلمين على طاعة الله وإخلاص النية له والتوجه في القصد إليه ، وهو بهذا يذكي الحماس في نفوس المؤمنين يقول صلى الله عليه وسلم : « القتل ثلاثة رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله عز وجل ، حتى إذا لقى العدو قاتلهم حتى يقتل ، فذلك الشهيد المفتخر في خيمة الله عز وجل ، تحت عرشه ، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة ، ورجل مؤمن فرق[٢٩] على نفسه من الذنوب والخطايا ، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقى العدو قاتل حتى قتل ، فتلك مصمصة[٣٠] تحت ذنوبه وخطاياه ، إن السيف محاء للخطايا ، وادخل من أي أبواب الجنة شاء ، فإن لها ثمانية أبواب ، ولجهنم سبعة أبواب ، وبعضها أفضل من بعض ، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله ، حتى إذا لقى العدو ، قاتل في سبيل الله عز وجل حتى يقتل فذلك في النار ، إن السيف لا يمحو النفاق »[٣١] .

ومن هنا كان جيش المسلمين على استعداد دائم وحماس مستمر في كل لحظة ولقد وصفت عيون الروم جيش المسلمين عندما كان « بناحية الأردن » بأنهم : رجال رقاق يركبون خيولاً مشاقاً أما بالليل فرهبان وأما بالنهار ففرسان يريشون النبل ويبرونها ، ويقومون القنا[٣٢] ولو حدثت جليسك حديثاً ما فهمه عنك لما على أصواتهم بالقرآن الكريم[٣٣] .

---

(٢٨) تاريخ الطبري : ٣ / ٥٤٤ .

(٢٩) فرق : فرقاً من باب تعب أي خاف (المصباح المنير : ص ٤٧١ دار المعارف) .

(٣٠) مصمصة : مطهرة (مجمع الزوائد : ٥ / ٢٩١) . مصمص فاه : مضمضة : المعجم الوسيط ٢ / ٨٧٨ .

(٣١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي : ٥ / ٢٩١ .

(٣٢) القنا : القناة : الرمح وتجمع على قنى (المصباح المنير : ص ٥١٧) .

(٣٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق ١ / ١٤٤ .

وهكذا كانت الجيوش الإسلامية تلتهب حماساً حباً في القتال في سبيل الله ، ويقرأون القرآن الكريم في وقت الراحة ، وقد يأخذ الجنود حظهم من التدريب على القتال والخبرة بفنون القتال المختلفة ، ثم تلهب حماسهم الخطب التي تلقى قبل بدء القتال وهي عادة جرى عليها معظم قادة الجيوش الإسلامية في الشرق والغرب وطبقها القادة المسلمون في بلاد الشام ، في مؤتة ، واليرموك ، والقادسية ، في العراق وفي فتح بلاد الأندلس ، واستعملها طارق بن زياد ، لما لها من أثر في نفوس الجنود وتذكيرهم بأهداف الجهاد ونتائجه الأخروية الأمر الذي يزيد حماسهم فيقبلون على القتال بكل قوة[٣٤] .

وقد وصفت عيون رودريك جنود المسلمين في الأندلس فقالت : « شهدنا معسكر المسلمين ، ولقد جاء منهم من لا يريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك »[٣٥] .

ومما يزيد في حماس الجنود وبذلهم أنفسهم في المعركة أن يحترم الشهيد ويقدر الجندي بالأوسمة والألقاب كما أطلق الرسول ﷺ على خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وقد يكون التقدير بعد الاستشهاد الأمر الذي يذكي الحماس في نفوس الجيش . ويكون التكريم إما بذكر مكانة الشهيد عند الله الأمر الذي يلهب الحماس في نفوس المجاهدين فيطمئنون إلى نتيجة القضاء في سبيل الله ، كما فعل رسول الله ﷺ في ذكر حنظلة بأن الملائكة غسلته وكما أخبر عن جعفر بن أبي طالب بأنه طيار في الجنة وأن له جناحين يطير بهما في روضة من رياض الجنة .

وقد يكون التكريم في الاهتمام بجثة الشهيد ومواراتها ولو كان ذلك في أصعب الظروف كما فعل رسول الله ﷺ بجثة خبيب فعن جعفر بن عمرو بن أمية عن أبيه أن رسول الله ﷺ بعثه وحده عيناً إلى قريش قال : جئت إلى خشبة خبيب وأنا أتخوف العيون ، فرقيت فيها ، فحللت خبيباً فوقع على الأرض فانتبذت غير بعيد ثم إلتفت فلم أرى خبيباً ، ولكانما ابتلعته الأرض فلم ير لخبيب أثر حتى. الساعة »[٣٦] .

---

(٣٤) المدرسة العسكرية الإسلامية / محمد فرج : ص ٢١٦ ـ ٢٢٠ ، فتوح الشام : ١ / ٢٥٧ .

(٣٥) فتوح الشام للواقدي : ١ / ٢٥٧ .

(٣٦) مسند أحمد بن حنبل : ٤ / ١٣٩ .

إن المحافظة على جسس الشهداء تجعل المجاهد يطمئن على مصيره بوجود من يهتم به وبجثته بعد موته ، فيقبل مطمئناً على مقاتلة الأعداء ، وهذا ما يؤثر في نفوس جميع المجاهدين ويؤثر على سير المعركة .

ومن هنا نستنتج أن الإمام معني بشحن الثغور بالجنود لمواجهة العدو ، وأن يختار ذوي الكفاءة القتالية العالية كما أن المرابطين لابد أن يقوم قائد الثغر بتدريبهم وتوجيههم بما يفيد المسلمين ويقوي شوكتهم ولا شك أن المتبرع بالقتال وجاء طواعية ليقاتل في سبيل الله تكون نفسه قوية ومعنوياته عالية .

وإن انتشار الجند على الحدود مع العدو يمكن المسلمين من إلقاء القبض على جواسيس العدو ويحمي الدولة وفي ذلك وقاية من خطر الجاسوسية حيث يضع نقاط التفتيش والحراسات وطلائع الاستكشاف للتعرف على الداخلين والخارجين ومعرفة الغرض من دخولهم أرض الإسلام ، وقد يستفاد منهم بمعرفة أخبار العدو أيضاً .

كما أن في التوجيهات القرآنية والسيرة النبوية وسيرة الصحابة ما يجدد نشاط وقوة المسلمين في كل وقت ويجعل أملهم قوياً في بناء الدولة الإسلامية القوية مستمدين ذلك من التجارب التي مر بها الصحابة تطبيقاً للقرآن الكريم وهدي الرسول ﷺ فلم يكن الرسول ﷺ ليهمل المجاهدين بل كان يغرس في نفوسهم القوة ويجدد نشاطهم ويشحذ هممهم ويقوي ثقتهم بالله رب العالمين ، ويذكرهم بالآخرة وفضل المجاهدين عند الله ، وكان يطلق عليهم الألقاب المقوية لنفوسهم كما يهتم بمواراة جثثهم ولو كان ذلك في أصعب الظروف كما فعل ﷺ بجثة خبيب رضي الله عنه التي مر ذكرها .

☆ ☆ ☆

المبحث الثالث

سرية التحركات العسكرية

من أسباب النصر السرية في التخطيط والحركة للجيوش والتكتم في ذلك ، وتعتبر السرية دائماً أحد الشروط الأساسية لكسب النصر في الحرب .. وهي أحد المظاهر الضرورية للقيام بأي مغامرة ... ، كما أنها وسيلة أساسية حتى في العلاقات الإنسانية البسيطة التي تمارس كل يوم .

وسأتكلم حول ذلك في المطالب التالية :

المطلب الأول : تطهير الجيش من المخذلين والتكتم في خططه وحركته :

من أهم أسباب النصر الحذر من المخذلين والمرجفين . فعلى الإمام أن لا يأذن لمخذل أو مرجف أو منافق بمرافقة المجاهدين ، لأنه لا تؤمن هزيمة مثل هؤلاء وأشباههم الأمر الذي يؤثر في نفوس المجاهدين ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ **إن يُريدونَ إلاَّ فِرَاراً * وَلَو دُخِلَتْ عَلَيهِم مِن أَقطَارِهَا ثُمَّ سُئِلوا الفِتْنَةَ لأَتوها وَمَا تَلبَّثُوا بِهَا إلاَّ يَسيراً** ﴾[1] .

وقد يشيع هؤلاء مايؤثر في نفوس المسلمين ويعلنون أن لا طاقة للمسلمين بعدوهم موهمين المسلمين بقوة العدو وأنه لا طاقة لهم به ، وأنه ليس للمسلمين مدد ويظهرون قوة العدو ، ويتقاعسون من الحر أو البرد .

كما قد يسبب هؤلاء الفرقة بين المسلمين ويوقعون بينهم العداوة والبغضاء ويسعون بينهم بالفساد وهؤلاء لا يصلحون للحرب ، وعلى القائد أن يمنعهم من دخول الجيش ويمنع كل مخذل ومرجف ، لأنهم لا يؤمن أن يطلعوا العدو على عورات المسلمين بالمكاتبة والمراسلة أيضاً[2] .

---

(١) سورة الأحزاب : آية ١٣ ـ ١٤ .

(٢) السيرة الحلبية : ٣ / ١٠ ، فن إدارة المعركة لمحمد نمو : ص ٥٠ ، مغني المحتاج في شرح ألفاظ المنهاج : ٤ / ٢١٠ المكتبة الإسلامية المجموع : ١٨ / ٦٨ ، المغني لابن قدامة : ٩ / ٣٠١ الطبعة الأولى المحققة .

وتهتم الدولة عادتاً بحماية نفسها وحفظ أسرارها وحماية منشآتها الحيوية في الداخل والخارج وتأمينها ضد محاولات العدو بإلحاق الضرر والتخريب أو أخذ الأسرار عن طريق الجواسيس ، وحرصاً على المعنويات من الحرب النفسية التي يشيعها العدو ، فإن الدولة تتخذ لهذا الغرض أجهزة خاصة[٣] .

ومن أهم واجبات أجهزة التجسس في الدولة مقاومة جواسيس الأعداء بإستخدام كافة الوسائل والإجراءات التي يتم بها حماية أسرار الدولة وعدم تسربها للخارج فالإجراء الوقائي لتأمين الدولة وحماية منشآتها يتم بإلقاء القبض على جميع عملاء العدو وجواسيسه داخل بلادها[٤] .

ولا يمكن أن يتم تطهير الجيش من المخذلين دون معرفتهم ، ولا تتم معرفتهم إلا بواسطة أجهزة التجسس الخاصة التي تعمل على كشف هؤلاء ومعرفة أمرهم ومدى إخلاصهم وصدق نيتهم وغالباً ما يتم في الجيوش بواسطة المخابرات العسكرية أو أجهزة التجسس الوقائية . يقول أحمد هاني (ونشاط المخابرات بشكل عام ينقسم إلى نوعين رئيسيين أحدهما إيجابي والآخر وقائي ويعرف النشاط الوقائي بأنه المخابرات الإيجابية أما النشاط الوقائي فهو ما يقال عنه : المخابرات الدفاعية وأحياناً يعرف بأنه مخابرات الأمن)[٥] .

إن المخذلين إذا خرجوا في الجيش ، فإنهم يتمكنون من نفث سموم التردد والهزيمة في صفوفه ، لأن مثل هؤلاء وهم ضعاف في إيمانهم وعقيدتهم ليست لهم عزيمة أو نفسية يتحملون بها الشدائد[٦] .

وقد قيل : « الواقية خير من الراقية »[٧] .

---

(٣) المدرسة العسكرية الإسلامية ، محمد فرج : ١٨٥ .
الجاسوسية بين الوقاية والعلاج : ص ١٠٥ ، الملحق العسكري : ص ٣١ .

(٤) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج : ص ١٠٦ الملحق العسكري : ص ٣٤ .

(٥) الجاسوسية بين الوقاية والعلاج : ص ١٠٦ .

(٦) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ / محمد فرج : ص ٦٥٠ ، المدرسة العسكرية الإسلامية / محمد فرج أيضاً : ص ١٨٠ .

(٧) مثل يضرب في اغتنام الصحة (الوزارة / الماوردي : ص ١٣١) .

وقد وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ **لَو خَرَجُوا فِيكُم مَا زَادُوكُم إلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُم يَبْغُونَكُم الفِتْنَةَ وَفِيكُم سَمَّاعُونَ لَهُم واللهُ عَلِيمٌ بالظَّالِمِين** ﴾[٨] .

ومن هنا كان على القائد أن ينقب عن المجاهدين ولا يأذن لمخذل أو منافق بمرافقة المسلمين في الجهاد ، لأنهم غير مؤتمنين ، وقد يكاتبون العدو أو ينشرون الرعب في نفوس المسلمين ، وقد ظهرت أعمال المنافقين في غزوة الأحزاب يقول تعالى : ﴿ **وإذْ يَقُولُ المنافِقُونَ والَّذِينَ فِي قُلوبهم مَرضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ ورسُولُه إلاَّ غُرُوراً * وإذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَاأَهْلَ يَثرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُم فارجِعُوا وَيَستأذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُم النَّبِيَّ يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وما هِيَ بِعَوْرَةٍ إن يُرِيدُنَ إلاَّ فِرَاراً * وَلَو دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِن أَقطارِها ثُمَّ سُئِلُوا الفِتْنَةَ لأَتوهَا وَمَا تَلبَّثُوا بهَا إلاَّ يسيراً** ﴾[٩] .

وقد أوصى بعض الحكماء ملكاً فقال له : « لا يكن العدو الذي كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من الظنين الذي يستتر لك بمخاتلته فإنه ربما تخوف الرجل السم الذي هو أقتل الأشياء وقتله الماء الذي يحي الأشياء وربما تخوف أن يقتله الملوك التي تملكه ثم قتلته العبيد التي يملكها »[١٠] .

ومن أمثلة تخذيل المنافقين أن الرسول ﷺ عندما خرج لغزوة تبوك وجه المنافقون رأيهم موهمين أن هذه نصائحهم إلى الناس أن لا ينفروا في الحر اللاهب وأن الطريق بعيدة وأشاعوا مثل هذه المعلومات بين صفوف المسلمين ، وبهذا يقول الله فيهم : ﴿ **وَقَالُوا لاَ تَنْفرُوا فِي الحرِّ قُل نَارُ جَهَنَّم أَشَدُّ حَراً لَو كَانُوا يَفْقَهُونَ** ﴾[١١] .

وهذا الصنف من الناس عرّاه الإسلام وكشف عنه ، وهو سبب الضعف والانتكاس ،

---

(٨) سورة التوبة : آية ٤٧ .

(٩) سورة الأحزاب : آية ١٢ ـ ١٤ .

(١٠) عيون الأخبار : ١ / ١١٦ .

(١١) سورة التوبة : آية ٨١ .

وهو المعروف في اصطلاح اليوم « بالطابور الخامس » وهو بإطلاقه الإشاعات يهدم الكثير من مجهودات الدولة . ومن هنا يتحتم على الدولة أن تعرف هؤلاء وتضع عليهم الجواسيس وترصد ما يطلقونه من إشاعات سواء أكانت مكتوبة أم غير مكتوبة[١٢] .

وإن المخذلين قد يقومون بخدمة العدو وترويج ما يقوم به من إشاعات ضد المسلمين سواء أكان بالمساعدة بتوزيع النشرات المفزعة والملصقات أو نقل ما يسمعونه من إذاعة العدو ووسائل إعلامه ، ويوهمون بأن إذاعة العدو صادقة وأن ما يقوم به من حرب معنوية ضد المسلمين على حقيقته كما صدر من العدو ، وإن إشاعة الأخبار المغرضة بين صفوف الجيش وأفراد المجتمع أمر له أثره على معنويات المسلمين ولابد لهم من التخلص من شرهم وفسادهم بمنعهم من مرافقة الجيش ومراقبتهم في المجتمع .

فالقائد الحازم يصرف أمور الجيش وشئون الحرب بسرية تامة ويحيط كل الآراء التي تعرض في خطة الجيش بالسرية والكتمان الشديد وإن كان يهيء أذهان الناس ، والمجاهدين إلى المعركة ، ويكتم عن الناس سرها ، مع محاولته معرفة المزيد من أسرار عدوه .

وبمعرفته لعدوه يعد له ويحتاط بالمؤن والذخائر ويزيد من كتمان خطته العسكرية فتكون جميع مواقعه الاستراتيجية بعيدة عن أرصاد عدوه وجواسيسه فرب نكبة تأتي الجيش نتيجة اطلاع العدو على معلومات عن المعدات الحربية أو على الخطط العسكرية ، وإذا لم يحتط القائد لذلك فإنه لا يأمن الهزيمة أمام العدو وكذا لا يأمل النصر .

ويذكر الأصفهاني السر وضرورة حفظه وأن إعلانه من غير ذوي الاختصاص يعتبر خيانة ويقول : « إن إذاعة السر وإعلانه من الخيانة ومن الحزم الاحتياط وهو أخص بالملوك وأصحاب السياسات وإذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر وتوصف به ضعفة الرجال والنساء والصبيان »[١٣] .

---

(١٢) الرسول القائد / محمود خطاب : ص ٢١٥ .

(١٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة / الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني : ص ١٥١ الطبعة الأولى ١٣٩٣ هـ .

ويقول الماوردي : « إن الرأي يجب أن يظهر بالأفعال دون الأقوال ، لأن ظهوره بالفعل ظفر ، وظهوره بالقول خطر » . وقد قيل : « ومن وهن الأمر إعلانه قبل إحكامه »(١٤) .

ولقد عرف الرسول ﷺ أهمية حفظ السر وكتمه عن العدو وطبق ذلك في غزواته حتى عن ألصق الناس به ، كما أنه استعمل التورية في معظم غزواته كما مر ذكره في الباب الأول .

كما ملئت وصايا الخلفاء الراشدين بالتوجيهات التي تعد نبراساً للقائد العسكري بضرورة أخذ الحيطة والحذر كما مر ذلك في الباب الأول .

وإن كتمان السر من أهم أسباب النصر كما أن السر مقصد القادة في الحروب كلها مع تفاوت في إحكام هذا السر وعدم إظهاره فعلى القائد أن يكون حازماً في تصريف شئون الجيش في الحروب خاصة(١٥) .

وإن القائد يجب أن تكون حركته وسير جيشه بسرية تامة وأن تكون آراؤه مصونة بالكتمان حفظاً على تسرب الخطط العسكرية إلى العدو بأي طريق من الطرق ، الأمر الذي يوقعه بمفاجأة هجمات العدو فيعجز عن مواجهتها ووضع الحلول للخلاص منها .

كما أن عليه أن يحيط نقاط تجمع الجيش ومواقعه الحربية ، ومراكزه الهامة بسرية تامة بحيث تكون بعيدة عن عيون العدو وطلائعه الاستكشافية حيث لا يخلو الجيش من وجود أعوان له ، ومن وصية عبد الحميد الكاتب إلى أحد قادة الخليفة مروان بن محمد (واعلم أن لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة وجواسيس متجسسة وأنه لن يقع رأيه عن مكيدتك بمثل ما تكايده به وسيحتال لك كاحتيالك له ويعد لك كإعدادك فيما تزاوله منه ويحاولك كمحاولتك إياه فيما تقارعه عنه)(١٦) .

ولقد كان قادة الفتح الإسلامي يحذرون من أن يطلع العدو على أسرارهم ويحذرون

---

(١٤) الوزارة / الماوردي : ص ١٣٠ .

(١٥) فن إدارة المعركة كتاب ٤٥ : ص ٥٠ سلسلة البحوث الإسلامية .

(١٦) صبح الأعشى : ١٠ / ٢١٥ .

جواسيس العدو فكان أبو عبيدة في حروبه يحذر من تسرب الأخبار إلى العدو ، وقد قال لخالد بن الوليد ذات ليلة : « ياأبا سليمان إن جواسيس عدو الله تكشف أخبارنا وتوصلها إليه فإني أقسم عليك ألا جلت في عسكرنا جولة واختبرت أمر الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه فجال خالد وأمر الناس بالحذر والحيطة فاكتشفوا رجلاً من بين صفوف المسلمين فأنكر أنه من جواسيس الأعداء ، ولكنه ظهر أنه مرتبك وعندما رآه أبو عبيدة على هذا الحال أمر باختباره بالقرآن الكريم وفحصه بالصلاة ومدى معرفته لها فلم يحسن مما يحسنه المسلمون فاستخبره عن شأنه فأقر أنه عين للعدو[١٧] .

وقد ذكر الهرثمي أن من مكائد الحرب قولهم « ما استطعت أن تحترس في كتمان سرك في حربك فافعل ، فإن ذلك بإذن الله إمضاء تدبيرك وقطع مكيدة من يكيدك ، أكفف لسانك عن فلته كل منطق ينكشف بها ما تضمر من أمرك أو تخفيه من سرك واعلم أنه قد يستدل بلحن المنطق على مصون الستر ومكنون الضمير ولا تستهن في إظهار سرك بصغير لصغره ولا بأعجمي لعجمته فرب سر مصون قد أذاعوه واطلعوا عليه »[١٨] .

ويقول الهرثمي : « أول العمل في الحرب ورأس التدبير فيها : ألا يظهر عدوك على عوراتك ولا تستتر عنك عوراته ولن تحكم ذلك في نفسك إلا مع شدة الحذر ، وكتمان السر ولن تعرفه من عدوك إلا مع التيقظ ، والتلطف وإذكاء العيون والجواسيس »[١٩] .

وكان أصحاب رسول الله ﷺ في سراياهم التي يبعثهم بها الرسول ﷺ يكمنون النهار ويسيرون الليل إمعاناً في التعمية على العدو والحذر منه فقد أرسل النبي ﷺ سعداً بن أبي وقاص بسرية لاعتراض عير قريش فخرجوا وهم يمشون على أقدامهم يكمنون النهار ويسيرون الليل حتى وصلوا إلى (الخرار)[٢٠] وذلك على رأس تسعة أشهر من الهجرة في عشرين رجلاً من المهاجرين[٢١] .

---

(١٧) فتوح الشام : ٢ / ١٧ .

(١٨) مختصر سياسة الحروب : ص ٢٢ .

(١٩) مختصر سياسة الحروب : ١٩ .

(٢٠) الخرار : مكان يتوصل منه إلى الجحفة بالحجاز (نهاية الأرب : ١٧ / ٣) .

(٢١) السيرة الحلبية : ٣ / ١٣٨ .

وهكذا كان أصحاب رسول الله ﷺ في مسيرهم يكمنون النهار ويسيرون الليل وذلك بتوجيه من الرسول ﷺ حيث يقول في رواية عن أنس بن مالك رضي الله عنه : عليكم بالدلجة[٢٢] فإن الأرض تطوى بالليل[٢٣] .

ولذا كانت قوات المسلمين العسكرية تتحرك ليلاً إمعاناً في إخفاء تحركاتهم عن العدو وحتى يفاجئوه وهو في غفلة من أمره فإن أية معلومات تصل إلى العدو مهما كانت تافهة قد تسبب كارثة شاملة للقوات المجاهدة ولذا فإن على كل فرد في الجيش أو في مراكز القيادة العسكرية أن يعتبر نفسه مسئولاً عن صيانة الأسرار والمحافظة عليها من أجل سلامة سير المعركة بالحفاظ على سر المعركة والخطة العسكرية[٢٤] .

كما يمكن أن يحافظ على الأسرار وحركة الجيش ببعث الطلائع الاستكشافية أمام الجيش لكشف الطريق . فقد بعث الرسول ﷺ في خيبر عبادة بن بشر الأنصاري على رأس وحدة استكشاف واستطلاع مهمتها الانطلاق أمام الجيش الإسلامي ، ومعرفة المسالك والطرق وكشفها والتأكد من خلوها من الكمائن والجواسيس والتعرف على أخبار العدو[٢٥] .

ولقد بلغ من حذر المسلمين من عدوهم أن المسلمين كانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يصبحون إلا فيه[٢٦] .

ومن الوسائل التي استعملها الرسول ﷺ لحفظ السر وصيانته عن العدو : التكتم ووضع الحراسات ونقاط المراقبة لتحول دون تسرب أي خبر إلى العدو كما مر ذلك معنا في المبحث الرابع من الباب الأول .

ومن الحذر إزالة ما يدل على مكان المسلمين فقد أمر الرسول ﷺ بالأجراس أن

---

(٢٢) الدلجة : اسم من أدلج القوم بتخفيف الدال إذا سار ليلاً والإدلاج سير الليل كله (المصباح المنير : ص ١٩٨) .

(٢٣) أبو داوود بشرح عون المعبود : ٧ / ٢٣٩ الطبعة الثانية .

(٢٤) المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية / اللواء محمد جمال محفوظ ص ١٥٨ مجلة الأزهر جزء (٥) عدد شعبان / يوليو ١٩٨٠ .

(٢٥) غزوة خيبر ، محمد باشميل : ٩٥ .

(٢٦) السيرة الحلبية : ٢ / ٣٤٥ .

تقطع من أعناق الإبل يوم بدر[٢٧] .

ومن طرق حجز المعلومات عن العدو والتكتم عليه دقة التقرير ووضوحه حتى يتسنى للقائد أن يعرف ما يقصده المتكلم والمكلف بإعداد التقرير ، كما يجب أن يكون مفهوماً وقصيراً بلحن متفق عليه بين القائد والجند ، وقد يكون بكلمات قصيرة أو بالتصريح المفهوم لكل الناس إذا كان فيه ما يقوي عزيمة الجند ويحقق المصلحة العامة .

يؤكد العسكريون في الجيوش المختلفة ضرورة أن يكون التقرير قصيراً جداً مثل ماذا ؟ أين ؟ متى ؟ كيف[٢٨] . وإنه كلما كانت المعلومات واضحة وصحيحة تكون لها قيمة حيوية وفعالة في اتخاذ الأساليب الوقائية ووضع المخططات اللازمة سيما فيما يتعلق بتعيين الأهداف وتوجيه الأوامر ، وتحريك الوحدات العسكرية من مكان إلى آخر ، وقد تعين الأهداف بواسطة أجهزة متقدمة كالطائرات في التقاط الصور الجوية ، ثم تثبت هذه الأهداف بواسطة الدوريات لغاية تثبيتها على واقع الأرض بشكل دقيق[٢٩] .

وقد استعمل المسلمون التقرير القصير في الخبر بحيث يفهمه القائد دون غيره ، الأمر الذي يصعب على الغير تحليله ومعرفة مضمونه كما أن فيه المحافظة على المعنويات وتحقيق المصلحة العامة ومن ذلك أنه لما انتهى إلى رسول الله ﷺ الخبر في نقض بني قريظة للعهد وكان الأمر يحتاج إلى المحافظة على معنويات المسلمين نظراً لتكالب قوى كثيرة عليهم في السنة الخامسة للهجرة أراد الرسول ﷺ أن يتأكد من خبر نقض العهد دون أن يعرف الناس ذلك ، بعث ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان ومعه مجموعة من المسلمين وقال لهم : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا . فإن كان حقاً فألحنوا لي لحناً أعرفه . ولا تفتوا في أعضاد الناس وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس . قال : فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث مما بلغهم عنهم ولما رجعوا إلى رسول الله ﷺ قالوا : « عضل والقارة » أي كغدر عضل والقارة بأصحاب

(٢٧) المرجع السابق : ٢ / ٣٨٣ .

(٢٨) المجلة العسكرية الأردنية عدد ٨ لسنة ١٩٥٦ : ص ٦٤ .

(٢٩) المجلة العسكرية الأردنية : عدد ٩ لسنة ١٩٥٧ : ص ٧٢ .

الرجيـع خبيب وأصحـابـه . فقـال رسـول الله ﷺ « الله أكبر أبشروا يـا معشر المسلمين »[٣٠] .

وفعل الرسول ﷺ هذا يدل على اهتمامه بالمعلومات بحيث تصله واضحة ومقتضبة جداً يعرفها دون القوم لأن هـذه المعلومـات لـو تسربت لأفراد الجيش ربما أثرت على معنوياتهم وقد يلتقطها جواسيس العدو فيعملون الشائعات في صفوف الجيش الإسلامي الأمر الذي يضعفهم معنوياً ويثبط عزائمهم .

كما أن استعمال الشعار « كلمة السر » وسيلة من وسائل حجز المعلومات عن العدو ، بحيث يكون لكل فرقة شعار يتداعون فيه عند الحرب فلا يعرفه عدوهم ولا يدرك معناه .

وقد يتغير الشعار من معركة إلى أخرى وفي العصر الحديث قد يتغير الشعار كما تتغير « كلمـة السر » من يـوم إلى آخر كما يتغير في اليـوم عـدة مرات وهـو مـا يعرف (بالشفرة)[٣١] .

وكان للجيش الإسلامي نداءآت خاصة يصدرها القائد إلى الجند فكانوا إذا تهيأوا للقتال ينادي في الجند : « النفير ... النفير ... » وهي علامة الهجوم وإذا أرادوا ركوب الخيـل نـادوا « الخيـل .. الخيـل .. » وإذا أرادوا أن يترجلـوا نـادوا : « الأرض ... الأرض ... » وكان النداء الغالب الذي يربط الجنود جميعاً بالقادة هو نـداء « الله أكبر »[٣٢] .

وعن سلمة بن الأكوع قال : « بارزت رجلاً فقتلته فنفلني رسول الله ﷺ سلبه فكان شعارنا مع خالد بن الوليد : أمت يعني اقتل »[٣٣] .

---

(٣٠) السيرة النبوي لابن هشام : ٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٢ الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ .

(٣١) الشفرة : تعبير عن أسلوب لغة الرسالة من لغة مفهومة إلى لغة غير مفهومة يكون قد تم الاتفاق عليها وعلى رموزها بين الرسل والمرسل إليه مسبقاً . ويطلق عليها رسالة شفرية ، ولا يحلها العدو إلا بعد معرفة مفتاح الشفرة بعد دراسة من متخصصين وقد استحدثت لحلها أجهزة ألكترونية في العصر الحديث .
(انظر المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية : ص ٤٢٩) .

(٣٢) المدرسة العسكرية الإسلامية : ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩ ، فتوح الشام : ١ / ١٢٢ ـ ١٢٣ ، الطبعة الرابعة .

(٣٣) سنن الدارمي : ٢ / ١٣٩ .

كما كان شعار رسول الله ﷺ : « ياكل خير » وكان شعاره في أصحابه يوم حنين : « ياأصحاب سورة البقرة »[٣٤] .

كما استعمل الرسول ﷺ شعار : « أحد أحد » في غزوة بدر[٣٥] .

وكان لكل فرقة من المسلمين شعارها فكان شعار المهاجرين يوم بدر عبد الله ، والأنصار : عبد الرحمن[٣٦] .

كما كان في كل معركة كلمة تعارف بين المسلمين كما مر معنا في الفصل الأول .

ولهذا كان يرى القادة أن على كل أمير أن يجعل لكل طائفة شعاراً يتداعون به ليصيروا به متميزين ويجتمعون بندائه . وكان لكل قبيلة صيحة خاصة يتداعون بها ويتعارفون بها في الظلام ، أو عند الاختلاط بالعدو ، بحيث تكون معروفة فيما بينهم بالإضافة إلى شعارهم العام يجمعهم جميعاً وهو التكبير وهو شعار كل مسلم .

وهناك شعارات الأفراد ، فقد كان الزبير بن العوام يلبس عمامة حمراء أو صفراء ، ويحمل رمحه على عاتقه ، وقد اتخذ العمامة الحمراء شعاراً للحرب ، كما اتخذها خالد بن الوليد والفضل بن عباس . وكان حمزة بن عبد المطلب يعرف بريشة نعام حمراء عندما يريد القتال . وكان المقاتلون يصيحون عند النصر والشدة على العدو بثلاث تكبيرات متواليات ، وهذا هو الشعار المعروف عند كل مقاتل بالإضافة إلى الشعارات المتميزة التي تتعارف فيها كل فرقة في غالب الأمر عند الاختلاط وفي ظلمة الليل وعند الحاجة التي تدعو لذلك[٣٧] .

وهذه الشعارات لا يفهم العدو لها معنى حتى لو سمعها ، وقد تختلف من غزوة إلى أخرى ، وفي ذلك قصد التعمية على العدو ، والتحرك من موضع إلى آخر دون أن يفهم ذلك ، وقد تستعمل هذه الكلمات للتعارف والالتفاف ، والتحيز من جهة إلى أخرى

---

(٣٤) التراتيب الإدارية : ١ / ٣٢٧ ، الطبقات الكبرى : ٢ / ١٠٩ .

(٣٥) سيرة بن هشام : ٢ / ٢٨٧ .

(٣٦) الحديث رواه سمرة بن جندب (انظر أبي داوود بشرح عون المعبود : ٧ / ٢٥٧) .

(٣٧) التراتيب الإدارية : ١ / ٣٢٨ تاريخ الطبري : ٣ / ٥٥١ ، ٤٣٩ .

وللتراجع وغير ذلك دون أن يعرف العدو معناها ، وفي ذلك من السرية ، وحجز المعلومات ، والوقاية من تسرب الأسرار إليه ما يحفظ أسرار المسلمين ويقيهم شر عدوهم .

المطلب الثاني : استعمال الحيل لكسب المعركة :

الحرب خدعة ومكيدة . ومن الحزم أن يكون القائد يقظاً لكل حركة من تحركات العدو ، وأن يعطيها الأهمية الكبيرة ولا يستهين بعدوه ولا يحتقره .

وقد أشارت المادة الرابعة والعشرون من لائحة لاهاي إلى اعتبار الخداع الحربي وتضليل العدو والتغرير به عملاً مشروعاً في الحرب[٣٨] .

وتظهر مهارة القائد الحربية بسرعة خاطره ، ومن خلال تصرفه في حل المشكلات ، وكان كثير من القادة يصنع العجائب إذا اختلت صفوف جيشه أمام العدو ، فيستعمل الحيل التي تعتمد على خفة الحركة ، وإحداث المفاجأة للعدو ، وإخفاء المقصود ببعض التغييرات في صفوف الجيش .

فمن الحيل التي استعملها الرسول ﷺ : أنه عندما أراد تأديب بني لحيان الذين قتلوا رهط المسلمين أعلن أنه يريد الشام وتحرك فعلاً نحو الشام شمالاً ثم عاد راجعاً باتجاه مكة مسرعاً في حركته حتى بلغ منازل بني لحيان الذين فروا إلى رؤوس الجبال ونجوا بأرواحهم[٣٩] .

وموقف خالد بن الوليد في كثير من غزواته كان يضع الخطة العسكرية وكان يستعمل الكمين والمباغتة والسرعة في الحركة ، كما كان يستعمل الجواسيس لاستطلاع أخبار العدو . وكان لا يغفل عن القوة المعنوية يعززها في جيشه ويسلبها من جيش العدو[٤٠] .

ومن الحيل الارتداد مع إيهام العدو بنية الهجوم أو تدبير الحيلة ، ومن ذلك موقف

---

(٣٨) القانون الدولي العام : د . أبو هيف : ص ٨٤٥ الطبعة السابعة .

(٣٩) الطبقات الكبرى لابن سعد : ٢ / ٢٥ ـ ٢٦ .

(٤٠) عبقرية خالد : ص ٢٩١ .

خـالـد بن الوليـد في غزوة مؤتـة بعـد أن آلت إليـه القيـادة إثر استشهـاد القـادة الثلاث وحيث رأى قلة أصحابه أمام جموع الروم الزاخرة بنى خطته على الانسحاب المنظم فثبت بقواته أمام الروم إلى المساء ثم بـات يعـدل مواقف الجنـد ليلاً ، فنقل الميمنـة إلى الميسرة ، والميسرة إلى الميمنة وجعل الساقة في موضع القلب ، والقلب في موضع الساقة ليظن العـدو من تغير الأشكال أن مـدداً جـاء للمسلمين ليـلاً . ثم وضـع خـالـد جمـاعـة خلف الجيش يتحركون بدائرة واسعة يثيرون الغبار ليوهم العدو بأنهم مدد للمسلمين . ثم اندفع في فرقة إلى صفوف الروم في الوقت الـذي كان فيـه المسلمـون ينسحبـون تـدريجيـاً فخـاف الروم الحيلة والكمين فيما لو لحقوا بخالد ، وهموا أن خالداً يريد أن يجرهم إلى الصحراء وبهذا نجا خالد بأصحابه بفضل هذه الخطة الرائعة التي سببت له ولأصحابه النجاة(٤١) .

وقد تكون الحيلة بإحداث موقف للعـدو لا يكون مستعـداً لـه بـإخفـاء وقت الهجوم وهذا أمر يتطلب دقة فائقـة وتخطيطـاً سليمـاً ، ومهـارة عـاليـة وسريـة تـامـة في إحكام وتنفيذ الخطـة بحيث يهـاجم العـدو في وقت راحتـه دون أن يتوقع الهجوم ، وقـد هـاجم رسول الله ﷺ يهود خيبر وهم في غرة من أمرهم « فعن أنس بن مالك رضي الله عنـه أن النبي ﷺ خرج إلى خيبر فجـاءهـا ليلاً وكان إذا جـاء قومـاً بليل لا يغير حتى يصبـح ، فلما أصبح خرجت يهود بمساحلهم ومكاتلهم ، فلمـا رأوه قـالوا : محمـد والخميس فقـال النبي ﷺ : الله أكبر خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »(٤٢) .

وعن النبي ﷺ فيما يرويـه أبـو هريرة أنـه قـال : « الحرب خـدعـة »(٤٣) والخـداع الحربي : هو الأعمال التي ترمي إلى تضليل العدو أو التغرير به على أن لا تكون متنافيـة مع الشرف والأخلاق . وهـو : تـدبير غـوامض الحرب بمـا يـوهم العـدو الإعراض عنـه أو النكول ، والارتداد حتى يتمكن فيه ويدخل في ذلـك التوريـة والتبييت ونصب الكمـائن والاستطراد حال القتال وليس من الخدعة المسموحـة شرعـاً أن يظهر لهم أنـه منهم أو على

---

(٤١) عبقرية خالد ـ عباس محمود العقاد : ص ١٠٠ .

(٤٢) البخاري بشرح عمدة القاري : ١٤ / ٢١٤ والسنن الكبرى : ٩ / ٧٩ .

(٤٣) صحيح مسلم بشرح النـووي : ١٢ / ٤٥ ، وأبـو داوود بشرح عـون المعبـود : ٧ / ٢٩٩ ، ابن مـاجـه : ٢ / ٩٤٥ ، وسنن البيهقي : ٩ / ١٥٠ .

دينهم أو أنه جاء لنصيحتهم ، أو أن يعطيهم الأمان ثم يخدعهم بذلك فهذه خيانة لا تجوز شرعاً[٤٤] .

قال النووي : واتفق الفقهاء على جواز خداع الكفار في الحرب . وقال الطبري : إنما يجوز من الكذب في الحرب التعريض دون حقيقة الكذب . وقال النووي : والاقتصار على التعريض أفضل وإن كان الظاهر إباحة حقيقة الكذب نفسه[٤٥] .

ومن هنا نلاحظ أن الخدعة في الحرب مشروعة للحصول على المعلومات عن العدو في الحرب ، وتضليل العدو ومفاجأته بالهجوم ليلاً ، أو في مكان لا يتوقعه .

وقد يكون التضليل بإيهام العدو بضخامة عدد القوات التي تواجهه بإيقاد عدد كبير من النيران ليلاً للحراسة ليظن أن عدد الجيش كبير ، ومن ثم يجعل العدو غير قادر على مواجهة الموقف كما حدث في فتح مكة[٤٦] .

وقد يكون التضليل بنشر المعلومات غير الصحيحة عن حركة الجيش وعن مواقعه وذلك لمفاجأته بغير ما كان ينتظره وهذه من ضروريات الحرب كما مر سابقاً[٤٧] .

ويذكر الجاحظ أهمية الحيلة في الحرب فيقول : « ينبغي للملك السعيد أن يجعل المحاربة آخر حيلة ، فإن النفقة في كل شيء إنما هي من الأموال ، والنفقة في الحروب إنما هي من الأنفس ، فإن كان للحيل محمود عاقبة فذلك بسعادة الملك إذا ربح ماله ، وحقن دماء جيشه ، وأن أعيت الحيل والمكايد ، كانت المحاربة من وراء ذلك . فأسعد الملوك من غلب بالحيلة والمكر والخديعة[٤٨] .

ومن الحيل لكسب المعركة : الإيهام بوصول المدد وذلك كما فعل خالد بن الوليد في

---

(٤٤) قوانين الأحكام الشرعية لابن جزي : ص ١٧٤ ومذكرة القانون الدولي الحديث في الإسلام ، د . إبراهيم عبد الحميد : ص ٤٧ .

(٤٥) شرح مسلم : ١٢ / ٤٥ .

(٤٦) انظر السيرة النبوية لابن كثير : ٣ / ٥٤٧ دار الفكر ، السيرة الحلبية ٣ / ١٤ دار المعرفة .

(٤٧) انظر الطبقات الكبرى : ٢ / ٧٩ ط دار صادر ، عيون الأثر ٢ / ٨٣ .

(٤٨) التاج : ص ١٧٦ .

غزوة مؤتة عندما جعل جماعة من الجيش خلف الجيش يتحركون بصورة سريعة ويثيرون الغبار ليوهم العدو بوصول المدد كما مر في هذا المطلب .

ومن هذا ما فعله القعقاع بن عمرو عندما جاءه الأمر بالانتقال من اليرموك إلى العراق ولما علم أن معركة القادسية لم يأت وقتها بعد لجأ إلى حيلة حربية عظيمة استطاع أن يقوي بها روح المسلمين المعنوية ويضعف بها معنويات الفرس وذلك بأن قسم أصحابه أعشاراً وسرحهم أمامه فكان كلما بلغ عشرة مد البصر أرسل في أثرهم عشرة أخرى وكلف كل مجموعة منهم تصل أرض المعركة أن يكبروا بصوت مرتفع ، ليعلم الناس تتابع الإمداد فيقوى بذلك المسلمون بينما يضعف الفرس ، ولم يكتف بهذا الترتيب ، بل بات طيلة الليل للأيام الثلاثة التي انتظرها يعيد أصحابه ليلاً إلى المكان الذي قسم فيه ، أمر وقال لهم : إذا طلعت الشمس فأقبلوا علينا مئات كلما توارت عن الأنظار مئة تبعتها الأخرى . فإن أدركنا هاشم بن عتبة بن أبي العاص - وكان على مقدمة الجيش - برجاله فذاك ، وإلا جددتم للناس رجاء المدد ، فإن الرجاء يزيدهم إقداماً في الحرب ، وإيماناً بالفوز[٤٩] .

ومن تضليل العدو عن حقيقة عدد القوات التي تواجهه ما فعله الرسول ﷺ يوم الفتح الأعظم حيث أوقد المسلمون ليلاً عشرة آلاف نار لإرهاب العدو وإظهاره قوة المسلمين وإيهامه بضخامة عددهم ومن ثم جعلهم غير قادرين على مواجهة الموقف من أجل أن تحل بهم الهزيمة[٥٠] .

من الحيل لكسب المعركة أيضاً استمالة العدو وأخذ الأسرار منه وإرهابه ، ولذلك ينبغي استمالة من يقدر على استمالته من أهل الحصون والمدن وغيرها لاستنباط الأسرار عن الحصون والاستحكامات الموجودة عند العدو والأسلحة والمؤن والذخائر ، من أجل إخافة العدو وإرهابه وذلك بدس الجواسيس في صفوفه بحيث يصغر الجواسيس شأن العدو في نفوس جيشه ، ويشيعون بينهم اليأس من المدد ويؤيّسونهم منه : ويخوفونهم

---

(٤٩) تاريخ الطبري : ٣ / ٥٥١ .

(٥٠) السيرة النبوية لابن كثير : ٣ / ٥٤٧ دار الفكر ، السيرة الحلبية ٣ / ١٤ ط دار المعرفة .

قـوة المسلمين ، ويعلمـونهم أن سرهم منتشر في صفـوف المسلمين ، وأن كل مـا يخططـونـه معلوم لديهم ، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا بالتخطيط السليم للمعركـة ، والاستفـادة من أسرار العدو ومعرفة مخططاته وتحركاته وإرسـال الجواسيس والتي هي من أعظم الحيل في الحرب .

ولهذا يدرب الجاسوس على أخذ المعلومات دون إحداث القتل ، وذلك لأنه عند أهل الحرب والمكيدة : « الفوز بالمعلومات أهم من القتل »(٥١) .

وقد يستميل القائد رعية العدو ويأخذ منهم المعلومات عن حركـة قـائـدهم وذلـك كما فعل سعيـد بن عـامر(٥٢) مع أهل الرقيم وعَمَّـان حيث صـالـح أهـل الرقيم وقريـة قربهـا واستفاد منهم معلومات عن تحصينـات بطريق عَمَّـان وعـدد جيشـه وحـالتـه النفسيـة ، وعرف أن الخوف من المسلمين وقع في قلوبهم ، وكذلك عندما خرج بطريق عَمَّان لمقاتلة المسلمين كان سعيد يعرف حالة عدوه وقوتـه وتنظيمـاتـه ووقت خروجـه فقـاتلهم وانتصر عليهم ثم ساروا في طريقهم إلى أبي عبيدة ولم يتعرفوا عليه إلا بعد أن سمع الجيش التكبير « الله أكبر الله أكبر » من الجانبين(٥٣) .

☆ ☆ ☆

---

(٥١) عيون الأخبار : ١ / ١١٤ ، الجهاد والنظم العسكرية : ص ٩٠ .

(٥٢) سعيد بن عـامر بعثـه عمر بن الخطـاب على رأس جيش ليلحق بـأبي عبيـدة في الشـام وكان يعرف المنطقـة وقـد اضطر لمقاتلة بطريق عمان حيث اعترض طريقه أثناء مسير (فتوح الشام : ١ / ١٢٢ ـ ١٢٣ الطبعة الرابعة) .

(٥٣) فتوح الشام : ١ / ١٢٢ ـ ١٢٣ الطبعة الرابعة .

خاتمة

وأهم نتائج البحث

إن موضوع التجسس من الموضوعات الهامة التي تمس حياة الدولة والمجتمع خاصة في هذا العصر . فلم تعد الحروب مقتصرة على الجيوش التي تتقابل في ميادين القتال ، بل أصبحت تشمل جميع ميادين الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية .

ولا يقتصر الحصول على المعلومات على وقت الحرب بل يبدأ وقت السلم وينشط وقت الاستعداد للمعركة ويصل إلى أعلى مداه أثناءها .

وإذا كان البعض يرى أن موضوع التجسس يحمل بين طيات لفظه الرهبة ، فيظهر وكأنه شبح مخيف يهدد كيان الفرد والمجتمع والدولة ، فإن سبب ذلك يعود إلى الممارسات التي تقوم بها معظم دول العالم في هذا العصر ، حيث تسلط الدول العظمى على الدول الضعيفة ، والدولة على المواطنين بوساطة التجسس ، واستخدمت الوسائل غير المشروعة حتى أصبح التجسس مصدر ابتزاز وظلم وتسلط ضد الشعوب الفقيرة والمستضعفة[١] .

ومن يغوص في بطون الكتب الفقهية والسياسية الإسلامية يجد جواهر الإسلام متناثرة ومنها التجسس بطريقه المشروع ، فقد وضعت الشريعة الإسلامية له الأصول

---

(١) صدر كتاب عام ١٩٨٢ يكشف فيه المؤلف عن وجود شبكة تجسس بريطانية ـ أمريكية رسمية واسعة النطاق تهدف إلى رصد المكالمات الهاتفية والمحلية والدولية والمراسلات بالتلكس ، وعنوان الكتاب « قصر الألغاز » من تأليف : (جيمز بامفورد) ، ويقول الكتاب : إن الحكومة البريطانية تعاونت مع السلطات الأمريكية برصد المعلومات واستخدام الأقمار الصناعية لتحقيق ذلك ، (انظر ما نقلته الدستور الأردنية عن الصنداي تايمز البريطانية يوم ١ / ٥ / ١٩٨٢ م وفق ٨ رجب ١٤٠٢ هـ ـ) الصفحة ٢١ .

إن المخابرات الأميركية أداة إرهاب رئيسيّة من وضع الولايات المتحدة .

وتتخذ كقوة صدامية للسياسة الخارجية وهي تخضع للرئيس الأميركي مباشرة ، كما أن معظم رجال المخابرات الأميركية السابقون قد شهروا في مناسبات عدة كما نشرت ذلك مجلة المجلة ـ الصحيفة المصورة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية ـ شهدوا أن هذه المخابرات من مقومات عملها الأساسي : الإرهاب وإثارة الفتن والقلاقل .

كما أن هذا الجهاز يثير الفتن في العالم في الوقت الذي يرغب بإثارته ـ كما أنها تضرب بالأخلاق عرض الحائط ، وتتخذ كل دول العالم مجالاً لعملها وتحركها الهدام .انظر المجلة ـ صحيفة مصورة ـ جمهورية ألمانيا الديمقراطية ـ العدد ٧ لسنة ١٩٨٢ م

والضوابط التي تمتاز بإنسانيتها ، وتقدمها العلمي في الوقت الذي يعجز فيه العلم الحديث العسكري والاجتماعي عن تربية الإنسان الصالح في المجتمع ، الأمر الذي يدلل على قوة الشريعة الإسلامية واستيعابها لجميع مناحي الحياة .

ويمكن تلخيص النتائج التي توصلت إليها بما يلي :

جواز التجسس واستعمال الحيل :

تحرص كل دولة على أن تتوافر المعلومات لدى كبار المسئولين المدنيين والعسكريين ، لتأمين البلاد وحماية الاقتصاد الخاص بها والعناية بالجبهة الداخلية ووضع سياسة خارجية ناجحة ومؤثرة ، ومن ثم وضع الخطط الكفيلة بسلامة الدولة في مواجهه المواقف والأحداث .

وانطلاقاً من أهداف الإسلام السامية في حماية الرعية والذود عن البلاد ، وإظهار هيبة الدولة الإسلامية بين الدول الأخرى فإن لها أن تستعمل التجسس وترسل الجواسيس بل يتحتم عليها ذلك إذا كان التقصير فيه يؤدي إلى الضرر بالصالح الإسلامي العام .

ضرورة التجسس :

التجسس ضروري لكل دولة سواء أكان لجمع المعلومات عن العدو وإعدادها للاستفادة منها عند الحاجة ، أم كان لمقاومة جواسيس الأعداء وإيقاف حملاتهم الدعائية أو إشاعاتهم المغرضة خاصة في الحرب .

اتخاذ الإجراءات الوقائية :

إن الحذر من العدو في السلم والحرب ، واستخدام مختلف الوسائل الممكنة لمعرفته ، والوقوف على مخططاته ، كل ذلك من الأمور الهامة والتي لا تستغني عنها دولة بحال .

والدولة الإسلامية مكلفة بنشر الدين حتى يصبح العالم كله دار إسلام ، إلى جانب مهمتها في إخضاع رعاياها لسلطان الله تعالى ، ولذلك فإن عليها أن تعد العدة ، والتي

منها جمع المعلومات عن العدو والاستفادة منها ، في اتخاذ الإجراءات الوقائية من خطر جواسيس العدو وأعوانه في الداخل ، من أجل أن تحقق هدفها وتكون القوة التي تحتكم إليها جميع الدول .

التخطيط :

أهم وسيلة في القتال التخطيط المبني على المعرفة المتقدمة ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بوساطة الجواسيس ، يرسلون في أرض العدو .

وكان أهم ما يعني به صلى الله عليه وسلم في الحرب : أمر الاستخبارات السرية واستطلاع أحوال عدوه في كل حين ، ومعرفة قوته ، ومواقع استحكاماته ، ومواطن القوة والضعف فيه ، حتى يبني خطة عسكرية محكمة في مواجهة العدو .

جواز اتخاذ الجواسيس غير المسلمين حيث يطمأن لهم :

كان النبي ﷺ يعتمد على جهود المخلصين للإسلام من القبائل العربية المختلفة في إلقاء الرعب في قلوب أعدائه . وكان يحرص صلى الله عليه وسلم على أن يستسلم العدو دون القتال ، وهدفه من ذلك توفير الجهد ، والوقت ، وتجنب سفك الدماء . تمشياً مع أهداف الرسالة الإسلامية وتحقيق المقاصد والأهداف التي شرع من أجلها الجهاد .

ولذلك فإن أخبار قريش وتحركات القبائل العربية كانت تصل إليه في الوقت المناسب ، وغالباً ما تصل إليه قبل أن يبدأ العدو بتنفيذ عدوانه ، الأمر الذي يمكنه من الاستعداد والحذر .

مفاجأة العدو قبل استعداده بناءً على معلومات وصلت عنه .

من عادة النبي ﷺ أن يفاجىء العدو إذا أحس بالغدر منه ، وغالباً ما يغزو عدوه في عقر داره دون أن يعد العدو نفسه لملاقاة المسلمين كما فعل صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر .

الحذر من العدو وكتم الأخبار عنه :

كان صلى الله عليه وسلم يحذر عدوه في السلم كما يحذره في الحرب ، ولذلك كان يتكتم على العدو ويوصي المسلمين بالحذر والتكتم ، ويشدد التكتم عادة في الحرب حيث يضع الحراسات حول المدينة المنورة ، للحيلولة دون تسرب الأخبار إلى قريش .

ومن الوسائل التي اتخذها المسلمون في ذلك : استعمال الشعار (كلمة السر) أو « الشفرة » ، أو اللحن المصطلح عليه ، بحيث يفهمه القائد دون الناس . مثل : « عضل والقارة » . الأمر الذي فيه المحافظة على المعنويات ، والحذر من العدو في وقت واحد .

مقومات الجاسوس :

إن مهمة الجاسوس من أهم الأعمال التي توكل إليه كجندي خاصة أثناء الحرب ، ولذلك فإن أعمال الجاسوس المسلم إذا أخلص النيَّة لله تعالى من أجلّ الأعمال الجهادية .

ولابد أن تتوافر في الجاسوس صفات الشجاعة ، والذكاء ، والرغبة في العمل ، والدقة في الملاحظة في جمع المعلومات ، ومعرفة البلاد التي يعمل بها ، مع القدرة على كتم الانفعالات والتحكم بها إلى غير ذلك من الصفات الواجب توافرها فيه . الأمر الذي يعينه على أداء مهمته على وجه أكمل .

توجيه الجاسوس وتعليمه :

يعطى الجاسوس تدريبات خاصة ، قبل أن يوجه إلى مهمة معينة ، وقد تكون هذه التدريبات على صورة وصايا وتوجيهات عند البدء بتنفيذ المهمة ، كأن يعطى صورة عن كيفية دخوله وخروجه ، ومواجهته للمواقف والأحداث التي قد يتعرض لها . كما تكون هذه التدريبات متضمنة فنون التجسس وأساليبه ، واستعمال الأجهزة المختلفة ، لأداء المهام المنوطة به بدقة وإتقان ، مسترشداً في ذلك كله بما زود به من مساقاة مختلفة حول طبيعة الشعوب وأساليب أخذ المعلومات .

التحفظ في أخبار الجواسيس ومعاملتهم :

تتميز معاملة الجواسيس الذين يعملون لصالح الدولة بالحذر والاهتمام البالغين ، مع التلطف والتودد ، والبذل والعطاء ، والوفاء لهم ولذويهم ، الأمر الذي يدعو إلى كسب غيرهم من الجواسيس ويستدعي صدقهم ووفاءهم .

والدولة تطمع أن يكون لها جواسيس من الأعداء وتبذل في سبيل تحقيق ذلك الأموال الطائلة وتستميل أكبر عدد منهم وتغدق عليهم المال الوفير .

ولكن يجب التحفظ في أخبار الجواسيس ، بحيث لا تؤخذ الأخبار التي يأتون بها دون تمحيص ، وتدقيق ، ومقابلة وتحليل . لأن الجاسوس قد يخطىء وقد يكذب ، وقد يخدع أو يعتمد على أخبار أطلقها العدو بهدف التضليل .

يجب أن يكون للحاكم عيون على رعيته ليكون على بصيرة من أحوالها :

الحاكم راع للأمة وهو مسئول عن رعيته ، ولذا فإن عليه أن يتفقد أحوالها ، ويتحسس احتياجاتها . ويضع الأجهزة الخاصة لمراقبة أعمال الولاة ، وتوصيل المعلومات الخاصة بأحوال الرعية إليه على حقيقتها ، وذلك حتى يتمكن من إنصاف المظلوم ، ورد الحقوق إلى أهلها وتدارك الخلل قبل فوات الأوان .

كما يجب وضع العيون على أهل الريب وأصحاب البدع والضلالة ، وتعقبهم ، ومعرفة أفكارهم ، حتى يتمكن من تأديبهم ، وتخليص الأمة من شرهم وأذاهم .

حرمة الأفراد بعضهم على بعض :

لقد حفظ الإسلام الحرمات الخاصة بالمواطنين ، كما حفظ حرمة المساكن ، فلا يجوز التجسس عليها ولا استراق السمع عن أهلها ، كما لا يجوز الاستماع إلى حديث القوم وهم له كارهون لأنه حرام ، ويعتبر من التجسس المنهي عنه شرعاً .

حرمة التجسس لصالح العدو :

من التجسس المحرم : التجسس لصالح العدو ، وتوصيل المعلومات الخاصة بالمسلمين إليه خاصة وقت الحرب . لأن في ذلك خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين وموالاة للكفار الأمر الذي يجعل الفرد فريسة لأجهزة المخابرات المعادية ، التي تقوم بتصيد الأفراد مستغلة عثراتهم لتعمل على تجنيدهم للعمل لحسابها .

جواز وضع جاسوس على جاسوس :

تهتم الدول كثيراً بمراقبة الجواسيس بالجواسيس ، كما تهتم بمعرفة الأخبار وتمحيصها والتأكد منها بالمقابلة ، والمراجعة المتكررة ، حتى تطمئن إلى صحة الخبر قبل أن تعتمده .

وحرصاً من الدولة الإسلامية على المصلحة العامة ، فإن لها أن تضع الجواسيس على جواسيسها ، وذلك نظراً لخطورة المعلومات وأهميتها ، وهي معنية باتخاذ الحيطة والحذر .

المواطن في الدولة الإسلامية معني بالمحافظة على أسرار البلاد :

للفرد في المجتمع المسلم دوره الهام في المحافظة على الأمن والاستقرار في البلاد : وهو باعتبار موقعه يعرف من أسرار الدولة الكثير من المعلومات .

وللمحافظة على أسرار البلاد يلتزم المواطن بإجراءات الأمن وتعليماته ، لتأمين المنشآت وكتم الأسرار الخاصة بالدولة الإسلامية .

وقد يكون ذلك بما يلي :

١ ـ ترك كل ما يتعلق بالعمل في مكان العمل .

٢ ـ مسك اللسان وتجنب الحديث أو الثرثرة فيما يخص شؤون العمل خارج مكان العمل حتى ولو كان ذلك مع الأسرة أو أعز الأصدقاء .

٣ ـ عدم التطفل ومحاولة معرفة مالا يخص المواطن من المعلومات التي تخفى عليه ،

أو توجيه الأسئلة للآخرين عن أسرار عملهم ، وما يتعلق بهذه الأسرار .

٤ ـ كتمان كل ما يراه المواطن أو يسمعه من أسرار بلاده خاصة ما يتعلق بالمواقع العسكرية ومراكز الحدود ومواقع المطارات .. أو المنشآت الاقتصادية والحربية وأن لا يستهين بما لديه من معلومات مهما كانت بسيطة .

٥ ـ الحذر من الاستجابة للمتسائلين وتجنب الانزلاق في الحديث بأي شأن من شؤون البلاد وأخبارها أو الإدلاء بأية معلومات نتيجة نجاح شخص آخر في إثارة المتحدث ، مع الابتعاد عن التفاخر بقوة البلاد ، أو الاعتزاز والظهور بمظهر الإنسان الذي يعرف بواطن الأمور وأنه محط ثقة المسئولين بحيث لا يخفون عنه شيئاً من الأسرار التي تتعلق بمصير البلاد .

٦ ـ الحذر من الأشخاص الذين يتوددون بطريقة غير مألوفة ، أو يترقبون بطريقة مشبوهة ، أو الذين يكثرون من التساؤل عن أسرار العمل ، وما يتعلق بالشؤون العامة .

٧ ـ عدم إذاعة الشائعة أو ترويجها لأن ذلك خدمة للعدو ، دون قصد ، واقتراف للإثم ومخالفة للشرع . يقول صلى الله عليه وسلم : « كفا بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما يسمع » .

٨ ـ أن يعرف المواطن أنه مكلف ببناء بلاده في كل بقعة من الأرض الإسلامية ، وأنه مسئول عن ذلك أمام الله حسب موقعه ووظيفته ، وأنه مكلف قدر طاقته وإمكاناته بحماية بلاده وأنه على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبله .

٩ ـ مراعاة اختيار أفضل الأصدقاء والأصحاب وأكثرهم تديناً بعد التأكد من شخصياتهم ، وسلامة نواياهم ، وأن يعرف المسلم أنه مكلف بانتقاء الأصحاب الأنقياء ، ذوي الأخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة .

١٠ ـ عدم الاهتمام بالمظاهر الخادعة ، والتفاخر بالألقاب بذكر الوظائف والمناصب للأشخاص ذوي المسئولية الحساسة والمراكز القيادية المختلفة ونشرها في الصحف والمجلات ، لأن العدو قد يستفيد من ذلك أثناء جمعه للمعلومات أو أثناء تدبيره للمكائد .

١١ - على كل مواطن أن يتقدم إلى أجهزة الأمن المختصة ، ولفت نظر الجهات المعنية عن أي شخص يشك بموقفه أو اتصالاته المريبة خاصة الغرباء .

وبعـــد ..

فـإني أرجـو أن أكـون قـد مهـدت بهـذا البحث السبيـل إلى مبـاحث أكثر استفـاضـة وشمولاً ، ولا أدعي أنه خال من الثغرات ، ولكني حـاولت أن أفرغ كل جهـدي ، رجـاء الوصول إلى الغاية المرجوة . فإن وفقت فالحمد لله رب العـالمين ، وإن قصرت فـأرجو الله أن يشفع لي بـإخلاصي ، ودأبي في العمل ، واستعـدادي لتلافي التقصير بسماع النصيحـة ، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



بسم الله الرحمن الرحيم

ملحق

نص الفتوى الصادرة عن دار الإفتاء المصريه[١]

أ ـ خيانة الوطن تحت رقم ١٠٥٣

ب ـ التجسس في الإسلام[٢] تحت رقم ١١١٣

الموضوع

(١٠٥٣) خيانة الوطن

المبادىء

١ ـ الخيانة للوطن من الجرائم البشعة التي لا تقرها الشريعة الإسلامية

٢ ـ لم تحدد الشريعة الإسلامية عقوبة هذه الخيانة ، وتركت لولي الأمر تحديدها بما يردع صاحبها ، ويمنع شره عن جماعة المسلمين ، ويكفي لزجر غيره :

سئل :

من السيد / مندوب مجلة التحرير قال :

ما حكم الشريعة الإسلامية في المسلم الذي يخون وطنه في هذا الوقت الحاضر ؟

أجاب :

إن الشريعة الإسلامية أوجبت على كل مسلم أن يشارك إخوانه في دفع أي اعتداء

---

(١) انظر الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء المصرية ... المجلد ٧ / ٢٤٥٧ ـ ٢٤٥٨

القاهرة : ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م

منشورات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) المصدر السابق ص ٢٦٣٥ ـ ٢٦٤٠

يقع على وطنه ، أو على أي وطن إسلامي آخر ، لأن الأمة الإسلامية أمة واحدة . قال الله تعالى ﴿ **إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** ﴾[(١)] وكل بلد أغلب أهله مسلمون يعتبر بلداً لكل مسلم . فإذا وقع اعتداء من حكومة أجنبية على أي وطن إسلامي بقصد احتلاله ، أو احتلال جزء منه أو بأي سبب آخر ـ فرض على مسلمي هذا البلد فرضاً عينياً أن يجاهدوا ويقاتلوا لدفع هذا العدوان ، وعلى أهالي البلاد الإسلامية الأخرى مشاركتهم في دفع هذا العدوان ، ولا يجوز مطلقاً الرضا إلا بجلاء المعتدي عن جميع الأراضي . وكل من قصر في أداء هذا الواجب يعتبر خائناً لدينه ولوطنه وبالأولى كل من مالأ عدو المسلمين وأيده في عدوانه بأي طريق من طرق التأييد يكون خائناً لدينه ـ فإن الاعتداء الذي يقع على أي بلد من البلاد الإسلامية اعتداء في الواقع على جميع المسلمين ـ والخيانة للوطن من جرائم البشعة التي لاتقرها الشريعة الإسلامية ، والتي يترك فيها لولي الأمر أن يعاقب من يرتكبها بالعقوبة الزاجرة التي تردع صاحبها ، وتمنع شره عن جماعة المسلمين وتكفي لزجر غيره ـ ولم تحدد الشريعة الإسلامية هذه العقوبة وتركت لولي الأمر تحديدها . شأنها في ذلك شأن كل الجرائم السياسية . فقد جاء في الجزء الثالث من ابن عابدين ما نصه : والجهاد فرض عين إن هجم العدو . فيخرج الكل ، أي إن دخل العدو بلدة بغتة . وهذه الحالة تسمى النفير العام ، وهو أن يحتاج إلى جميع المسلمين . ولا أعلم مخالفاً لذلك من المسلمين ونصت الآية الكريمة على وجوب قتال الكفار إذا قاتلوا المسلمين وبدءوهم بالعدوان قال الله تعالى : ﴿ **وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين * فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم * وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين** ﴾[(٢)] . وقد نهى القرآن عن اتخاذ أعداء المسلمين أولياء . قال الله تعالى

---

(١) الآية رقم ٩٢ من سورة الأنبياء

(٢) الآيات ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ من سورة البقرة .

﴿ يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل * إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ﴾[1] وحكم هذه الآية كما ينطبق على المشركين الذين أخرجوا الرسول من بلده ينطبق على كل طائفة غير مسلمة تهاجم بجيوشها داراً من ديار الإسلام . والله أعلم .

الموضوع
(١١١٣) التجسس في الإسلام
المبادىء

١ ـ الجاسوسية واقعة مادية تثبت بالإقرار وبالبينة كما تثبت بالأوراق القاطعة في ذلك .

٢ ـ مذهب الأئمة الثلاثة الشافعي وأحمد وأبي حنيفة : عدم جواز قتل الجاسوس . أما المالكية فإنه يجوز عندهم قتله ولو كان من المسلمين ولا يستتاب ولا دية له عندهم

٣ ـ التجسس على المسلمسن لأعدائهم نوع من السعي في الأرض فساداً . وعقابه عقاب المحارب شرعاً .

٤ ـ سد الذرائع مناط للتشريع ، وأصل من أصول الأحكام الاجتهادية .

٥ ـ درء المفاسد عن المسلمين واجب ، وعلى ولي الأمر أن يعطيها ما تستحق من العناية

---

(١) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الممتحنة .

سئل :

عن رأي الإسلام في التجسس :

☆ أجاب :

بناء على القرار الصادر من محكمة جنايات القاهرة في قضية الجناية رقم .... لسنة ١٩٥٧ ـ قصر النيل .... كلي سنة ١٩٥٧ المؤجل النطق بالحكم فيها لجلسة ٢٢ يونية سنة ١٩٥٧ لإبداء رأينا بالنسبة للمتهم الرابع وفقاً لنص المادة ٣٨١ / ٢ من قانون الإجراءات الجنائية . قد اطلعنا على أوراق القضية وتحقيقات النيابة وعلى محاضر الجلسات أمام محكمة الجنايات وأمام غرفة الاتهام وذلك بالنسبة للمتهم المذكور . وتبين أنه ألقي القبض عليه وهو في بيت المتهم الأول في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٥٦ ، وأن نيابة أمن الدولة حققت معه . وأقواله مدونة بالصفحات من ١٥ إلى ٢١ كما أنها استجوبته بالصفحات ٢٠٩ وما يليها . وهذه الأقوال واضحة في اعتراف المتهم بأنه كان يعطي المتهم الأول معلومات عن القوة المصرية ، وأنه كان يستخدم في ذلك ابن شقيقته الذي يعمل في سلاح الصيانة . كما كان يستخدم ابنه وغيرهما وكان ينقل كل مايصل إليه من معلومات نظير الأجر الذي يتقاضاه ، وقد اعترف أيضاً أمام غرفة الاتهام أنه لم يفعل شيئاً وأن ما ذكره كان من الجرائد وأنه ذكر عدة أسماء ليتقاضى نقوداً ، واعترافه أمام غرفة الاتهام لا ينفي شيئاً من أقواله أمام النيابة بل يؤكدها ، ويحاول التنصل منها ومن تبعاتها بما ذكره من أنه كان ينقل ما ينقله من الجرائد . ولما سئل من المحكمة عن التهم المنسوبة إليه أنكرها ، ولما واجهته المحكمة بأنه اعترف بها في التحقيق أجاب بأنه اعترف تحت تأثير التهديد في الأودة الضلمة من المباحث العامة . ولما سئل عن التعذيب الذي يفهم من إجابته أجاب بأنه تهديد فقط إلى آخر أقواله التي لا تخرج عن محاولة إنكار اعترافاته أو نسبتها إلى التهديد الأمر الذي لم يقم عليه دليل فضلاً عن أنه قد أكد هذه الاعترافات أمام غرفة الاتهام كما بينا . ولهذا كله نرى أن تهمة الجاسوسية ثابتة عليه من اعترافاته التي تأيدت بأقوال غيره من أقاربه ومن غيرهم وبما ضبط من أوراق . أما حكم الشريعة فيمن يتجسس على

(☆) المفتي : فضيلة الشيخ حسن مأمون ـ ص ٨٣ ـ م ٤٦ ـ ص ٤٦ ـ ١٤ ذو القعدة ١٣٧٦ هـ ـ ١٢ يونية ١٩٥٧ م .

المسلمين وينقل أخبارهم وخاصة ما كان منها متعلقاً بالدفاع عن البلاد الإسلامية . فقد اختلف فيه الفقهاء فذهب كثير منهم إلى عدم قتل المسلم الجاسوس كالشافعي وأحمد وأبو حنيفة . وذهب الإمام مالك وابن القيم من أصحاب أحمد وغيرهما إلى إباحة قتل الجاسوس المسلم . وقد استدل الفريق الثاني بحادثة حاطب بن أبي بلتعة . فعن علي رضي الله عنه قال : « بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تتعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب . فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ : يا حاطب ما هذا ؟ قال : يا رسول الله لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقاً في قريش ولم أكن من أنفسها وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام فقال رسول الله ﷺ : لقد صدقكم . فقال عمر : يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق فقال : إنه قد شهد بدراً وما يدريك لعل الله أن يكون قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فنزلت الآية الكريمة ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق** ﴾[1] الآية وقد ورد في هذه الآية النهي عن موالاة غير المسلمين إذا عرفت عداوتهم لهم قال تعالى : ﴿ **إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم** ﴾[2] . الآية . وقد جاء في كتاب زاد المعاد لابن القيم بالصفحة ٣٧٧ جزء ٣ المطبوع على هامش القسطلاني ما نصه بعد أن أورد الحديث الخاص بتجسس حاطب بن أبي بلتعة (واستدل به من يرى قتله كالك وابن عقيل من أصحاب أحمد رحمه الله وغيرهما قالوا لأنه علل بعلة مانعة

---

(١) من الآية رقم ١ من سورة المتحنة .

(٢) من الآية رقم ٩ من سورة المتحنة .

من القتل منتفية في غيره ، ولو كان الإسلام مانعاً من قتله لم يعلل بأخص منه ، لأن الحكم إذا علل بالأعم كان الأخص عديم التأثير وهذا أقوى) وقد جاء في صفحة ١٤٣ من الجزء الثاني من كتاب تبصرة الحكام لابن فرحون المالكي قال سحنون : في المسلم يكتب لأهل الحرب بأخبارنا يقتل ولا يستتاب ولا دية لورثته كالمحارب - وقد نقل صاحب نيل الأوطار هذا الحديث وقال إنه متفق عليه . وقال في التعليق عليه وفي الحديث دليل على أنه يجوز قتل الجاسوس وأن فيه متمسكاً لمن قالوا إنه يجوز قتل الجاسوس ولو كان من المسلمين . وقد نقل ابن حجر في شرحه المسمى فتح الباري الجزء السابع . منه - أن عمر رضي الله عنه لما قال الرسول ﷺ - أليس قد شهد بدراً قال بلى ولكنه نكث وظاهر أعداءك عليك . فقال الرسول ﷺ : وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم - وهذا يؤكد ما ذهب إليه من استدل بهذا الحديث على جواز قتل الجاسوس المسلم على ما بَيّنا - وأيضاً فإن التجسس على المسلمين لصالح أعدائهم عمل يعرض مصالح المسلمين وبلادهم للضرر ، وهو نوع من السعي بالفساد وقد نزلت الآية الكريمة في عقاب من يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً وهي قوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم** ﴾[1] وقد بين ابن جرير الطبري في تفسيره أن سبب نزول هذه الآية قد بينه ابن عباس رضي الله عنه قال : كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق فنقضوا العهد وأفسدوا في الأرض فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف . ونقل مثل ذلك عن غير ابن عباس رضي الله عنه - وقد بين القرطبي في تفسيره أن العلماء اختلفوا فيمن يستحق اسم المحاربة فقال مالك : المحارب عندنا من حمل على الناس في مصر أو برية أو كابرهم عن أنفسهم وأموالهم دون ثائرة أي هائجة ولا دخل أي ولا ثأر ولا عداوة . وقال الشافعي وأبو ثور : يجرى هذا الحكم سواء أكان في المصر أو في المنازل والطرق وديار أهل البادية والقرى . وقال ابن المنذر :

---

(١) الآية ٣٣ من سورة المائدة .

هو كذلك لأن كلا يقع عليه اسم المحاربة والكتاب على العموم وليس لأحد أن يخرج من عموم الآية قوماً بغير حجة . وقالت طائفة لا تكون المحاربة في المصر إنما تكون خارجة عن المصر وهو قول النووي وإسحاق والنعمان - واختلفوا في حكم المحارب . فقالت طائفة يقام عليه بقدر فعله وقال أبو ثور ومالك وقد روي عن كثير من الصحابة أن الإمام مخير في الحكم على المحاربين . واستدلوا بظاهر الآية قال ابن عباس ما كان في القرآن - أو - فصاحبه بالخيار وهذا القول أشعر بظاهر الآية .

ومما تقدم يظهر أن في حكم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً قولين : أحدهما أنه يحكم على كل بقدر فعله . والثاني أن الإمام مخير في الحكم عليهم بإحدى العقوبات الواردة في الآية ومنها القتل ، وأن القول الثاني هو المتفق مع ظاهر الآية الكريمة . والحكمة في تشديد العقوبة على المحاربين لله ورسوله أي لأوليائهم وهم المسلمون - ويسعون في الأرض فساداً هو ضمان أمن المسلمين في بلادهم .

... ومن يتجسس على المسلمين ويتصل بأعدائهم ويعطيهم علماً بأسرار عسكرية سرية لينتفعوا بها في البطش بهم ، وإلحاق الأذى والضرر ببلادهم جدير بأن نعامله معاملة من يحارب الله ورسوله ويسعى في الأرض فساداً فلكل أمة نظمها العسكرية . والمصلحة العامة تستلزم أن تحتفظ لنفسها بأسرار تخفيها عن أعدائها ، ولا يعلمها إلا أهلها المتصلون بحكم عملهم بها . فإذا سولت نفس أحد المواطنين له بأن يستطلع أمر هذه الأسرار بطرقه المختلفة - وينقلها إلى أعدائه وأعداء بلاده كان جاسوساً وكان ممن يسعى في الأرض بالفساد ولأن من شأن اطلاع العدو على هذه الأسرار أن يسهل عليه محاربة المسلمين وتوهين قواهم ، وربما آل الأمر إلى احتلال بلادهم لا قدر الله وبسط سلطانه ونفوذه عليها . ولا نزاع في أنه يبدو من الاطلاع على أوراق القضية أن المتهم الرابع هو المسئول الأول عن التجسس الذي ثبت ثبوتاً لا مجال للشك فيه وأنه رضي بأن يبيع بلده وأمته لأعدائهم نظير ما كان يتقاضاه من الأجر الذي كان يعطى له نظير قيامه بهذه المهمة - بل إننا نرى أن شأنه من ناحية الخطورة والضرر الذي قد يصيب أمته من عمله أعظم من شأن من يقف في الطريق ويقطعه على المارة ويهددهم في أنفسهم وأموالهم . وقد أجاز الحنفية القتل سياسة ، فأجازوا قتل الساحر والزنديق الداعي ، لأن كلا منهما

يفسد في الأرض بسعيه في إفساد عقيدتهم . وقد جاء في تنقيح الحامدية مانصه (سئل في رجل عدائي مفسد غماز يسعى في الأرض بالفساد ويوقع الشر بين العباد ويغري على أخذ الأموال بالباطل وذبح العباد ويؤذي المسلمين بيده ولسانه ولا يرتدع عن تلك الأفعال إلا بالقتل فما حكمه - وأجاب صاحب التنقيح بأنه إذا كان كذلك أو خبر جم من المسلمين بذلك يقتل ويثاب قاتله لما فيه من دفع شره عن عباد الله - وجاء في الجزء الأول من تفسير الإمام محمد عبده أنه جعل سد ذرائع الفساد والشر وتقرير المصالح وإقامة الحق والعدل في تنازع الناس بعضهم مع بعض مناطاً للتشريع ، وأصلا من أصول الأحكام الاجتهادية وذلك لأن الله علل به شرعه للقتال ومنته على نبيه داود وجنده بالنصر على عدوهم ، وما ترتب عليه من إيتائه الحكم والنبوة إذ قال ﴿ **فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين** ﴾[1] وفي معناه تعليل الإذن للمسلمين في القتال أول مرة بقوله تعالى ﴿ **أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز** ﴾[2] وما هنا أعم لأنه يشمل درء المفسدة في الدين وغيرها من الفساد الديني والدنيوي وهو المتأخر في النزول - ومن هنا نعرف أن درء المفاسد والشرور عن المسلمين من الواجبات التي يجب على ولي الأمر أن يوليها ما تستحق من العناية - ولا نزاع في أن الجاسوسية من أخطر الأعمال التي تعرض البلاد للفساد والشر والضرر إذا لم يضرب بيد قوية على من تسول له نفسه أن يقدم عليها غير مراع في عمله حرمة دينه وبلاده وأهله ووطنه ، وما لهم عليه من حقوق أقلها أن يكون مواطناً صالحاً يتعاون معهم على البر والخير ، ولا يتعاون على الإثم والعدوان .

ولهذا كله نرى مطمئنين إلى فتوانا أنه يجوز قتل المتهم المذكور .

والله أعلم ...

---

(١) الآية رقم ٢٥١ من سورة البقرة .

(٢) الآيتان ٣٩ ، ٤٠ من سورة الحج .

فهرس المصادر

القرآن الكريم

١ ـ كتب التفسير .

٢ ـ كتب الحديث وعلومه .

٣ ـ كتب الفقه .

٤ ـ كتب اللغة .

٥ ـ كتب التاريخ والأدب والسير والقانون والسياسة .

٦ ـ كتب متنوعة .

٧ ـ المجلات والصحف .

١ ـ كتب التفسير

١ ـ تفسير القرآن العظيم (المعروف بتفسير ابن كثير) :
ابن كثير : أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت : ٧٤٤ هـ) .
طبعة : كتاب دار الشعب / القاهرة .

٢ ـ جامع البيان في تفسير القرآن :
الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير : (ت : ٣١٠ هـ) .
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة الثانية ١٩٧٢ .
وعند الاختلاف أشير إلى الطبعة .

٣ ـ الجامع لأحكام القرآن :
القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت : ٦٧١ هـ) .
مصور عن طبعة دار الكتب للطباعة والنشر / القاهرة : ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .

٤ ـ حقائق التنزيل وعيون الأقاويل (في وجوه في التأويل) :
(الشهير بتفسير الكشاف) .
الزمخشري : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (ت : ٥٣٨ هـ) .
الطبعة الأخيرة : ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م .

٥ ـ مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير :
الرازي : الإمام محمد الرازي فخر الدين الرازي .
المطبعة الخيرية ـ مصر ـ الطبعة الأولى : ١٣٠٨ هـ .

٦ ـ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم :
الألوسي : شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي (ت : ١٢٧٠ هـ) .
إدارة الطباعة الخيرية / دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٧ ـ أحكام القرآن :
الجصاص : أبو بكر أحمد بن علي الرازي (ت : ٣٧٠ هـ) .
دار المصحف / شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن ـ القاهرة .

٨ ـ تفسير المراغي .
أحمد مصطفى المراغي .
مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر / الطبعة الثانية ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

٩ ـ في ظلال القرآن الكريم :
سيد قطب .
دار العربية ـ بيروت .

١٠ ـ تفسير المنار :
محمد رشيد رضا .
الطبعة الرابعة ١٩٦٠ .

١١ ـ تفسير القاسمي المسمى : « محاسن التأويل » :
محمد جمال الدين القاسمي : (ت : ١٣٣٢ هـ) .
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
دار إحياء الكتب العربية ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي الطبعة الأولى ١٩٥٧م ـ ١٣٧٧هـ .

٢ ـ كتب الحديث الشريف وعلومه

١٢ ـ صحيح البخاري :
البخاري : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت : ٢٥٦ هـ) .
طبعة الشعب : ١٣٧٨ هـ .

١٣ ـ تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي :
المباركفوري : محمد عبد الرحمن (ت : ١٣٥٣ هـ) .

مراجعة عبد الرحمن محمد عثمان .
الناشر : محمد عبد المحسن الكتبي / مطبعة المدني بالقاهرة .
الطبعة الثانية ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .

١٤ ـ صحيح مسلم :
الإمام : مسلم بن الحجاج القشيري (ت : ٢٦١ هـ) .
تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي .
مطبعة عيسى البابي الحلبي . الطبعة الأولى ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م .

١٥ ـ صحيح البخاري بفتح الباري :
البخاري / أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) .
مطبوع مع فتح الباري .
المطبعة السلفية ومكتبتها ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٥٩ م .

١٦ ـ عمدة القاري شرح صحيح البخاري :
العيني : بدر الدين محمود بن أحمد العيني (ت : ٨٥٥ هـ) .
الناشر : محمد أمين دمج / بيروت . إدارة الطباعة المنيرية / بالأوفست .

١٧ ـ فتح الباري شرح صحيح البخاري :
أحمد حجر : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت : ٨٥٢ هـ) .
المطبعة السلفية ـ مصطفى البابي الحلبي ـ مصر : ١٩٥٩ م .

١٨ ـ صحيح البخاري بشرح عمدة القاري :
مطبوع مع عمدة القاري .
الناشر : محمد أمين دمج / بيروت ـ إدارة الطباعة المنيرية / بالأوفست .

١٩ ـ الترغيب والترهيب :
المنذري : زكي الدين عبد العظيم عبد القوي المنذري (ت : ٦٥٦ هـ) .
الناشر : مكتبة الجمهورية العربية / مصر .
دار الاتحاد العربي للطباعة : ١٩٧١ م .

٢٠ ـ صحيح مسلم بشرح النووي :
مطبوع مع شرح النووي .
الإمام مسلم بين الحجاج القشيري (ت : ٢٦١ هـ) .
المطبعة المصرية ومكتبتها .

٢١ ـ شرح صحيح مسلم :
النووي : أبو زكريا يحي بن شرف (ت : ٦٧٦ هـ) .
المطبعة المصرية ومكتبتها .

٢٢ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس :
إسماعيل بن محمد العجلوني الجراحي (ت : ١١٦٢ هـ) .
نشر وتوزيع مكتبة التراث الإسلامي ـ حلب .

٢٣ ـ مسند الطيالسي بترتيب منحة المعبود للساعاتي :
أبو داوود الطيالسي : (ت : ٢٠٤ هـ) .
المطبعة المنيرية بالأزهر . الطبعة الأولى : ١٣٧٢ هـ .

٢٤ ـ سنن الدارمي :
أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي (ت : ٢٥٥ هـ) .
سلسلة مطبوعات كتب السنة النبوية .
شركة الطباعة الفنية المتحدة ـ السعودية ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

٢٥ ـ سنن أبي داوود بشرح عون المعبود وشرح الحافظ ابن قيم الجوزية :
الناشر : المكتبة السلفية / المدينة المنورة .
الطبعة الثانية ١٩٦٨ م .

٢٦ ـ موطأ مالك :
الإمام : مالك بن أنس (ت : ١٧٩ هـ) .
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .

٢٧ ـ المنتقى من السنن المسندة عن رسول الله ﷺ :
ابن الجارود : أبي محمد عبد الله بن علي بن الجارود النيسابوري (ت : ٣٠٧ هـ) .
الناشر : عبد الله هاشم اليماني / المدينة المنورة .
مطبعة الفجالة / القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ م .

٢٨ ـ لامع الدراري على جامع البخاري :
أبو مسعود رشيد أحمد الكنكوهي (ت : ١٣٢٣ هـ) .
المكتبة الإمدادية ـ مكة المكرمة ـ مطبعة عزيز لاهور : باكستان ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٢٩ ـ جامع الترمذي :
أبي عيسى محمد بن مسورة (ت : ٢٩٧ هـ) .
تحقيق : إبراهيم عطوة عوض .
مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ .

٣٠ ـ جمع الجوامع (المعروف بالجامع الكبير) :
جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ) .
الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية .

٣١ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير :
المناوي : محمد المدعو عبد الرؤوف المناوي .
المكتبة التجارية الكبرى ـ الطبعة الأولى ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

٣٢ ـ مسند أحمد بن حنبل :
الإمام : أحمد بن حنبل (ت : ٢٤١) .
المكتب الإسلامي ودار صادر / بيروت .
مصورة عن طبعة البابي الحلبي ـ مصر .

٣٣ ـ سنن أبي داوود :
سليمان بن الأشعث السجستاني (ت : ٢٧٥ هـ) .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م .

٣٤ ـ المستدرك :
الحاكم : أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري (ت : ٤٠٥ هـ) .
الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة ـ الرياض .

٣٥ ـ سنن ابن ماجه :
ابن ماجة : محمد بن يزيد القزويني (ت : ٢٧٥ هـ) .
تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

٣٦ ـ السنن الكبرى :
البيهقي : أبو بكر أحمد بن الحسين (ت : ٣٥٨ هـ) .
مطبعة دار المعارف العثمانية ـ الهند ـ حيدر آباد .
الطبعة الأولى : ١٣٥٦ هـ .

٣٧ ـ سنن الإمام النسائي :
أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب (ت : ٣٠٣ هـ) .
المطبعة النظامية ـ الكانفور ـ الهند : ١٢٩٦ هـ .

٣٨ ـ سنن النسائي بشرح السيوطي :
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت .

٣٩ ـ نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار :
الشوكاني : محمد بن علي بن محمد : (ت : ١٢٥٥ هـ) .
الطبعه الأخيرة ـ مصطفى البابي الحلبي بمصر .

٤٠ ـ الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني :
أحمد عبد الرحمن البنا .
الطبعة الأولى : ١٣٧٠ هـ .

٤١ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد :
نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت : ٨٠٧ هـ) .
الناشر : مكتبة القدسي / القاهرة ١٣٥٣ هـ .

٤٢ ـ الزهد والرقائق :
ابن المبارك : شيخ الإسلام عبد الله بن المبارك المروزي (ت : ١٨١ هـ)
تحقيق : حبيب الرحمن الأعظمي .
الناشر : مجلس إحياء المعارف ـ بماليكاون ـ ناسك ـ الهند :
١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٦ م .

٤٣ ـ شرح صحيح مسلم :
الشيخ محمد الذهني .
مطبعة مصطفى البابي الحلبي / مصر : ١٣٧٧ هـ .

٤٤ ـ شرح السنة :
الإمام البغوي : أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي (ت : ٥١٦ هـ) .
تحقيق : شعيب أرناؤوط .
المكتب الإسلامي / دمشق : الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٤٥ ـ الفتح الكبير في ضم الزيادات إلى الجامع الصغير :
السيوطي : الإمام : جلال الدين السيوطي (ت : ٩١١ هـ) .
دار الكتب العربية الكبرى / مطبعة البابي الحلبي / مصر .

٤٦ ـ الأدب المفرد .
البخاري : أبي عبد الله إسماعيل البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) .
الناشر : قصي محب الدين الخطيب .
الطبعة الثانية / القاهرة : ١٣٧٩ هـ .

٤٧ ـ الجامع الصغير بشرح فتح القدير :
السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت : ٩١١ هـ) .

المكتبة التجارية الكبرى / مصر : الطبعة الأولى : ١٣٥٦ هـ .

٤٨ ـ المعجم الكبير :
الطبراني : الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (ت : ٣٦٠ هـ) .
تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي .
منشورات وزارة الثقافة / الجمهورية العراقية : مطبعة الوطن العربي .

٣ ـ كتب الفقه

أ ـ الفقه الحنفي :

٤٩ ـ البحر الرائق شرح كنز الدقائق :
ابن نجيم : زين الدين بن إبراهيم بن نجيم الحنفي (ت : ٩٧٠ هـ) .
الطبعة الثانية (بالأوفست) .
دار المعرفة للطباعة والنشر / بيروت لبنان .

٥٠ ـ الهداية شرح بداية المبتدي :
المرغيناني : علي بن أبي بكر عبد الجليل الراشداني (ت : ٥٩٣ هـ) .
الطبعة الأخيرة ـ مصطفى البابي الحلبي ـ بمصر .

٥١ ـ الفتاوى الهندية (العالمكيرية) :
الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند .
دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت ـ لبنان .
الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م مصورة عن طبعة بولاق الثانية ١٣١٠ هـ .

٥٢ ـ الفتاوى الخيرية لنفع البرية :
الطبعة الثانية ـ دار المعرفة ـ بيروت : ١٩٧٤ م .
(مصورة بالأوفست) عن طبعة بولاق : ١٣٠٠ هـ .

٥٣ ـ حاشية الطحطاوي على الدر المختار :
أحمد الطحطاوي الحنفي :

دار المعرفة للطباعة والنشر .
بيروت ـ لبنان (طبعة مصورة بالأوفست) .

٥٤ ـ شرح السير الكبير :
شمس الدين محمد بن سهل السرخسي .
تحقيق عبد العزيز أحمد ، د . صلاح الدين المنجد .
مطبعة شركة الإعلانات الشرقية ١٩٧٢ م .

٥٥ ـ المبسوط :
السرخسي : شمس الدين محمد بن أبي سهل السرخسي .
الطبعة الأولى : مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .

٥٦ ـ الخراج :
لأبي يوسف بن الحجاج .
الطبعة الرابعة . القاهرة ١٣٩٢ هـ .

٥٧ ـ حاشية ابن عابدين :
محمد بن أمين بن عابدين (ت : ٥١٢ هـ) .
دار إحياء التراث العربي ـ بيروت : طباعة دار الطباعة المصرية ١٩٧٢ م .

٥٨ ـ حاشية شهاب الدين أحمد الشلبي على شرح الكنز مطبوع مع تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق :
الزيلعي : عز الدين عثمان بن علي الزيلعي الحنفي .
دار المعرفة للطباعة والنشر / بيروت .
الطبعة الثانية (بالأوفست) عن الطبعة الأولى بولاق ١٣١٣ هـ .

٥٩ ـ بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع :
الكاساني : علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني (ت : ٥٨٧ هـ) .
الناشر : زكريا علي يوسف .
مطبعة الأهرام / القاهرة ١٩٧٢ م .

ب ـ الفقه المالكي

٦٠ ـ شرح الخرشي على مختصر خليل :
الخرشي : أبو عبد الله محمد الخرشي (ت : ١١٠١ هـ) .
دار صادر / بيروت .

٦١ ـ مواهب الجليل :
الحطاب : أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي .
مكتبة النجاح / طرابلس ـ ليبيا . مصورة .

٦٢ ـ شرح الزرقاني على مختصر سيدي خليل :
دار الفكر ـ بيروت ٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م . مصورة .

٦٣ ـ شرح فتح الجليل عن مختصر العلامة خليل :
الشيخ محمد عليش .
الناشر : مكتبة النجاح / طرابلس / ليبيا . مصورة .

٦٤ ـ التاج الإكليل لمختصر خليل .
مطبوع بهامش مواهب الجليل .
مكتبة النجاح ـ طرابلس ـ ليبيا مصورة .

٦٥ ـ قوانين الأحكام الشرعية ومسائل الفروع الفقهية :
ابن جزي : محمد بن جزي الغرناطي المالكي (ت : ٧٤١ هـ) .
دار العلم للملايين : بيروت ١٩٦٨ م .

٦٦ ـ تبصرة الأحكام في أصول الأقضية والأحكام :
ابن فرحون . أبو إسحاق بن إبراهيم بن علي بن فرحون (ت : ٧٩٩) .
الطبعة الأخيرة ١٩٥٨ مطبوع بهامش فتح العلي المالك .

٦٧ ـ حاشية الدسوقي على الشرح الكبير :
الدسوقي : شمس الدين محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي (ت : ١٢٣٠ هـ) .

طبع بدار إحياء الكتب العربية .
مطبعة عيسى البابي الحلبي / مصر .

٦٨ ـ الشرح الكبير على مختصر خليل :
الدردير : أبو البركات سيدي أحمد الدردير (ت : ١٢٠١ هـ) .
مطبوع بهامش حاشية الدسوقي .

جـ ـ الفقه الشافعي

٦٩ ـ الأم :
الإمام الشافعي : محمد بن إدريس الشافعي (ت : ٢٠٤ هـ) .
طبعة الشعب . القاهرة ١٩٦٨ م .

٧٠ ـ المهذب :
الشيرازي : أبو إسحاق إبراهيم بن علي الفيروز آبادي (ت : ٤٧٦ هـ) .
مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصر .

٧١ ـ روضة الطالبين :
النووي : أبو زكريا يحيي بن شرف (ت : ٦٧٦ هـ) .
المكتب الإسلامي للطباعة والنشر .

٧٢ ـ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج :
شهاب الدين محمد بن أبي العباس أحمد بن حمزة بن شهاب الدين الرملي الشافعي الصغير (ت : ١٠٠٤ هـ) .
مع حواشيه .
شركة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ـ الطبعة الأخيرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .

٧٣ ـ الأحكام السلطانية والولايات الدينية :
للماوردي : علي محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت : ٤٥٠ هـ) .
الطبعة الثانية : ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه وعند الاختلاف أشير إلى الطبعة .

٧٤ ـ نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج :
الرملي : شمس الدين الرملي ـ الشافعي الصغير (ت : ١٠٠٤ هـ) .
مطبعة عيسى البابي الحلبي . ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .

٧٥ ـ كفاية الأخيار :
تقي الدين الحصني الدمشقي الشافعي .
مطبعة البابي الحلبي : ١٩٣٧ م .

٧٦ ـ إعانة الطالبين على ألفاظ فتح المعين :
السيد البكري : أبي بكر محمد شطا الدمياطي .
مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده / مصر : ١٣٤٥ هـ .

٧٧ ـ شرح منهاج الطالبين :
جلال الدين المحلي .
الناشر : دار إحياء الكتب العربية . مطبعة عيسى البابي الحلبي / مصر .

٧٨ ـ غاية البيان على زبد الشيخ أحمد بن رسلان :
شمس الدين أحمد الرملي الأنصاري .
الناشر : دار إحياء الكتب العربية / مصر . مطبعة عيسى البابي الحلبي .

د ـ الفقه الحنبلي

٧٩ ـ المغني :
ابن قدامة : أبو محمد عبد الله بن أحمد محمد بن قدامة .
تحقيق محمود عبد الوهاب وغيره .
مكتبة القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٦٩ م .

٨٠ ـ الزوائد في فقه الإمام أحمد بن حنبل :
محمد عبد الله آل حسين (ت : ١٣٨١ هـ) .
المطبعة السلفية ومكتبتها .

٨١ ـ الأحكام السلطانية :
أبي يعلى : محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت : ٤٥٨ هـ) .
الطبعة الأولى : ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٨ م .
وعند الاختلاف أشير إلى الطبعة .

٨٢ ـ منتهى الإرادات (في جمع المقنع مع التنقيح وزيادات) :
ابن النجار : تقي الدين محمد بن أحمد الفتوحي الحنبلي .
تحقيق عبد الغني عبد الخالق .
مكتبة دار العروبة .

٨٣ ـ التنقيح المشبع في تحرير أحكام المقنع :
المرداوي : علاء الدين أبو الحسن علي بن سليمان (ت : ٨٨٥ هـ) .
المطبعة السلفية .

٨٤ ـ زاد المعاد :
ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبي عبد الله (ت : ٧٥١ هـ) .
مصطفى البابي الحلبي : ١٩٧٠ م .

٨٥ ـ العدة شرح العمدة :
للمقدسي : عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور المقدسي (ت : ٦٠٠ هـ) .
الطبعة الثانية : ١٣٨٢ هـ .

٨٦ ـ أحكام أهل الذمة :
ابن قيم الجوزية : شمس الدين أبي عبد الله (ت : ٧٥١ هـ) .
تحقيق الدكتور صبحي الصالح .
مطبعة جامعة دمشق : الطبعة الأولى ١٩٦١ م .

٨٧ ـ المغني على مختصر الخرقي :
تحقيق محمود عبد الوهاب ـ عبد القادر أحمد عطا .
مكتبة القاهرة : الطبعة الأولى : ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

٨٨ ـ المغني على مختصر الخرقي :
ابن قدامة : موفق الدين أبي محمد بن أحمد بن قدامة (ت : ٦٣٠ هـ) .
مطبوع مع الشرح الكبير على متن المقنع .
دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع ـ لبنان / بيروت ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

٨٩ ـ كشاف القناع من متن الإقناع :
منصور بن يونس بن إدريس البهوتي (ت : ١٠٥١ هـ) .
مراجعة : هلال مصيلحي مصطفى هلال .
الناشر : مكتبة النصر الحديثة / الرياض .

٩٠ ـ الآداب الشرعية والمنح المرعية :
المقدسي : شمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي .
إشراف السيد محمد رشيد رضا .
مطبعة المنار / بمصر الطبعة الأولى : ١٣٤٩ هـ .

هـ ـ فقه الشيعة

٩١ ـ البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار : « فقه زيدي » .
أحمد بن يحيي المرتضى (ت : ٨٤٠ هـ) .
مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية : ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٥ م .

٩٢ ـ النهاية في مجرد الفقه والفتاوى (إمامية) :
الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت : ٤٦٠ هـ) .

و ـ فقه الخلاف

٩٣ ـ الميزان :
الشعراني : عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري المصري .
المطبعة الأزهرية ـ مصر .
الطبعة الرابعة : ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م .

٩٤ ـ اختلاف الفقهاء : (كتاب الجهاد والجزية والمحاربين) :
الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠ هـ) .
نشرة : يوسف شخت .
طبعة ليدن ١٩٣٣ م .

٩٥ ـ فقه الإمام الأوزاعي :
د . محمد عبد الله الجبوري .
مطبعة الإرشاد / بغداد : ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

٤ ـ كتب اللغة

٩٦ ـ لسان العرب المحيط :
ابن منظور : جمال الدين محمد بن محمد بن مكرم (ت : ٧١١ هـ) .
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر .
الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٩٧ ـ المعجم الوسيط :
إبراهيم مصطفى ـ أحمد حسن الزيات ـ أحمد عبد القادر ـ محمد علي النجار .
إشراف : عبد السلام هارون .
المكتبة العلمية : طهران .

٩٨ ـ القاموس المحيط :
الفيروز آبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي (ت : ٨١٧ هـ) .
مطبعة مصطفى الحلبي بمصر ـ طبعة ١٩٥٢ م .

٩٩ ـ تاج العروس :
الزبيدي : الإمام السيد محمد مرتضى الزبيدي .
الناشر : دار ليبيا للنشر والتوزيع / بنغازي .
مطابع دار صادر ـ بيروت : ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦ م .

١٠٠ ـ تهذيب اللغة :
الأزهري : أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت : ٣٧٠ هـ) .
تحقيق عبد السلام هارون .
الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ مطابع سجل العرب .

١٠١ ـ المصباح المنير في غريب الشرح الكبير :
أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت : ٧٧٠ هـ) .
دار المعارف / القاهرة .

١٠٢ ـ مختار الصحاح :
للشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي .
الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٠٣ ـ المنجد :
الطبعة ١٩ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت .

٥ ـ كتب التاريخ والأدب والسير والسياسة والقانون

١٠٤ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام :
الدكتور جواد علي .
دار العلم للملايين / بيروت / لبنان . الطبعة الأولى : ١٩٧٠ م .

١٠٥ ـ الكامل في التاريخ :
ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت : ٦٣٠ هـ) .
دار صادر ـ دار الصياد للطباعة والنشر .
بيروت ـ ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م .

١٠٦ ـ تاريخ اليعقوبي :
أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري

(ت : ٢٩٢ هـ) .
الناشر : المكتبة المرتضوية في النجف / مطبعة الغرى ـ النجف ١٣٥٨ هـ .

١٠٧ ـ البداية والنهاية « في التاريخ » :
ابن كثير : عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت : ٧٧٤ هـ) .
مطبعة السعادة / مصر .

١٠٨ ـ تاريخ الخلفاء :
السيوطي : الإمام جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ت ٩١١ هـ .
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة / الطبعة الرابعة ١٣٨٩ هـ ـ ١٩٦٩ م .

١٠٩ ـ التاريخ الكبير :
البخاري : أبو إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت : ٢٥٦ هـ) .
مطبعة الدكن .

١١٠ ـ مقدمة ابن خلدون :
عبد الرحمن بن خلدون .
دار القلم / بيروت / لبنان . الطبعة الأولى ـ مصورة : ١٩٧٨ م .

١١١ ـ تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي :
الدكتور حسن إبراهيم حسن .
مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الرابعة : ١٩٦٤ م .

١١٢ ـ فتوح الشام :
الواقدي : أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي (ت : ٢٠٧ هـ) .
دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة . بيروت . وعند الاختلاف أشير إلى الطبعة .

١١٣ ـ فجر الإسلام :
أحمد أمين .
الطبعة التاسعة : ١٩٦٤ م .

١١٤ ـ تهذيب تاريخ دمشق الكبير :
ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي (ت : ٥٧١ هـ) .
ترتيب عبد القادر بدران (ت : ١٣٤٦ هـ) .
دار المسيرة ـ بيروت : ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .

١١٥ ـ تلقيح مفهوم الأثر في عيون التاريخ والسير :
عبد الرحمن بن الجوزي .
المطبعة النموذجية ـ مكتبة الآداب ومطبعتها .

١١٦ ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) :
أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت : ٣١٠ هـ) .
تحقيق أبو الفضل / دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م . وعند الاختلاف أشير إلى الطبعة .

١١٧ ـ عصر المأمون :
الدكتور : أحمد فريد رفاعي .
مطبعة دار الكتب المصرية / القاهرة ١٩٤٦ هـ ـ ١٩٢٨ م .

١١٨ ـ عيون الأخبار :
ابن قتيبة الدينوري : أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت : ٢٧٦ هـ) .
الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٧٣ م .

١١٩ ـ التمثيل والمحاضرة :
الثعالبي . أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (ت : ٤٢٩ هـ)
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

١٢٠ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشاء :
القلقشندي : أبو العابس أحمد القلقشندي .
دار الكتاب السلطانية ـ المطبعة الأميرية / القاهرة ١٣٣٤ هـ ـ ١٩١٦ م .

١٢١ ـ العقد الفريد :
أحمد بن عبد ربه الأندلسي .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة / الطبعة الثالثة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م .

١٢٢ ـ التاج في أخلاق الملوك :
للجاحظ : عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ (ت : ٢٥٥ هـ) .
تحقيق : فوزي عطوي .
الشركة اللبنانية للكتاب / للطباعة والنشر والتوزيع .
بيروت ـ لبنان ١٩٧٠ م .

١٢٣ ـ بدائع السلك في طبائع الملك :
لأبي عبد الله بن الأزرق (ت : ٨٩٦ هـ) .
تحقيق الدكتور / علي سامي النشار .
منشورات وزارة الثقافة والفنون / الجمهورية العراقية : ١٩٧٨ م .

١٢٤ ـ خطط المقريزي :
كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .
مصور عن مطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ .
دار التحرير للطبع والنشر .

١٢٥ ـ قصص الأنبياء :
عبد الوهاب النجار .
مكتبة وهبة ـ الطبعة الثالثة .

١٢٦ ـ خالد بن الوليد المثل الأعلى للقيادة الظافرة :
بكر موسى .

سلسلة البحوث الاسلامية عدد ٥٤ لسنة ١٩٧٢ .

١٢٧ ـ النظام السياسي في الإسلام :
الدكتور / عبد الكريم عثمان .
دار الإرشاد ـ بيروت .
الطبعة الأولى : ١٩٦٨ م .

١٢٨ ـ الفخري في الآداب السلطانية والدولة الإسلامية :
محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي .
مطبعة الموسوعات / بمصر ١٣١٧ هـ .

١٢٩ ـ النظم الإسلامية نشأتها وتطورها :
الدكتور : صبحي الصالح .
دار العلم للملايين / بيروت / الطبعة الرابعة : ١٩٧٨ م .

١٣٠ ـ نظام الحكومة النبوية المسمى « بالتراتيب الإدارية » :
عبد الحي الكتاني .
الناشر : حسن جعنا / بيروت .

١٣١ ـ الطبقات الكبرى :
محمد بن سعد كاتب الواقدي .
دار التحرير / القاهرة : ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨ .

١٣٢ ـ معيد النعم ومبيد النقم .
السبكي : تاج الدين عبد الوهاب السبكي (ت : ٧٧١ هـ) .
تحقيق محمد علي النجار ، أبو زيد شلبي ، محمد أبو العيون .
الطبعة الأولى : ١٣٦٧ هـ ـ ١٩٤٨ م .

١٣٣ ـ الفن الحربي في صدر الإسلام :
عبد الرؤوف عون .
دار المعارف / بمصر : ١٩٦١ م .

١٣٤ ـ الرسول في المدينة :
الدكتور علي حسني الخربوطلي .
سلسلة السيرة النبوية (الكتاب الرابع) .
مطابع الأهرام التجارية .

١٣٥ ـ غزوة خيبر :
محمد أحمد باشميل .
دار الفكر ـ الطبعة الثانية : ١٩٧١ م .

١٣٦ ـ العلاقات الدولية والنظم القضائية في الشريعة الإسلامية :
الدكتور : عبد الخالق النواوي .
الناشر: دار الكتاب العربي- بيروت/ لبنان. الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

١٣٧ ـ السيرة النبوية :
ابن هشام . الإمام أبو محمد بن عبد المطلب بن هشام المعافري (ت : ٢١٨) .
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه . الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م .

١٣٨ ـ السيرة النبوية :
ابن كثير : الإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير (ت : ٧٧٤ هـ) .
تحقيق مصطفى عبد الواحد .
دار الفكر ـ بيروت . الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ ـ ١٩٧٨ م .

١٣٩ ـ عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير :
ابن سيد الناس : فتح الدين محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى .
دار الجيل ـ بيروت / الطبعة الثانية : ١٩٧٤ م .

١٤٠ ـ إنسان العيون (المشهور بالسيرة الحلبية) :
الحلبي : العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي .
الطبعة الأولى : ١٩٦٤ م .

١٤١ ـ الزرقاني على المواهب اللدنية

الزرقاني : محمد بن عبد الباقي الزرقاني المالكي .
المطبعة الأزهرية المصرية / الطبعة الأولى ١٣٢٦ هـ / ١٩٢٣ م .

١٤٢ ـ نهاية الأدب في فنون الأدب :
النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت : ٧٣٣ هـ) .
نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب .
وزارة الثقافة والإرشاد القومي ـ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة .

١٤٣ ـ محاضرات العلاقات الدولية في الفقه الإسلامي :
د . محمد مصطفى شحاته الحسيني .
مطبعة دار السعادة بمصر . الطبعة الأولى ١٣٩١ هـ / ١٩٧٦ م .

١٤٤ ـ قانون الحرب :
عبد العزيز علي جميع وعبد الفتاح عبد العزيز وحسين درويش .
مكتبة الأنجلو المصرية .

١٤٥ ـ الحقوق الدولية العامة :
د . فؤاد شباط ط : ١٩٦٢ م .

١٤٦ ـ أصول القانون الدولي العام :
« القاعدة الدولية » .
د . محمد سامي عبد الحميد .
مؤسسة شباب الجامعة / الإسكندرية : الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .

١٤٧ ـ القانون الدولي العام :
د . علي صادق أبو هيف .
الناشر : منشأة المعارف بالإسكندرية . الطبعة السابعة ١٩٦٤ ـ ١٩٦٥ م .

١٤٨ ـ مذكرة موجز القانون الدولي الحديث في الإسلام مقارن :
د . إبراهيم عبد الحميد . ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ .

١٤٩ ـ الملحق العسكري :
أميرالاي أركان حرب : أحمد شوقي عبد الرحمن .
الناشر : مكتبة النهضة المصرية / شركة فن الطباعة ١٣٦٩ هـ ـ ١٩٤٩ م .

١٥٠ ـ الوزارة :
الماوردي : أبي الحسن الماوردي (ت : ٤٥٠ هـ) .
الناشر : دار الجامعات المصرية الإسكندرية : مطبعة الشاعر / الطبعة الأولى ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م .

١٥١ ـ سلوك المالك في تدبير الممالك :
العلامة شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ألفه للخليفة المعتصم بالله العباس) .
المطبعة الخاصة بجمعية المعارف المصرية: خط بخط محمد علي الخرساني سنة ١٣٨٦هـ.

١٥٢ ـ مختصر سياسة الحروب :
للهرثمي صاحب المأمون .
تحقيق عبد الرؤوف عون .
المؤسسة المصرية العامة / مطبعة مصر ١٩٦٤ م .

١٥٣ ـ السياسة الشرعية في حقوق الراعي وسعادة الرعية :
السيد عبد الله جمال الدين قاضي قضاة مصر (ت : ١٣١٨ هـ) .
مطبعة الترقي / شارع عبد العزيز / بمصر ١٣١٨ هـ .

١٥٤ ـ الحسبة في الإسلام :
أحمد مصطفى المراغي .
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه / بمصر .

١٥٥ ـ نهاية الرتبة في طلب الحسبة :

عبد الرحمن بن نصر الشيزري (ت : ٥٨٩ هـ) .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

١٥٦ - معالم القربة في طلب الحسبة :
ابن الأخوة : محمد بن محمد بن أحمد القرشي .
مطبعة دار الفنون : كيمبرج ١٩٣٧ م .

١٥٧ - التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار :
الأسدي : محمد بن محمد بن خليل الأسدي .
تحقيق عبد القادر أحمد طليحات .
دار الفكر العربي / مطبعة مخيمر - الطبعة الأولى : ١٩٦٨ .

١٥٨ - عبقرية الإسلام في أصول الحكم :
د - منير العجلاني .
الطبعة الثانية : ١٩٦٥ م .

٦ - كتب متنوعة

١٥٩ - دائرة المعارف المصرية (مقتبس الأثر ومجدد ما دثر) .
الشيخ : محمد حسين الشيخ سليمان الأعلمي المهرجاني الحائري .
طبع مطبعة قم . الطبعة الأولى : ١٩٦٥ م .

١٦٠ - دائرة المعارف في القرن العشرين :
محمد فريد وجدي .
دار المعرفة / بيروت / لبنان / الطبعة الثالثة : ١٩٧١ .

١٦١ - دائرة المعارف الإسلامية :
وضع عدد من المستشرقين : ترجمة إبراهيم خورشيد ، وأحمد الشنتاوي ، والدكتور عبد الحميد يونس .
مطابع دار الشعب .

١٦٢ ـ المدخل إلى العقيدة والاستراتيجية العسكرية الإسلامية :
اللواء محمد جمال الدين محفوظ .
الهيئة المصرية العامة للكتاب : ١٩٧٦ م .

١٦٣ ـ المدرسة العسكرية الإسلامية :
محمد فرج .
دار الفكر العربي : ١٩٦٩ .

١٦٤ ـ الجاسوسية الأميركية :
اندروتولي / ترجمة وليم خوري .
الطبعة الثانية / مطبعة الاعتدال / دمشق .

١٦٥ ـ فن إدارة المعركة في الحروب الإسلامية :
للسيد محمد نمر .
سلسلة البحوث الإسلامية . كتاب ٤٥ ـ ١٩٧٢ .

١٦٦ ـ الجاسوسية بن الوقاية والعلاج :
أحمد هاني .
الشركة المتحدة للنشر والتوزيع / القاهرة : ١٩٧٤ م .

١٦٧ ـ التكيف النفسي :
الدكتور : مصطفى فهمي .
مكتبة مصر / دار مصر للطباعة ١٩٧٨ .

١٦٨ ـ الصديق : أبو بكر :
محمد حسين هيكل .
دار المعارف / بمصر / الطبعة السابعة : ١٩٧٥ م .

١٦٩ ـ إحياء علوم الدين :
الغزالي : محمد بن محمد بن محمد بنأحمد أبو حامد الطوسي الغزالي (ت : ٥٠٥ هـ) .

دار إحياء الكتب العربية .
مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

١٧٠ ـ الوجيز في العسكرية الإسرائيلية :
اللواء محمود شيت خطاب .
دار الاعتصام / القاهرة : الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ : ١٩٧٧ م .

١٧١ ـ اشتراكية عثمان :
محمود شلبي .
دار الجيل / بيروت : الطبعة الثانية ١٩٧٤ م .

١٧٢ ـ الجاسوسية الإسرائيلية وحرب الأيام الستة :
زفى الدوبي ، جيرولد بالينغر .
تعريب : غسان النوفلي : ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

١٧٣ ـ الدوافع النفسية :
الدكتور مصطفى فهمي .
الناشر : مكتبة مصر ـ دار مصر للطباعة / القاهرة .

١٧٤ ـ الحرب النفسية :
صلاح نصر .
دار القاهرة للطباعة والنشر / القاهرة / الطبعة الثانية ١٩٦٧ م .

١٧٥ ـ العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ﷺ :
محمد فرج .
دار الفكر العربي / مطبعة المدني / القاهرة / الطبعة الثاللثة ١٩٧٧ م .

١٧٦ ـ عبقرية خالد :
عباس محمود العقاد .
دار المعارف / القاهرة .

١٧٧ ـ الرسول القائد :
محمود شيت خطاب .
دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة / الطبعة الثانية ١٩٦٠ م .

١٧٨ ـ عبقرية عمر :
عباس محمود العقاد .
دار نهضة مصر للطبع والنشر / الفجالة / القاهرة .

١٧٩ ـ غياث الأمم في التياث الظلم :
إمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت : ٤٧٨ هـ) .
نشر الدعوة ـ الإسكندرية ١٩٧٩ م .

١٨٠ ـ جاسوس من اسرائيل « إيلي كوهين » .
بن يوران ، يوري دان .
دار العلم للملايين / بيروت ـ الطبعة الثانية : ١٩٦٨ م .

١٨١ ـ الرسول ﷺ :
سعيد حوى .
الطبعة الرابعة : ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

١٨٢ ـ الجاسوس على القاموس :
أحمد فارس الشدياق .
مطبعة الجوائب .

١٨٣ ـ أعلام النساء :
عمر كحالة .
المطبعة الهاشمية / دمشق .

٧ ـ المجلات والصحف

أولاً : المجلات :

مجلة الأزهر :

الجزء الخامس عدد شعبان ١٤٠٠ هـ : ١٩٨٠ م .

المجلة العسكرية :

تصدرها القوات المسلحة الأردنية . عدد ٩ لسنة ١٩٥٧ ، عدد ٢٦ سنة ١٩٦١ م ، عدد ٤٢ ، ٤٣ ، سنة ١٩٦٥ .

ـ مجلة المجلة ـ صحيفه مصورة من جمهورية ألمانيا الديمقراطية ٧ / ١٩٨٢

ـ الحرس الوطني ـ السعودية ـ السنه ١٥ ـ العدد ١٧ إبريل ١٩٨٤ م .

ثانياً : الصحف :

جريدة الدستور : ١٤ / ٣ / ١٩٧٩ م . ، ١ / ٥ / ١٩٨٢ ، ٢٥ / ١ / ١٩٨٢ م .

جريدة الأهرام : ٢٥ يوليو ١٩٧٥ م .

☆ ☆ ☆

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة الطبعة الأولى	٩
المقدمة	١٣

الباب الأول
في التجسس والجاسوس
الفصل الأول
في معنى التجسس وأهميته

الموضوع	الصفحة
المبحث الأول : في معنى التجسس لغة واصطلاحا	٢٣
المطلب الأول : في معنى التجسس لغة	٢٣
المطلب الثاني : في معنى التجسس في الاصطلاح	٢٦
تعريف الجاسوسية	٢٦
تعريف الجاسوس	٢٨
تعريف التجسس	٢٩
المبحث الثاني : في أهمية التجسس	٣٢
التجسس وسيلة من وسائل الظفر	٣٢
اهتمام الدول القديمة والحديثة بالتجسس وجمع المعلومات عن العدو	٣٣
التجسس أحد الضمانات لبقاء الدولة واستقلالها	٣٥
استفادة العباسيين من نظام البريد في نقل الأخبار	٣٦
معرفة العدو لا تقتصر على العسكريين	٣٩
التجسس أساس التخطيط للعمليات العسكرية	٤١
من سياسة الإمام معرفة حال العدو بالجواسيس	٤٢

استعمال المكائد في الحرب.. ٤٢
أهمية البحث في معرفة أهل البدع والضلالة ٤٥
المبحث الثالث : لمحة تاريخية في التجسس........................ ٤٧
التجسس عند المصريين القدماء.................................... ٤٧
الإسكندر المقدوني يتخذ الجواسيس ٤٨
التجسس عند الصينيين ٤٨
التجسس عند اليهود.. ٤٨
قصة سليمان بن داوود مع الهدهد وملكة سبأ......................... ٤٨
دولتا الفرس والروم تستخدمان الجواسيس............................ ٥١
التجسس عند العرب قبل الإسلام.................................... ٥٢
المبحث الرابع : التجسس في عهد الرسول ﷺ ٥٤
المطلب الأول : في استعمال الرسول ﷺ للأدلاء والجواسيس في بعض غزواته........ ٥٥
استعمال الرسول ﷺ للجواسيس في بدر.............................. ٥٦
وصية رسول الله ﷺ إلى أسامة بن زيد.............................. ٥٧
عيون الرسول ﷺ في مكة والمدينة.................................. ٥٨
استعمال العيون في غزوة حنين والخندق.............................. ٥٩
المطلب الثاني : الحرص من تسرب الأخبار إلى العدو.................. ٦٠
التكتم في حركة الجيش عن العدو.................................. ٦١
التورية في غزوات الرسول ﷺ...................................... ٦٢
الحراسات حول المدينة المنورة...................................... ٦٣
استعمال الرسول ﷺ للأوامر المختومة ٦٤
التعمية على العدو في بدر.. ٦٤
المطلب الثالث : الحذر من العدو في الحرب والسلم...................... ٦٥
أمره ﷺ في تعلم لغة العدو... ٦٧
استعمال الشعار « كلمة السر » في غزواته ﷺ......................... ٦٧
المطلب الرابع : استنتاج المعلومات.................................. ٧٠

استجوابه ﷺ للأسرى وأخذ المعلومات منهم.................................. ٧٠
المطلب الخامس : اختيار الرسول ﷺ من فيه الكفاية لجمع المعلومات.............. ٧٢
استشارة الرسول ﷺ للمسلمين وإعطاء فرصة الخيار في الدخول في العدو............ ٧٣
المبحث الخامس : في أمثلة من التجسس في الفتوحات الإسلامية الأولى............ ٧٥
من وصايا الإمام أبي بكر الصديق إلى بعض قادة الفتح الإسلامي باستعمال........
الجواسيس والحذر من العدو.. ٧٥
من وصايا عمر بن الخطاب إلى قادة جنده باستعمال الجواسيس ٧٧
تطبيقات بعض قادة الفتح الإسلامي واستعمال الجواسيس.............................. ٧٩

الفصل الثاني

في شخصية الجاسوس وإعداده

المبحث الأول : في تحليل شخصية الجاسوس.. ٨٦
المطلب الأول : في تحليل شخصية الجاسوس.. ٨٦
التوافق بين الفرد والعمل... ٨٦
اختلاف الهدف الذي يعمل من أجله الجاسوس... ٨٧
التجسس رغبة في التجسس.. ٨٧
الجاسوس المواطن.. ٨٧
الظروف المحيطة بالجاسوس لاختيار عمل التجسس...................................... ٨٨
غسيل المخ طريق يرفضه الإسلام.. ٨٨
وضع الحوافز المادية والمعنوية للجاسوس... ٨٩
المطلب الثاني : في الشروط التي يجب توفرها في الجاسوس الناجح ٩١
المواءمة بين متطلبات العمل وقدرات الأفراد... ٩١
شروط الجاسوس الناجح.. ٩٢
الصدق.. ٩٢
الحدس الصائب والفراسة التامة.. ٩٣
الذكاء.. ٩٣

قوة الملاحظة والقدرة على التعبير.. ٩٣
الدهاء والحيلة والخديعة.. ٩٤
القدرة على التمثيل والتلون والتخفي.. ٩٤
الشجاعة والإخلاص والوفاء والطاعة.. ٩٥
المعرفة بالأسفار والخبرة بالبلدان... ٩٦
معرفة لسان أهل البلاد.. ٩٧
التحلي بالصبر.. ٩٧
السرعة في إنجاز المهمات والاهتمام بالوقت ٩٨
الإلمام بمختلف المعارف والرياضات... ٩٨
المبحث الثاني : في إعداد الجاسوس.. ١٠٠
المطلب الأول : في تدريب الجاسوس.. ١٠٠
مواجهة الجاسوس للأمور والمواقف المختلفة ١٠١
تدريب الجاسوس على أنماط سلوكية مختلفة ١٠١
تدريب الجاسوس على الاختفاء والتنكر... ١٠١
تمرينات التميز للوجوه والظروف والملابسات وبث الإشاعات...................... ١٠٢
إنشاء ديوان خاص للجواسيس... ١٠٤
المطلب الثاني : في معاملة الجاسوس... ١٠٥
عدم إظهار الاتهام للجاسوس ١٠٥
تعهد أهل الجواسيس بالصلات والنفقة... ١٠٦
الصفح عن الجواسيس.. ١٠٦
السرية في تحريك الجواسيس... ١٠٦
الإصغاء إلى ما يقوله الجاسوس.. ١٠٧
عدم التسرع في إيقاع العقوبة على المخطئين من الجواسيس...................... ١٠٨
دوام البشر مع الجاسوس والاهتمام به دون إفراط.................................. ١٠٨
إعطاء الحوافز والجوائز للجواسيس.. ١٠٨
المطلب الثالث : في كسب الجواسيس من الأعداء.................................. ١٠٩

جهاز المخابرات في مقدمة أجهزة الدولة الدفاعية ١٠٩
التأثير على الأفراد لكسبهم كجواسيس للدولة ١٠٩
المرتزقة طريق لأخذ المعلومات ١١٠
الطابور الخامس وسيلة لبث الرعب في نفوس المواطنين ١١١
استجواب جواسيس الأعداء ١١١
إيهام جواسيس العدو ١١٢

الباب الثاني
في أحكام التجسس والوقاية منه
الفصل الأول
في أحكام التجسس في الفقه الإسلامي

المبحث الأول : التجسس المشروع ١١٧
المطلب الأول : التجسس على الأفراد والجماعات ومعرفة طاقاتهم والاستفادة منهم ... ١١٧
استغلال طاقات أفراد المجتمع ١١٨
الحاكم يتخذ الأعوان والمساعدين ١١٩
الظلم في تولية غير المستحق ١١٩
البحث عن سرائر الخاصة والعامة ١٢٣
اتخاذ الوزراء ١٢٤
الوزير يطالع السلطان بأسرار الدولة ١٢٥
المطلب الثاني : في تجسس الدولة على أهل الريب والمجرمين وتعقبهم والوقوف على حال الرعية ١٢٧
أنس بن مالك كصاحب الشرط بين يدي الرسول ﷺ ١٢٨
أبو عبيدة أمين الأمة ١٢٨
واجب الدولة أن تتجسس عند وقوع الجريمة ١٢٩
حرمة التجسس على المسلمين إلا عند الضرورة ١٢٩
عمر بن الخطاب يتجسس على العدو ١٣٣

المطلب الثالث : في التجسس على العدو ١٣٥
الحذر من الأعداء وضرورة التجسس ١٣٦
التجسس على العدو من أجل الأعمال الجهادية ١٣٦
المبحث الثاني : في التجسس غير المشروع ١٤٠
المطلب الأول : التجسس المؤدي إلى الوقوف على العورات ١٤٠
حرمة الاستنصات والنظر إلى العورات ١٤١
حرمة المساكن ١٤٣
اختلاف الفقهاء في طريقة دفع الناظر وضمانه ١٤٣
أدلة الرأي الأول ١٤٤
أدلة الرأي الثاني ١٤٥
الاستئذان في دخول البيوت ١٤٧
كيفية الاستئذان في دخول البيوت ١٤٨
حكم مسترق السمع ١٤٨
المطلب الثاني : التجسس لحساب العدو ١٥٠
المطلب الثالث : التجسس المزدوج ١٥٢
المبحث الثالث : في عقوبة الجاسوس ١٥٥
المطلب الأول : في عقوبة الجاسوس المسلم ١٥٥
أدلة الرأي الأول ١٥٦
أدلة الرأي الثاني ١٥٨
أدلة الرأي الثالث ١٥٨
الترجيح ١٦١
المطلب الثاني : في عقوبة الجاسوس غير المسلم ١٦٣
عقوبة الجاسوس الذمي ١٦٣
أدلة الرأي الأول ١٦٤
أدلة الرأي الثاني ١٦٧
أدلة الرأي الثالث ١٦٨

الترجيح.. ١٧٠
عقوبة الجاسوس المستأمن ١٧٢
الرأي الأول ١٧٣
الرأي الثاني ١٧٣
أدلة الرأي الأول.. ١٧٣
أدلة الرأي الثاني.. ١٧٥
الترجيح.. ١٧٥
عقوبة الجاسوس الحربي.. ١٧٦
الأدلة ١٧٦
وجه الاستدلال.. ١٧٧

الفصل الثاني
في مكافحة التجسس

المبحث الأول : في توعية المجتمع من خطر التجسس........................... ١٨٣
المطلب الأول : النهي عن مكاشفة الأعداء ونقل الأخبار لهم ١٨٤
المطلب الثاني : تماسك الجبهة الداخلية ومحاربة الإشاعات.................... ١٩٢
المبحث الثاني : في حماية الثغور من التجسس.................................. ٢٠٣
المطلب الأول : في فضل الرباط في سبيل الله...................................... ٢٠٤
المطلب الثاني : شحن الثغور بالجيش وإذكاء الروح القتالية فيهم ٢٠٦
المبحث الثالث : سرية التحركات العسكرية.. ٢١٤
المطلب الأول : تطهير الجيش من المخذلين والتكتم في خططه وحركته........ ٢١٤
المطلب الثاني : استعمال الحيل لكسب المعركة...................................... ٢٤
خاتمة ونتائج البحث.. ٢٢٩
ملحق نص الفتوى الصادرة عن دار الإفتاء المصرية ٢٣٧
أ ـ خيانة الوطن تحت رقم ١٠٥٣ .... ٢٣٧
ب ـ التجسس في الإسلام تحت رقم ١١١٣................................... ٢٣٩